كردستان

رسالة الكرد إلى العالم

(السنة الأولي - العدد الأول - 22 أبريل 2022) شهرية ثقافية شاملة

ذكرى حملة الأنفال

سيئة الصيت

الكرد في مصر المحروسة

الإعلام الكُردي

لا يتحدث بلغة غيره

الرؤية الوطنية في شعر فقي تيران

العائلة البدرخانية قافلة مليئة بالعذاب والآلام

أسس بناء فكر كردي معاصر

دراسة فى رواية "خوف بلا أسنان" للروائي الكردي حليم يوسف

جكر خوين .. الشاعر المتمرد

الكساد الأخلاقي للمعارضة والكوردي الجيد

السينما الكردية بين الواقع والطموح

الكورد من الكهف إلى بناء الحضارة

اللوحات الفنية المصاحبة للقصص القصيرة للفنانة التشكيلية / روناك عزيز

قواعد النشر

- ـ المجلة لسان الكُرد المعبر عنهم، وجسرًا للتواصل مع الشعوب العربية، وتلتزم قواعد الحوار والقيم الإنسانية النبيلة، وتدعو للتآخي والتعايش السلمي بين الشعبين الكردي والعربي.
- ـ يلتزم الكُتاب بمراعاة هذه القيم والقواعد، واحترام كافة الأديان والعقائد أو الخصوصيات.
- ـ ألا يزيد عدد كلمات المقال عن ١٥٠٠ كلمة والدراسة عن ٥٠٠٠ كلمة. مع إرفاق الصور الشخصية والتعبيرية المناسبة والمدعمة للموضوع.
- ـ ترتيب الموضوعات وأسماء الكُتاب يخضع لاعتبارات فنية خالصة، والمجلة تعتز بكل كُتابها.
- ـ المواد المنشورة بالمجلة تُعبر عن آراء كُتابها ولا تُعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

كردستان

مجلة شهرية (فصلية مؤقتًا)
ثقافية شاملة يكتبها الكرد
ليقرأها كل العرب

صاحب الامتياز
رئيس التحرير

السيد عبد الفتاح

المراسلات باسم
رئيس التحرير

٤٦ المنطقة ١٩ ـ
العمرانية الثانية
الحي ١١
مدينة ٦ أكتوبر
مصر

إيميل:
rof_sayed@hotmail.com

ت/واتس:
00201148852668

مركز القاهرة للدراسات الكردية
Cairo Center For Kurdish Studies

مجلة كردستان لماذا الآن ؟

في مثل هذا اليوم وقبل ١٢٤ عامًا، وبالتحديد يوم الخميس الثاني والعشرين من أبريل/ نيسان ١٨٩٨، أصدر الأمير مقداد مدحت بدرخان جريدة «كردستان»، من مدينة القاهرة المحروسة عاصمة مصر، لتكون أول صحيفة كردية وليجعل أحفاده من يوم صدروها عيدًا للصحافة الكردية يحتفلون به سنويًا.

السيد عبد الفتاح

لم يصدر الأمير بدرخان صحيفته ويتحمل أعباءها المادية والجسدية والفكرية وما جرّته عليها من مشاكل من السلطة العثمانية، إلا لوطنيته المخلصة وتجردًا من أي مصالح أو أهداف وأهواء شخصية، ولإدراكه أهمية أن يكون لقضيته وشعبه لسان ووسيلة يعبر بها عن حقوقه الراسخة وأحلامه المشروعة وآماله وطموحاته، ولتكون منبرًا يعبرون فيه عن ذواتهم، ولإحياء وترسيخ الحس والشعور الوطني داخل كل كردي في العالم حيث أن توزيع الصحيفة لم يقتصر على مصر، كما أنها صدرت بعد ذلك من عدة مدن عالمية.

الأمير بدرخان وكما كتب في افتتاحية العدد الأول من صحيفته أكد على أهمية العلم والعمل والسعي والنشاط، وحث الكُرد على أن يسارعوا بتعليم أبنائهم وإكسابهم مختلف صنوف العلم والثقافة والمعرفة، حتى يستطيعوا أن يواكبوا العصر الذي يعيشونه ويكونوا على قدم وساق مع الشعوب الأخرى من تقدم وتطور. كما حث علماء وأغوات الكُرد على الدعوة بإخلاص لتحقيق هذه الغاية النبيلة.

واليوم وبعد مرور ما يقرب من قرن وربع القرن، ورغم بعض التغير في الظروف والملابسات من حيث التطور التكنولوجي والعلمي والمعرفي والثقافي، وتحول العالم كله إلى ما يشبه القرية الصغيرة، والتغيرات السياسية التي شهدتها المنطقة والعالم. إلا إنني أجد أن الأسباب الموضوعية التي دعت الأمير بدرخان ليصدر صحيفة كردستان، لا تزال موجودة رغم بعض الاختلافات الظاهرية دون الجوهرية. فإذا كان الكُرد قبل ١٢٤ عامًا كانوا في حاجة إلى منبر وطني يعبر عن آلامهم وآمالهم وحقوقهم وطموحاتهم، فإنهم الآن في أمسّ الحاجة إلى مثل هذا المنبر فلا تزال القضية الكُردية موجودة عمدًا دون أي حل، ولا تزال الحقوق الكُردية المشروعة مسلوبة من الشعب الكردي بتآمر دولي وإقليمي مكشوف ومتعمد، ولا يزال التشويه والتهميش والجهل بالشعب الكردي وحقيقة وجوده وحقوقه ومشروعية هذه الحقوق ورسوخها. وهو ما يجعل من المهم وجود منبر يطل منه الكُرد ويعبر عنهم بلسانهم وكتاباتهم وليس بلسان وكتابة غيرهم عنهم.

وإذا كان لا يمكن إغفال ما طال القضية الكردية وأوضاع الكُرد من تطور وتقدم في الكثير من الجوانب ومنها بكل تأكيد الجانب السياسي والاقتصادي والإعلامي، إلا أن هناك ـ في رأيي ـ قصور في التعبير عن الذات والتواصل مع الآخر وخاصة الشعوب العربية ـ وفي القلب منها الشعب المصري ـ على الرغم من العلاقات التاريخية القديمة والعيش المشترك بين الجانبين، وكذلك على الرغم من الإمكانيات والمقومات الإعلامية والثقافية الضخمة التي يملكها الكُرد الآن، إلا أنه يمكن القول وحسب ما يذهب الإعلامي الكُردي المميز أحمد الزاويتي، أن الإعلام الكردي يخاطب نفسه ولا يخاطب أو يتحدث مع الآخر. نعم هناك عدد كبير من القنوات الفضائية الضخمة ماديًا وبشريًا وفنيًا، ومثلها الإذاعات والصحف والمجلات والمؤسسات الصحفية والإعلامية، غير أن أغلبها إن لم يكن جميعها يركز على الجانب المحلي أي الكردي، وتفتقد إلى وجود خطاب إعلامي وثقافي موجه إلى الآخر ويستهدف الغير وخاصة الشعوب العربية، ولعل هذا ما كشف عنه الاستفتاء الذي جرى في إقليم كردستان قبل سنوات، حيث لم يكن هناك اهتمام أو تعاطي إيجابي شعبي عربي معه، ليس لأن الرأي العام العربي ينكر على الكُرد هذا الحق، ولكن لأن الشارع العربي والمصري لا يعرفون كثيرًا عن الكُرد، وإن عرفوا فهي معلومات مغلوطة ومشوهة وأكاذيب رسخت في الذاكرة بفعل الترسانة الإعلامية الضخمة للأنظمة الحاكمة في الدول التي يعيش فيها الكُرد، مع غياب ما يواجه ذلك من جانب الكُرد.

أعرف أن هناك نجاح ملحوظ وعلاقات سياسية ودبلوماسية واقتصادية للكُرد مع الأنظمة والحكومات العربية، ولكني أرى أن ذلك لا يكفي، فهناك القوى الناعمة التي لا تقل أهمية بل إنها تحقق نتائج أكبر. فترسيخ وتقوية العلاقات بين الشعوب هو الأهم والأبقى والأكثر تأثيرًا، وفي القلب من ذلك التواصل الثقافي والإعلامي والفني مع الشعوب العربية.

أعتقد أن كتابًا أو رواية أو قصيدة أو أغنية أو فلكلور كردي سيكون أكثر تأثيرًا وأسرع وصولًا للشعوب العربية والرأي العام العربي، أقول هذا جازمًا وأنا المصري العربي.

من هنا جاءت أهمية إصداري مجلة "كردستان" في نفس اليوم ومن نفس المكان والأرض التي أصدر فيه ومنها الأمير بدرخان أول صحيفة كردية، وبنفس الاسم، في دلالات لا تخفى سواء الاسم أو اليوم أو المكان. مع اختلاف بسيط هو أن مجلة كردستان بمثابة لسان الكُرد ورسالتهم ووسيلتهم للتواصل مع المصريين والعرب، لسانهم المعبر عن تاريخهم وجغرافيتهم وتراثهم وحقوقهم ومعتقداتهم وثقافتهم وفكرهم وأدبهم رواية وقصة وشعرًا ونقدًا، بلسانهم وكتابتهم هم بعيدًا عن لسان وكتابات الآخر الذي في أوقات ليست قليلة لم يكن منصفًا. وهي ـ المجلة ـ رسالتهم للمصريين والعرب الداعية إلى ترسيخ القيم الإنسانية النبيلة ـ التي تميز الشعب الكردي ـ للتعايش والتآخي والتعاون والمحبة.

ومستحضرًا ما كتبه الأمير بدرخان في افتتاحية صحيفته قبل ١٢٤ عامًا، أقول كما قال" إنني أعمل متبرّعًا لوجه الله تعالى، حيث أصدرت هذه الجريدة/ المجلة وأصرف الكثير من المال على هذا الطريق وأقاسي العديد من المصاعب، وإن هدفي من عملي هذا هو خدمة الكرد". وهذا واجبي بكل تأكيد نحو الشعب الذي أحبه.

المجلة مفتوحة صفحاتها لكل كاتب ومثقف وقارئ كردي في أي مكان بالعالم، هي لكل الكُرد دون تمييز حسب الانتماء المكاني أو السياسي أو الأيديولوجي أو الديني والعقيدي والمذهبي. وهي مستقلة تمامًا لا تهدف إلا لخدمة الشعب الكردي بمجمله بمختلف تنوعاته وتوجهاته وانتماءاته دون أن تكون محسوبة على طرف ضد طرف أو تعمل لصالح طرف وحده أو تعبيرًا عن طرف بمفرده.

وأرجو الله أن تنال مبادرتي هذه رضا وقبول الشعب الكُردي العظيم الذي أؤمن بقضيته وحقوقه وأعتبر نفسي جنديًا في خدمته، وأنتظر بكل شوق كل مساهماتكم وملاحظاتكم وانتقاداتكم ونصائحكم المخلصة لتخرج المجلة/ مجلتكم في أبهى وأفضل صورة.

وحتى تستمر المجلة في الصدور وأداء رسالتها وتحقيق أهدافها، أدعو جميع الكُرد في كل أرض كردستان والعالم، أفرادًا وسياسيين وحزبيين ومثقفين ومفكرين وأدباء ومؤسسات ورجال أعمال وأصحاب قرار، إلى المسارعة بالوقوف بجانبها ودعمها ومساندتها بكل أشكال الدعم والمساندة المعنوية والمادية حتى تواصل الصدور والقيام بدورها المهم،

وأن نتكاتف جميعًا يدًا بيد لتبقى الدماء تتدفق في شرايينها.

كردستان

"كردستان"

أول صحيفة باللغة الكردية في التاريخ المعاصر

في نهاية القرن التاسع عشر وخلال فترة تواجد الأمير الكردي مقداد مدحت بدرخان في القاهرة برحلة علاج واستشفاءٍ من مرضٍ كان قد ألمَّ به ،اطّلعَ على تطوّر الحركة الثقافية والأنشطة التجارية والعمرانية والفنية في مصر، فقارنَ وضعَ المصريين هناك بوضع الأكراد المبتلين بآفاتِ الجهل والتخلف في كردستان، ولاحظَ فرقاً كبيراً في الحالة المعيشية والثقافية والاجتماعية بين الوضعين، فراودته فكرة إصدار جريدة باللغة الكردية تهتم بنشر الوعي والعلم والمعرفة بين بني قومه المحرومين من نعمة العلم ونور المعرفة ومصادرها، لعلّ وعسى أن تساهم في رفع سوية تفكيرهم وتغيير نمط سلوكهم المائل نحو الركود والسكون، وحثّهم على العمل لتغيير واقعهم نحو الأفضل.

نواف بشار عبد الله

نضجت الفكرة، وبتاريخ يوم الخميس ٣٠ ذو القعدة سنة ١٣١٥ هجرية المصادف ٢٢ نيسان ١٨٩٨م، أصدر الأمير مقداد بدرخان العدد الأول من صحيفةٍ أسماها «كردستان» باللغة الكردية والحروف العربية في القاهرة، منوّهاً بأنها صحيفة نصف شهرية، وسوف يرسل ألفي نسخة من كل عدد منها إلى وطنه كردستان لتوزيعها على القرّاء مجاناً.

بعد صدور العدد الأول الذي لاقى استحساناً ومباركة من كبار علماء الأكراد في ذلك العصر، ثارت ثائرة السلطان العثماني عبد الحميد باشا وطالب صاحبها بإيقافها على الفور، مشدداً على أنه لن يسمح بصدور مثل هذه الجريدة من أرض سلطنته!. حاول الأمير الكرديَّ عبثاً، بقلمه وهدوئه ورصانته وقوة منطقه، إقناع السلطان منحه رخصة سلطانية، فغادر القاهرة ليعود إلى استانبول بعد إصداره خمسة أعداد منها.

بعد فترةٍ وجيزةٍ من عودة الأمير مقداد بدرخان إلى استانبول، غادر الأمير عبد الرحمن بدرخان السلطنة إلى سويسرا وتابع إصدار الجريدة التي وضع أسسها أخوه الأمير مقداد، بدءًا من العدد السادس ولغاية العدد التاسع عشر في مدينة جنيف السويسرية، حيث كتب مقدمة العدد السادس باللغة العثمانية، بمثابة عريضة للسلطان، يبين له فيها أنه قد خرج من ملكه، وأنه سيستأنف ما بدأ به أخوه الأمير مقداد، متعهداً باستمرار خدمة بني قومه الكرد عبر النصح والوعظ والإرشاد ونشرها في الجريدة، وأنه سيتابع إرسال ألفي نسخة من كل عدد إلى كردستان مجاناً.

عاد الأمير عبد الرحمن إلى القاهرة ليصدر منها العدد ٢٠ وحتى العدد ٢٣، ثم غادرها مرة أخرى تحت ضغط السلطان المتعنت برأيه وموقفه المعادي لهذه الصحيفة. وأصدر العدد ٢٤ في لندن. ومن العدد ٢٥ حتى العدد ٢٩ في مدينة فولكستون البريطانية. عاد مرةً أخرى إلى جنيف السويسرية ليصدر فيها آخر عددين ٣٠ و٣١، حيث صدر العدد ٣١ والأخير من هذه الصحيفة بتاريخ الاثنين ٦ محرم سنة ١٣٢٠ هجرية الموافق ١٤ نيسان ١٩٠٢، بعد حياةٍ دامت أربعة أعوام مليئةٍ بالمنع والملاحقةً والتضييق، وبذلك، أسدِل الستار على هذه الصحيفة، فغدا يوم صدور العدد الأول منها أي يوم ٢٢ نيسان من كل عام، يوماً للصحافة الكردية.

ولإحاطة قرّاء العربية الكرام بمضمون هذه الصحيفة ومقالاتها التي تناولت العديد من المجالات والشؤون السياسية والتاريخية والأدبية، سأختار بعض المقالات وترجمتها إلى اللغة العربية، علماً بأنني لم أصادف من قام بترجمة مقالاتها قبل الآن، آملاً تقديم الفائدة المرجوة للسادة قراء العربية، وسأبدأ بترجمة افتتاحية العدد الأول المكتوبة بقلم الأمير مقداد بدرخان.

ترجمة افتتاحية العدد الأول من صحيفة «كردستان»بقلم الأمير مقداد مدحت بدرخان

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله ونشكره مائة ألف مرةٍ على خلقه لنا مسلمين، ووهبنا العقل والذكاء لتعلم العلم والمعرفة. هناك الكثير من الآيات الجليلة والأحاديث الشريفة التي تحثُّ المرء على اكتساب العلوم والمعارف أنّى يتواجد المسلمون اليوم في هذه الدنيا، توجد المكاتب والمدارس والجرائد في قراهم ومدنهم جميعاً، حيث تكتب هذه الجرائد عن كل الأحداث والوقائع، لكنّ ما يؤسفني هو أن الأكراد الذين يتفوقون على العديد من الأقوام بذكائهم ونباهتهم، ويتميزون بالطيبة والصدق وقوة البنيان، لكنهم خلافاً للأقوام الأخرى أميّون وفقراء، يجهلون ما تجري من أحداثٍ في هذه الدنيا، ولا يعرفون ما يُخَبِّئُه لهم جارهم الموسقوف(الروس-المترجم) وماذا سيفعل بهم مستقبلاً!، لهذا، ولوجه

الله تعالى قررت إصدار هذه الجريدة التي سوف أقوم بتحرير ونشر عددٍ منها كلَّ خمسة عشر يوماً بدءاً من هذا التاريخ. لقد أسميتها «كردستان»، وسوف أتحدث فيها عن منافع العلوم والمعارف، وأحدد الأمكنة التي يتعلم فيها الناس، تلك التي تتواجد فيها المكاتب والمدارس الجيدة والمتميزة، لأدلَّ الأكراد عليها كي يرسلوا أولادهم للتعلم فيها، كما سأتحدث عن الحروب بين الدول وماذا تفعل الدول الكبرى وكيف تحارب أعداءها، وكذلك عن كيفية مزاولة التجارة. سأتحدث عن كلِّ هذه القضايا. لم يقم أحد من الأكراد حتى الآن بالكتابة في هذه الشؤون، وتعتبر جريدتي هذه هي الأولى على هذا الطريق، ولذلك، سوف تحمل الكثير من الأخطاء، راجياً منكم أن تكتبوا لي عن أخطاء هذه الجريدة، لأنه من الطبيعي أن يكون كل شيء في بدايته يافعاً وناقصاً، وبمرور الزمن يقوى عودُه ويشتدّ، وها أنذا أبدأ القصد (ومن الله التوفيق).

قال حضرة النبي عليه الصلاة والسلام «العلماء ورثة الأنبياء»، أي أنهم مأمورون من الله تعالى أن يقوموا بوعظ الناس واستدلالهم على الطريق القويم، لذلك يا علماء الأكراد، يُطلبُ منكم أن تقوموا بتشويق أمراء الأكراد وأغواتهم الذين تعرفونهم على تعلم العلم والمعرفة وتدلّوهم على طريق الصواب بنفس القدر الذي تقومون به بالوعظ والنصيحة وأداء فريضة الصلاة، إن لم تفعلوا هذا، فاعلموا بأنكم تتحمّلون ذنوبهم جميعاً!.

الصفحة الأولى من العدد الأول

كما قال حضرة النبي عليه السلامُ أيضاً «العلم علمان، علم الأبدان وعلم الأديان»، أي أنه هناك علمان، أحدهما علم الأبدان وهو علم الطب، والآخر هو علم الدين والإيمان. يا أمراء وأغوات الأكراد!، إني لأسألكم من منكم قد اكترث لأمر النبي هذا؟ ومن منكم قام بإرسال أولاده، إخوته أو أهله للتعلم؟ من منكم قام ببناء مدرسة أو مكتب في قريته؟. أيها العلماء!: لماذا لا تقرأون تلك الأحاديث آنفة الذكر للأمراء والأغوات، ولماذا لا تقرأون الجرائد العربية لتعرفوا ما تجري من أحداثٍ في هذا العالم؟.

قال حضرة النبي أيضاً «الكاسبُ حبيب الله» أي أنّ الله تعالى يحبُّ من عَباده من يعمل ويكسب من عمله أجراً، فالإنسان الأميُّ الذي لا يعرف القراءة، لا يستطيع قراءة الصحف، ومن لا يقرأ الصحف، لا يعرف الأماكن المربحة لمزاولة التجارة، فالجرائد التي تصدر في هذه الأيام تتحدث عن كل شيء، والإنسان الذي يقرأها، يعرف أين تباع بضاعته التي يملكها بأثمانٍ عالية وأين تلقى رواجاً.

في السنوات القليلة الماضية تمَّ تأسيس مدرسة في استانبول اسمها مدرسة العشائر، لا تقبل هذه المدرسة الطلاب سوى أبناء العشائر. قامت عشائر الشمر والعنزه من بغداد والشام واليمن بإرسال أبنائَها إلى استانبول للتعلم فيها، حيث يحصلون خلال دراستهم على إجازة سنوية مدتها شهران يزورون فيها أوطانهم ويلتقون بأهلهم ثم يعودون إلى مدرستهم لاستمرار تحصيل العلم والمعرفة، يتخرّجون منها بعد ستة أو سبعة أعوام ليصبحوا علماءً جيدين نافعين، يعودون إلى مدنهم وقراهم، ويحصلون على وظائف مرموقة. تدفع الدولة لهم رواتبَ مجزية، ويتدرّجون في المراتب الوظيفية من مأمورين إلى متصرّفين ووُلاة. أيها الأمراء والأغوات! عليكم أن تعرفوا بأنكم تتحمّلون خطايا أولادكم. يُطلب منكم أن تقوموا بإرسال أولادكم إلى تلك المدرسة للتعلم فيها، وإن لم تفعلوا، فإن الله تعالى سيحاسبُكم عليها حساباً عسيراً، وليعمل أغنياؤكم على إنشاء المدارس في القرى ليكسبوا حسناتٍ وأجراً عظيماً من لدن الله تعالى.

قال حضرة النبي عليه السلام أيضاً «الحربُ خدعةٌ». أيها الأمراء والأغوات، يا أيها الأكراد!:كلُّ العالم يعلم أن الكرد طيبون، لكن عليكم أن تدركوا أنه لا يمكن الانتصار بالحروب في عصرنا هذا بالطيبة وحدها!، فقد ظهرت في هذه الأزمان مدافع وبنادق عجيبة تلقي بقذائفها بعيداً جداً حيث تقتل الإنسان قبل أن تُسمَعَ أصواتُها، وتصلُ رصاصاتها إلى أماكنَ يظهر منها الإنسان بحجم الطير وتقتله هناك!، ولا يمكن للإنسان صناعة مثل هذه المدافع والبنادق الحديثة أو استعمالها بدون القراءة والتعلم في المدارس والمكاتب، ولهذا، فإن شجاعتكم بدون حيازتكم لمثل هذه الأسلحة تبقى ناقصة وتكون أشبه بشجاعة رجالٍ مربوطين مكتّفي الأيدي.

أُمِرَ في المصحف الشريف» جاهدوا في سبيلِ الله»، أي يطلب الله منكم أن تقاتلوا أعداء دينكم في سبيل الله تعالى، وإنّ جاركم الموسقوف(الروس-المترجم) هو عدوّ دينكم، وهو الذي احتلّ حتى الآن الكثير من ديار الإسلام وغيَّرَ دين سكانها من الإسلام إلى المسيحية عنوة، وإن الدور قادم على كردستان. فإن قرأتم وتعلمتم الصناعة والحرف ومزاولة التجارة وأصبحتم أغنياءً، عندها تستطيعون تجنب شروره والنجاة بوطنكم، أما إن لم تكترثوا للأمر ولم تعطوا لنصائحي هذه حقَّ قدرها، وبقيتم كما أنتم الآن رعاة أغنامٍ وأبقارٍ فقط، فسوف تُدمَّرُ كردستان نهائياً في وقتٍ قصير. كان جاركم العجم (الفرس) مثل الأكراد تماماً، لكنهم اقتنعوا مؤخراً بأنه لا يمكن الاستمرار في الحياة ومواكبة العصر دون اكتساب العلوم والمعارف والحرف، فعملوا بهمة ونشاط، وهم يملكون اليوم الكثير من المدارس والمكاتب يعلّمون فيها أولادهم ثم يرسلونهم إلى البلدان البعيدة لاكتساب مختلف العلوم، فعلى سبيل المثال يوجد الآن ثلاثة أو أربعة أشخاص من أولاد بيكوات العجم يدرسون في المكتبة الحربية باستانبول.

أيها الأمراء والأغوات!، التفتوا إلى أنفسكم جيداً، فبسبب جهالتكم، تزدادون فقراً يوماً بعد يوم. لله الحمد، هناك الكثير من المكاتب والمدارس، أرسلوا إليها أولادكم للتعلم فيها لوجه الله تعالى وتخلّصوا من هذه الجهالة، عمِّروا بالعلم دنياكم وآخرتكم. إن الناس يقولون إذا ما قرأ الأكراد وتعلّموا، فإنهم سوف يتجاوزون غيرهم في القوة والثراء.

قال حضرة النبي عليه السلام أيضاً «اطلبوا العلم ولو كان في الصين» أي أنه حتى لو كان العلم في الصين، اذهبوا هناك اطلبوه وتعلموه. أيها الأمراء والأغوات! إني أسألكم، من منكم قام بإرسال أحدٍ من أقربائه إلى أي مكان لينال العلم؟. توجد مكاتب ومدارس للدولة في بغداد والشام واستانبول لله الحمد، والدراسة فيها مجانية، ومن يقوم بتسليم أولاده للدولة، تتكفل الدولة بتعليمهم مجاناً دون أي مقابل.

قبل سنتين أو ثلاث سنوات، جرت حربٌ بين الصين واليابان، وعلى الرغم من أن عدد الجنود الصينيين كان يتجاوز عشرة أضعاف جنود اليابانيين، انتصرت اليابان على الصين في جميع معاركها، فتفضلوا لندرس ولنبحثْ معاً عن الأسباب. مواطنو الصين أناس أميون جهلة لا يعرفون شيئاً ولا يعلمون استعمال بنادق هذا الزمن، بينما يقوم عسكر اليابان بتصنيع بنادقهم بأنفسهم، ويعمل اليابانيون في مختلف المهن والحرف، ويزاولون التجارة بنجاح، لذلك هم أغنياء. بسبب وفرة المال لديهم، قام اليابانيون بشراء ما كانت تنقصهم من أسلحة على وجه السرعة من البلاد البعيدة وحاربوا أعداءهم فانتصروا عليهم، وهم يعيشون الآن في بيوتهم بعزة وكرامة آمنين مرتاحين ولا يتجرأ أحد أن يسيء إليهم.

درتُ العديد من المدن والأصقاع، وإني أعيش الآن في مصر، أرى في جميع الأمكنة أبناء الشركس والأرناؤوط والعرب ممن أرسلهم آباؤهم أو إخوانهم للدراسة والتعلم في المدارس. التقيت بجامعة الأزهر في مصر ببعضٍ من كرد سوران، البعض من كركوك والبعضُ الآخر من السليمانية، وكلهم

يدرسون في هذه الجامعة، لكنني لم ألتقِ يوماً بأبناء بوطان، غرزان، شيروان وهكاريانَ، ولم ألتقِ في أية مدرسةٍ بأبناء العشائر الكردية، وكلَّ من التقيت بهم من أبناء تلك العشائر، هم جميعاً عمال فقراء مساكين، لا يتقنون أي صناعةٍ أو حرفة.

قبلَ ستة أشهرٍ أصبتُ بوعكة صحية، وبهدف المعالجة، جئتُ إلى مصر في الشتاء الماضي. إن مصر قد أصبح بلداً كبيراً وجميلاً، ولا يمكن للمرء أن يفيَ هذه البلاد حقَّها من الوصف دون أن يراها. مع مرور الوقت، تعرفتُ على أحوال المصريين وأوضاعهم وما يقومون به من أعمال في الصناعة والتجارة. إن أهل مصر لا تنقصهم الطيبة والشجاعة لكنهم يعملون كثيراً دون كللٍ أو مللٍ، حيثما توجد مدارس ومكاتب علميةٍ جيدةٍ، يرسلون إليها أبناءهم ليتعلموا العلم والصناعة ومختلف العلوم والفنون، وفي هذا الصدد هم لا يقولون هذه المدرسة بعيدة أو قريبة. الآن، يوجد بين أهل مصر عدد من العلماء وأصحاب الحرف والفنون، يقومون بتصنيع الكثير من حاجيات بلدهم بأنفسهم، كما يوجد بينهم من يقومون بتصنيع المدافع والبنادق، ومن يقومون ببناء بيوتٍ كبيرة تحوي أكثر من خمسين غرفة، ويوجد من بين أولئك الصناعيين من يتلقون أجراً يومياً(٥٠-٦٠) جرخياً !!، بيوتهم جميلة، لهم خدم وحشم. يوجد بين المصريين أناس أميون وفقراء أيضاً، لكنهم قلة قليلة.

يا أمراء وأغوات الأكراد! إني لأسألكم ماذا ينقصكم أنتم حتى تكونوا أقلّ شأناً؟ يوجد في مصر بعض الأكراد، عندما علموا بقدومي، جاؤوا إليّ جميعاً وزاروني في منزلي، سألت عن أحوالهم وأوضاعهم، وجدتهم جميعاً يعملون حراساً وخدماً لدى المصريين ويأتمرون بأمرهم، وقام البعض منهم بارتكاب أعمالٍ وممارساتٍ غير لائقة، فطردوا من عملهم وازدادوا فقراً وبؤساً على بؤسٍ، فلو كان أولئك الأكراد متعلمين أو حرفيين، أو يتقنون صناعة ما، لما تعرّضوا إلى كل هذا الفقر والعَوَز، وإني لأتأسف بشدةٍ عليهم كونهم لا يتقنون أيَّ عملٍ سوى مهنة الحراسة وخدمة المصريين.

يا علماء وأمراء وأغوات الأكراد! كلكم تعرفون أصلي ونسبي، فجدي كما تعرفون هو حضرة خالد بن الوليد (رضي الله عنه)، وعشيرتنا هي بوطان، وشُهرة نَسَبنا هي آزيزان، وإنني أعمل متبرّعاً لوجه الله تعالى، حيث أصدرت هذه الجريدة وأصرف الكثير من المال على هذا الطريق وأقاسي العديد من المصاعب، وإن هدفي من عملي هذا هو خدمة الأكراد. فيا ليتكم أنتم أيضاً تهبّون لوجه الله تعالى وتساهمون في البدء بتعليم الأكراد. علِّموا أولادكم العلم والأدب والصناعة. يجب أن يكون المسلمون متعلمين كي يعرفوا ويفقهوا أصول دينهم. يا علماء الأكراد، لماذا لا تتحدثون للملأ في المساجد عن مساوئ الجهل وفضائل العلم؟، فأنتم تعرفون جيداً بماذا أمر الله تعالى ورسوله عليه السلام بشأن العلم والجهل، إذ يجب عليكم وعظها وشرحها جميعاً للأكراد كي يعملوا بها. الحمد لله تعالى، ها أنذا أعمل وأؤدي ما يقع على عاتقي من واجبٍ ومسؤوليةٍ تجاه قومي، وأرجو من علماء الأكراد أن يقرأوا جريدتي هذه لأمرائهم وأغواتهم، ليس هذا فحسب، بل يجب عليكم أن تقوموا بإفهامهم ما أمر به الله تعالى وحضرة الرسول عليه السلام، كما أرجو من أمراء الكرد وأغواتهم أن يقوموا بتعليم أولادهم في سن العشرة واثني عشر عاماً في قراهم ومدنهم ليتعلموا قراءة المصحف الشريف والجرائد، ومن ثم إرسالهم إلى مكاتب ومدارس استانبول والشام وبغداد ليحصلوا هناك على العلوم والمعارف، ولكي يرضى الله تعالى عن الجميع وتصبحوا في أمن وأمان من شرور وحروب أعدائكم. وليمنح الله تعالى التوفيق لأمة الإسلام.

كتاب كردستان أول صحيفة كردية للباحث: فارس عثمان

تعريف بالكتاب:
كردستان أول صحيفة كردية، للباحث فارس عثمان، صادر عن دار النشر (دار)، قامشلو، الطبعة الأولى عام ٢٠١٧.
كتاب يقع في (٢١٤) صفحة من القطع المتوسط...
يقف الإنسان ذاهلاً أمام التطور الإعلامي الكبير الذي أصبح أحد أبرز حقائق نهايات القرن العشرين، والمرشح لأن يكون الحقيقة الأبرز مع دخول العالم الألف الثالث للميلاد.

عبد المجيد محمد خلف
كاتب كردي من سوريا

وإذا كان هذا التطور يتجلى بأشكال، وصور شتى، تتماهى مع الزمان والمكان فتزيل حدودهما لأول مرة في التاريخ، فإن تجلياته الأهم، وفعله الأقوى يكمن في صياغة جديدة للأفكار والقيم والمفاهيم، فمبادئ العدالة والمساواة والحرية والسيادة تقتضي احترام الآخرين، واحترام ثقافاتهم الوطنية، وتراثهم، مهما كانت هذه الثقافات، ولابد أن نعمل جميعاً على الاستفادة من هذه الإمكانات المتاحة حتى نستطيع خلق مجتمع واعٍ مثقف، يعي المرحلة التاريخية التي نعيش فيها بكل تجلياتها، أبعادها، حوادثها، تحدياتها، المستقبل الذي تحمله لنا؛ لنتمكن من تحقيقه، ونسعى إليه بخطوات حثيثة وثابتة، منطلقين أولاً من الماضي الذي تركه لنا مفكرون كبار، وعاملون واعون في مجال الصحافة، مدركون لما لها من دور كبير في الارتقاء بالثقافة والتاريخ والتراث الكردي بشتى مجالاته، لغة، شعراً، نثراً، مسرحاً، أدباً شفاهياً، من أمثال جلادت بدرخان، كاميران بدرخان، أوصمان صبري، قدري جان، جكرخوين وغيرهم، ممن كان لهم باع طويل في هذا المجال، حيث قدموا كل غال ونفيس من أجل بلوغ الأهداف التي وضعوها نصب أعينهم، ولم يألوا الجهد في أي مجال؛ لترتقي مدارك أبناء المجتمع، ويسيروا على الدرب الذي خططوا له، وساروا هم فيه حتى النهاية، وباعتقادي نجحوا فيه في مواقع كثيرة؛ فابتكار أبجدية أولى للغة الكردية، وتوحيد حروفها، وتنبيه الأذهان إلى ضرورة وأهمية العلم والمعرفة والإعلام في تطوير المجتمع الكردي، وإنقاذه من همومه، ومن مشاكله الكثيرة، ونشر صحيفة كردية في فترة عصيبة من زمن يحفل بالكثير من الأحداث هو بحد ذاته إنجاز كبير، ومعلم بارز في حياة الشعب الكردي وتاريخه وتراثه، إذ أن هذه الجريدة استطاعت بالفعل أن تثبت أنها لسان حال الكرد وتاريخهم وحياتهم، واستطاعت أيضاً أن تكون خير وثيقة عن الفترة الزمنية التي صدرت فيها، وتغطي كل

أحداثها بتفاصيلها ودقائقها، وتغطي الأحداث العالمية المتجسدة في الحروب التي طحنت المجتمعات الإنسانية، وطالت نيرانها الجميع، حتى الشعب الكردي نفسه، وهي الحرب العالمية الأولى والثانية، إضافة إلى الارتقاء بالأدب بكل أجناسه كـ (القصة، الشعر، المسرح، المقالة) المعروفة في تلك الفترة.

لقد كتبوا بوحي من ضمائرهم، وأسهموا بشكل كبير في نهضة الثقافة الكردية، وكانت لهم اتصالات وعلاقات مع كافة الكتّاب الموجودين في جميع أنحاء كردستان، حتى مع

الكتّاب في الخارج أيضاً، هذا يعني أنهم تمكنوا من إيصال صوت الكرد وواقعهم إلى الدول المجاورة، عبر كتّابها ليطلعوا على حياة الكرد وتاريخهم، ويدعموا قضيتهم في الاستقلال، والتخلص من سواء أكان ظلم العثمانيين واستعبادهم، وسياسة التتريك لديهم، أم من الاستعمار الغربي..

يقسم البحث إلى مقدمة، وثمانية عشر فصلاً، يتعلق بمواضيع البحث التي يتم النقاش فيها، فالباحث يتطرق في الدراسة إلى مواضيع شتى متعلقة بالدراسة، المقدمة تشمل أهمية البحث، والأسباب التي دفعته إلى القيام به، والوقوف على هذه الجريدة التي يحتفل الكرد بإتمامها مئة عام على صدورها، من دون أن تكون هناك أبحاث تتناولها، أو دراسات كردية مكتوبة باللغة العربية، وفي ذلك يقول: "ففي ٢٢ نيسان عام ١٨٩٨ م صدرت أول صحيفة كردية باسم كردستان، وبذلك انطلقت مسيرة الصحافة الكردية، ودخل الكرد سراي صاحب الجلالة، وأخذت الصحف والمجلات الكردية التي اتكأت على إرث كردستان خلال قرن ونيف رغم الصعاب، والوقوف، والتلكؤ تشق طريقها رويداً رويداً، وتمكنت بجهود فردية محدودة من تجاوز وتخطي العراقيل الذاتية والموضوعية لتجد لها مكاناً في ميديا الإعلام العالمي...

ففي العقد الأول من القرن العشرين– القرن الواحد والعشرين، الذي يعتبر قرن الإعلام بامتياز، دخل الكرد ميدان الساحة الإعلامية العالمية.... واستطاع الإعلام الكردي بكافة أقسامه، أن يجد له مكاناً لا بأس به بين وسائل الإعلام العالمية، وتمكنت بعض الصحف ووسائل الإعلام الكردية من لعب دور في صناعة وتوجيه الرأي العام الكردي، إضافة إلى الدور الثقافي والتنويري، وتشكيل

الوعي القومي، والحفاظ على القيم الثقافية والاجتماعية الكردية.

وضعت جريدة كردستان اللبنة الأولى لما يمكن تسميته بـ (النقد الكردي)، لتنقد الواقع الكردي، ودراسة وتشخيص هذا الواقع بشكل دقيق، من مختلف الجوانب الاجتماعية، السياسية، الثقافية، والتوقف عند سيكولوجية الشخصية الكردية من زاويتين: الأولى العلاقة الكردية الكردية– والثانية العلاقة الكردية مع المحيط، والآخر المختلف... والتسمية التي أطلقت على هذه الجريدة ليست اعتباطية؛ فلاختيار هذا الاسم، وإطلاقه على أول صحيفة كردية في نهاية القرن التاسع عشر أكثر من معنى، ودلالة سياسية وثقافية، أهمها:

أ– تمييز صحيفة كردستان عن بقية الصحف التي كانت تصدر في ظل الدولة العثمانية، باختيار اسم كردستان لتكون صحيفة كردية بحتة اسماً ولغةً وصاحباً ومضموناً؛ فاسمها كردي، وصاحبها كردي، ولغتها كردية، ومضمون ومواد الصحيفة كردية، وتبحث في الشأن الكردي.

ب– تبلور الوعي القومي الكردي لدى عائلة بدرخان التي كانت لها بصمات واضحة في معظم مجالات السياسية والثقافية والفكرية الكردية اعتباراً من القرن التاسع عشر، وتجلى ذلك في معظم المواد المنشورة في الجريدة، والتي تدعو الكرد إلى التمرد على الواقع الاجتماعي والسياسي والإقبال على العلم. ووحدة الصف لمواجهة الأخطار الداخلية والخارجية.

ج– دعوة الكرد من خلال تسمية الجريدة باسم كردستان إلى البحث في تاريخهم السياسي والثقافي والجغرافي حتى.

هـ– دعوة الكرد إلى التمسك بحقوقهم القومية ووطنهم، فـ (لكلمة كردستان وقع خاص على مسامع الكرد بمختلف شرائحهم).

د– حمل هموم الكرد، والدفاع عنهم ضد تضييق العثمانيين وملاحقتهم لهم.

لأن صاحبها مدحت بدرخان نشر الجريدة

في مصر هرباً من الأتراك العثمانيين، الذين لاحقوه مثلما لاحقوا المتنورين العرب الذي قاموا هم بدورهم بإصدار العديد من المجلات والصحف في مصر، ونشّطوا الحركة الثقافية والصحافة فيها، منها جريدة الوقائع المصرية- والهلال- والمقتبس.

لذلك اتخذت هذه الجريدة من القاهرة مركزاً لانطلاقها إلى كافة أرجاء كردستان، (طبعا كانت الجريدة توزع بشكل مجاني، وتبلغ عدد طبعاتها ٢٠٠٠ نسخة). ناهيك عن توزيعها على الجالية الكردية في أوربا.. ومدحت بدرخان صاحب الجريدة يعود بأصوله إلى إمارة (بوتان)، هذه الإمارة التي تتمتع بمكانة عالية، وأهمية بارزة لدى الكرد، وتشكل رمزاً تاريخياً قومياً له دلالة كبيرة في الضمير الجمعي عندهم، وخاصة في التاريخ الكردي المعاصر، فأصحاب هذه الإمارة قاموا بدور كبير في مناهضة السلطة العثمانية، وقدموا التضحيات الجسام، وبذلوا جهوداً جبارة في سبيل تنوير حياة الكرد، وتخليصهم من الأمراض الاجتماعية المتفشية بينهم، والتي تعود أسبابها بالدرجة الأولى إلى السياسات المتبعة من قبل تلك الدولة عليهم، وعلى غيرهم من الشعوب التي استعمرتها، وفي مقدمتهم العرب.

وكانت هذه الإمارة تمتلك مشروعاً قومياً في العصر الحديث، فأصبحت بمثابة نواة دولة كردية مستقلة، فهي كما يقول عنها مينورسكي: "مهد الأمة الكردية، منها خرجوا، وفيها اشتهرت الحركة الكردية أكثر من غيرها".

لذلك امتلك صاحب هذه الجريدة فكراً تنويرياً متقدماً، وأخذ على عاتقه مهمة تخليص الشعب الكردي من الجهل والتخلف، وغيرها من العلل التي وقفت عائقة أمام تطوره ونهضته من خلال جريدته كردستان، كما فعل الأمير جلادت بدرخان ذلك فيما

بعد في مجلة هاوار.

والظروف التي رافقت حياته دفعته إلى ذلك؛ فولادته كانت في جزيرة كريت عام ١٨٥٨م، انتقل بعدها إلى استنبول لمتابعة دراسته، تعرض للسجن بعد فشل الثورة التي شارك فيها ضد العثمانيين عام ١٨٩٨م، فغادر استنبول، واتجه إلى القاهرة، ومن هناك قرر إصدار جريدة كردستان، واستمر في نشاطه السياسي حتى فارق الحياة في عام ١٩١٥م.

أما أخوه عبد الرحمن الذي وقف إلى جانبه في إصدار الجريدة، فقد تابع إصدارها في أوربا فترة من الزمن، وكان المساعد الأكبر له في هذا المجال، وبقي يمارس نشاطه السياسي حتى توفي عام ١٩٣٦م.

ويشير لنا الباحث إلى حجم وشكل الجريدة، فكانت تقع في أربع صفحات من الحجم المتوسط (٢٥،٥ سم- ٥، ٣٢سم)، باللغة الكردية (اللهجة الكرمانجية- لهجة بوتان)، بالأحرف العربية، -(بالخط الفارسي)- التي كانت تستخدم للكتابة في الدولة العثمانية.

وصدر العدد الأول من جريدة كردستان في القاهرة يوم الخميس ٢٢ نيسان عام ١٨٩٨م، الموافق لـ ٣٠ ذي القعدة عام ١٣١٥هـ، ٩ نيسان عام ١٣١٤ رومي عثماني.

واعتباراً من العدد الرابع، أصبحت تصدر باللغتين الكردية والتركية، واستخدمت اللهجة السورانية مرة واحدة فقط في العدد

الثالث، عندما نشرت قصيدة لحاجي قادر كويي عن ملحمة مم و زين.

وقد صدرت جميع أعداد الجريدة التي بلغت (٣١) عدداً خارج كردستان، ما بين مصر وسويسرا وبريطانيا، لأن السلطات العثمانية كانت ترفض بشكل قاطع صدور صحيفة كردية باسم كردستان في الأراضي العثمانية سواء أكان ذلك في استنبول، حيث كان يعيش مقداد مدحت بدرخان، وغالبية أفراد العائلة البدرخانية، أم في أي منطقة أو مدينة كردية من مدن كردستان، لذلك لجأ مدحت بدرخان إلى مصر لإصدار صحيفته.

رغم بعد مصر عن الدولة العثمانية، إلا أنها بدأت تمارس الضغط على صاحب الجريدة بالطلب من السلطات المصرية بإيقاف إصدارها من جهة، وتهديده بشكل مباشر، أو غير مباشر إلى التخلي عن إصدارها، والعودة إلى استنبول.

وحين أدرك صاحبها استحالة الاستمرار في إصدارها، قرر مع شقيقه عبد الرحمن متابعة إصدارها في إحدى الدول الأوربية.

إلا أنه ورغم انتقال الجريدة من مصر إلى مدينة جنيف بسويسرا اعتباراً من العدد السادس، لتكون بعيدة عن أجهزة الاستخبارات العثمانية، إلا أن السلطات العثمانية لم تتخل عن تعقب الصحيفة، والتضييق عليها بتوجيه مباشر من السلطان عبد الحميد الثاني، ما دفع بعبد الرحمن إلى الاستمرار في متابعة إصدار الجريدة التي تنقلت خلال أربع سنوات بين ثلاث دول هي (مصر- سويسرا- بريطانيا).

وقد أوضح الأمير مقداد بدرخان الهدف من إصدارها مع العدد الأول منها وهو: "أصدر هذه الجريدة، وقد وضعت نصب عيني هدف ترسيخ الاهتمام والحب في نفوس أبناء قومي إزاء التعلم، ولأمنح الشعب فرصة التعرف على حضارة العصر وتقدمه، وكذلك على أدبه.... ولا أبغي من صدور هذه الجريدة ولو من بعيد سوى مصالح شعبي وسعادته، ورفع المستوى الثقافي لبني جلدتي".

ودعت الصحيفة في معظم مقالاتها ودراساتها إلى:

وحدة الصف الكردي، اليقظة القومية للكرد، رفع الوعي والشعور القومي الكردي، المطالبة بالحكم الذاتي والإدارة اللامركزية للكرد في الولايات الكردية، الحفاظ على العادات والتقاليد والفلكلور الكردي وقيم المجتمع الكردي، محاربة الجهل والتخلف والأمية والاهتمام بالتعليم، إنصاف الفلاحين والكادحين والفقراء الكرد المضطهدين من الدولة، الاهتمام بالمرأة الكردية وبتعليمها، تحسين وتطوير العلاقات مع الشعوب والمكونات التي يتعايش معها الكرد، مواجهة أطماع الدول الخارجية وخاصة الروسية والفرنسية...

ويعالج الباحث مجموعة هامة من القضايا التي تم التركيز عليها في الجريدة، وهي: الجانب القومي والخصائص القومية للكرد- الحياة الاجتماعية- تاريخ الكرد وكردستان- الأدب الكردي- الجهل والأمية والتعليم في كردستان- الموقف من السلطان عبد الحميد الثاني- العلاقة مع الأرمن- ألوية الفرسان الحميدية- بريد الصحيفة والرسائل المنشورة فيها- الموقف من العلاقة مع بريطانيا العظمى- الموقف من العلاقة مع روسيا القيصرية- الموقف من العلاقة مع فرنسا.

وفي النهاية يؤكد الباحث على صعوبة وضع ببلوغرافيا للصحيفة (تصنيف- قاعدة بيانات) شاملة؛ نظراً لعدم وجود عناوين بالخط العريض، أو مانشيت، لكنه رغم ذلك حاول وضع قائمة بأهم المواضيع والمقالات وبيانات التي يمكن الاستفادة منها، والرجوع إليها.

العائلة البدرخانية

قافلة مليئة بالعذاب والالام

كوني رەش

كلما أبدأ بالبحث أو التنقيب عن العائلة البدرخانية تتقد الدموع من عيني وأكاد أصرخ بقوة من شدة المعاناة والجور اللذين لاحقا هذه العائلة المضحية، نعم.. ظُلمت هذه العائلة في الحياة بأكملها، وتحديداً في الميدان السياسي والثقافي..! مع أنني دائم الكتابة عنهم، لكن هذه الكتابات متواضعة ولا تتعدى حدود التعريف بهم والاحتفاء بأسمائهم المختلفة.

كان المؤسس الأول لهذه العائلة المضحية هو الأمير بدرخان البوتاني: ١٨٠٢-١٨٦٨، الذي سعى جاهداً إلى إنشاء إمارة كوردية ١٨٤٣، إمارة واسعة الأرجاء ما بين أجزاء كوردستان المختلفة، سك النقود باسمه، وأثناء خطب الجمعة علا اسمه من فوق المنابر، وفي عهده سادت العدالة أرجاء إمارته الكوردية حتى قيل في وصفه: »العدالة هي بدرخان، وبدرخان هو العدالة«. سلك هذا الأمير النبيل درب الثورة الفرنسية ١٧٨٩، وذلك بفصل الدين عن الدولة عبر شعاره المشهور: »الدين لله وكلنا أخوة" . كان هذا الشعار كفيلاً بتوحيد الأمة الكوردية والارتقاء بها بإيمان وثقة كاملين نحو إنشاء إمارته والوقوف بحزم وثبات أمام تحديات الباب العالي.

عمل الأمير بدرخان البوتاني بهذه الأقوال وحولها إلى واقع عملي.. ويسعدني أن يحتفل أبناء الشعب الكوردي بذكرى ميلاده، قد يكون هذا الاحتفاء بمثابة جزء بسيط من رفع الظلم عن العائلة البدرخانية ! ورد الجميل لهم. هذا الأمير الذي أسر في تموز ١٨٤٧ ونفي إلى استنبول وجزيرة كريت، ولاحقاً مدينة دمشق (الشام) حيث توفي فيها عام ١٨٦٨، لكن قبل أن يرحل وجه مقولته الشهيرة إلى أولاده وأحفاده: »من منكم ينسى لغة بوطان فهو ليس بولدي..« .

هذا بالنسبة للمؤسس الأول للعائلة البدرخانية، أما بالنسبة لأبنائه وأحفاده وما قدموه من تضحيات جمة في سبيل قضية شعبهم، سالكين بذلك نهج الأمير بدرخان، وبشكل خاص حفاظهم على اللغة الكوردية، ولكن مما يؤسف له كان مصيرهم النفي والقتل والتشتت في أرجاء الكون الأربعة، لأن مستعمريهم كانوا يحاربونهم بضراوة. والدول الاستعمارية كانت دائمة الخوف من إنشاء دولة كوردية قوية في منطقة ما بين النهرين

كوبي ره ش في منزل الأميرة روشن بدرخان في بانياس 1989

على غرار دولة محمد علي باشا في مصر، كي تحافظ على مصالحها في منطقة الشرق الأوسط، وتؤمن طرق اتصالاتها مع القارة الهندية.

كان إنشاء دولة كوردية في منطقة ما بين النهرين حلماً مستحيلاً، كونها كانت تشكل عقبة كبيرة أمام طموحات الإنكليز والفرنسيين، لذا تعرض أبناء وأحفاد الأمير البوتاني لشتى أنواع الظلم والقهر، وتم وضعهم عدة مرات تحت الإقامة الجبرية في استنبول، لكنهم واجهوا الأعداء واعتداءاتهم بشدة وقاموا بمحاولات مستميتة من أجل الصمود وإثبات الذات الكردية.

بعد وفاة الأمير بدرخان الكبير سعى نجلاه (عثمان باشا، وحسين كنعان باشا) إلى تأسيس إمارة كوردية في بوطان عام ١٨٧٩، لكنها أجهضت. وفي عام ١٨٨٩ سعى نجلاه (أمين عالي ومقداد مدحت) إلى إشعال نار ثورة في منطقة ترابزون وأرزروم، وهي الأخرى أجهضت، لكن أمين عالي بدرخان كظم الظلم وحوله إلى ألوان زاهية من طبيعة دماء شهدائنا وخضرة أرضنا وبياض قلوبنا وبسمات شمسنا الدافئة، حيث أبدع من هذه الألوان العلم الكوردي المتعارف عليه اليوم بين الكورد وذلك في عام ١٩١٩ في الاجتماع الثاني لجمعية "تعالي كردستان"، وقاد خليل رامي بدرخان ثورة ملاطية عام ١٩١٩، وقام عبد الرزاق بدرخان بانتفاضة على الحدود التركية الإيرانية الأذربيجانية عام ١٩١٤ أثناء الحرب العالمية الأولى، وأسس الأمير جلادت بدرخان جمعية "خويبون" عام ١٩٢٧ وقام بإشعال نيران ثورة آرارات عام ١٩٣٠.

كل هذه المحاولات –السياسية والعسكرية- من قبل العائلة البدرخانية كانت لأجل شيء واحد فقط ألا وهو الارتقاء بالشعب الكوردي نحو شواطئ الأمان والسير به نحو التقدم

كردستان

الحضاري وإنقاذهم من الذل والعبودية، وكان جزاؤهم على كل هذه المحاولات المستميتة القتل والمعتقلات والنفي إلى بلاد لا يستطيعون العيش فيها.

أما من الناحية الثقافية، فلا أظن بوجود عائلة بين شعوب العالم خدمت أمتها ثقافياً مثل العائلة البدرخانية؛ إنهم يعتبرون بحق أباً للصحافة الكوردية والأدب الكوردي الحديث، إنهم أول من أسسوا أولى الصحف والمجلات باللغة الكوردية، وأول من وضعوا بنيان الجمعيات وأول من كتبوا النثر الكوردي وأول من استعملوا الأبجدية الكوردية اللاتينية وصاغوها، وهناك أشياء أخرى كثيرة، ومقابل كل هذه التأسيسات الثقافية والسياسية كان الظلم والعذاب والاضطهاد والتعتيم من نصيبهم.

نعم، لقد ظلمت هذه العائلة وتعرضت لأقسى أنواع الجور؛ رحل أفرادها واحد بعد الآخر في المهاجر والمنافي البعيدة عن الوطن، في المعتقلات والسجون الباردة، أمام فوهات البنادق وفوق أعواد المشانق، لكن مع ذلك لم يفارق حلم كوردستان مخيلتهم. هذه العائلة النبيلة التي كانت تعتبر من العائلات المثقفة الأولى في الإمبراطورية العثمانية، ومن المؤسف اليوم لم يعد لهم أثر سوى نتائج تضحياتهم الجمة التي قدموها لبني جلدتهم عبر الثورات السياسية والثقافية، وما اهتمامي وزملائي بأعمال هذه العائلة إلا بمثابة رد للجميل الذي قدموه لشعبهم. لكن مهما نكتب عنهم لن نوفيهم حقهم الطبيعي كونها عائلة مليئة بالأسرار والمكونات، كلما تغوص في أعماقها تكتشف أسراراً مليئة بالتجارب والعبر، بالآلام والعذاب والتضحية.

عبر كتاباتي عن أفراد هذه العائلة المضحية اكتشفت فيهم صفة مشتركة ألا وهي نكران الذات في سبيل شعبهم الكوردي، بدليل أننا اليوم لم نعثر لهم على أي أثر مادي ظاهر للعيان بالرغم من إمكانياتهم المادية لبناء القصور وفتح المشاريع الكبيرة في جميع أنحاء العالم، لكنهم سخروا كل طاقاتهم المادية والمعنوية في خدمة قضيتهم العادلة، لقد رحلوا وهم يقطنون دور سكن مستأجرة، سواء كان في باريس أو دمشق أو بيروت أو القاهرة أو غيرها من المدن.. ويكفينا فخراً وجود مثل هذه العائلة بيننا، لكن مما يؤسف له أن الكتاب والباحثين الكورد مقلون في التطرق إلى جوانب مظلمة داخل أروقة هذه العائلة، جوانب تتعلق بحياتهم وأعمالهم ونشاطاتهم الأخرى. إن نضال كل فرد من هذه العائلة بحاجة إلى دراسة موسعة، كونهم يشكلون لنا تاريخنا المعاصر من عدة جوانب، سواء كانت سياسية أو ثقافية، وأشكر الزملاء الذين تناولوا هذه العائلة بدراساتهم القيمة وعلى رأسهم الصديق مالميسانز (Malmîsanij)، بكتابه (بدرخانيو جزيرة بوطان) والصديق صلاح هروري بدراسته

الأكاديمية حول الأمير بدرخان البوتاني، ويعد الآن أطروحته في الدكتوراه حول البدرخانيين ما بين أعوام ١٩٠٠-١٩٥٠ في جامعة دهوك، وكم سرني افتتاح مكتبة البدرخانيين في دهوك يوم ٢٢ نيسان ١٩٩٨ في احتفاء خاص بمئوية الصحافة الكردية، حيث دشنتها آخر حفيدة للبدرخانيين ألا وهي الأميرة سينم خان جلادت عالي بدرخان، التي التقيت بها يوم ٢٥/٨/ ١٩٩٩ في دمشق، وما زلت أتذكر جملتها المليئة بالمعاناة والآلام عندما قالت لي: »نعم يا ولدي! لقد انقرض البدرخانيون كما انقرضت الديناصورات..«. حدث آخر زاد من سروري ألا وهو تأسيس صحيفة كوردية شهرية بالأبجديتين العربية واللاتينية باسم "بدرخان" في مدينة السليمانية، أما الحدث الذي جعل سروري أعظم هو نبأ زفه إلي الأخ "واري هروري" نبأ يستحق عليه الثناء والتشجيع وهو تأسيسه موقع بدرخان على شبكة الإنترنت، وعبر هذا الموقع يمكن لعشاق البدرخانيين نشر نتاجاتهم والاطلاع من خلاله على أخبار العائلة البدرخانية ومعرفة كل ما يستجد على ساحة هذه العائلة النبيلة.

وبرأيي، كلما تقدم الكورد نحو الاستقرار والديمقراطية ستعلو أسماء أفراد هذه العائلة أكثر وأكثر في سماء كوردستان، وهنا أتمنى من المثقفين الكورد -وتحديداً طلاب الدراسات العليا- العمل على تقديم رسائلهم وأطروحاتهم الجامعية حول أعمال البدرخانيين، وهناك جوانب كثيرة يمكن لهم أن يطرقوا أبوابها مثل: صحيفة "كردستان"، مجلات "هاوار، روزا نو" وجمعية "خويبون" ونضال الأمير عبد الرزاق بدرخان والجمعيات التي أسسها البدرخانيون في استنبول والقاهرة، وهناك جوانب كثيرة أخرى؛ مثل علاقات البدرخانيين مع الفرنسيين والإنكليز.،. وهكذا عبر البحوث والدراسات المعمقة يمكننا إضاءة الجوانب المظلمة والمعتمة داخل تاريخ هذه العائلة النبيلة.

وما يقوم به الباحثون والمختصون من أبحاث ودراسات حول هذه العائلة لا يعادل نقطة في بحر أعمالهم العميقة.

هذه العائلة التي وضعت حجر الأساس للكثير من المشاريع التي تصب في خدمة القضية الكردية. وكنموذج حي؛ كانت ساحة الصحافة الكوردية قبلهم جزيرة مهجورة وهم من فتحوا الدروب الوعرة التي تؤدي إليها، وبنوا عليها قلاعاً متينة لحماية الثقافة واللغة من الاضمحلال والضياع. إضافة إلى الأبواب التي فتحها البدرخانيون، ومنها:

- نشر أول صحيفة كوردية باسم "كردستان" في القاهرة عام ١٨٩٨ بعد أن يئسوا من نشرها في استنبول، وذلك برئاسة الأمير مقداد مدحت بدرخان، وبعد مرضه تابع شقيقه الأمير عبد الرحمن بدرخان بنشرها في لندن وفولكستون وجنيف، والقاهرة ثانية، حيث صدر منها ٣١ عدداً لغاية ١٩٠٢.
- أصدر الأمير عبد الرزاق بدرخان صحيفة باسم "كردستان" في بلدة "خوي" بإيران عام ١٩١٢ بدعم ومؤازرة من سمكو آغا الشكاكي.
- ترأس الأمير صالح بدرخان -والد الأميرة روشن- صحيفة "أوميد" في استنبول عام ١٩٠٠.
- أصدر الأمير ثريا بدرخان صحيفة "كردستان" في استنبول عام ١٩٠٨، استمراراً لصحيفتي عميه، ثم توقفت عن الإصدار، لكن أثناء هدنة الحرب العالمية الأولى ١٩١٧ تابع إصدارها ثانية في القاهرة.
- كتب الأمير أمين عالي بدرخان أول قصيدة شعرية للأطفال عام ١٩١٣.
- أصدر الأمير جلادت أمين عالي بدرخان أول صحيفة كوردية بالأبجدية اللاتينية باسم "هاوار" في دمشق عام ١٩٣٢، وبهذه الصحيفة أصبحت اللغة الكوردية تكتب بالأبجدية اللاتينية لأول مرة في تاريخ الكورد.
- كتب الأمير جلادت بدرخان أول مسرحية كوردية باسم "هفند" ونشرها على صفحات "هاوار" عام ١٩٣٣.
- أصدر الأمير جلادت بدرخان مجلة مصورة باسم "روناهي" في نيسان ١٩٤٢، وبها أصبحت الصحافة الكوردية مصورة لأول مرة.
- أصدر الأمير د.كاميران بدرخان أول صحيفة كوردية بالأبجدية اللاتينية في بيروت باسم "روزا نو" عام ١٩٤٣، وكذلك صحيفة "ستير" وهي الأخرى بالأبجدية اللاتينية..

هذا باستثناء دعمهم المادي والمعنوي عبر نشرهم نتاجاتهم في الصحف والمجلات التي كانت تصدر في استنبول مثل: "روزي كرد"، "هتاوي كرد"، سربستي"، "ژين" وغيرها من الصحف والمجلات التي كانت تصدر في استنبول والنشاطات الكوردية آنذاك..

إننا اليوم نعدد الأعمال النضالية لهذه العائلة بكل سهولة، لكن ليعلم القارئ العزيز أن هذه الأعمال تحمل بين طياتها الكثير من الآلام والعذاب والمعاناة لأنهم كانوا منفيين ومشتتين بين مدن العالم، وبعيدين عن تراب وطنهم، وكانوا يفتقرون إلى أبسط المواد للنشر وهكذا كان الحمل كله يقع على كاهلهم، وهنا أستطيع القول أن الذين برزوا بيننا من الشعراء والمبدعين من أمثال جكرخوين ود.نور الدين زازا وعثمان صبري وقدري جان وغيرهم.. كان بفضل الأمير جلادت بدرخان ومجلته "هاوار: ١٩٣٢-١٩٤٣".

كان تأثر البدرخانيين بالآداب الأوربية كبيراً جداً، وهنا أستطيع القول إن الفضل يعود لهم في كتابة النثر الكوردي وتحديداً جنس القصيدة، حيث كتب الأمير جلادت ود.كاميران القصيدة النثرية لأول مرة، ويأتي بعدهما الشاعر قدري جان وعثمان صبري، وذلك عبر صفحات مجلة "هاوار"، وعبر أقلام هؤلاء النبلاء فقد سبقت القصيدة النثرية باللغة الكوردية القصيدة العربية بحوالي عقد من الزمن، وبهم دخل النثر مرحلة جديدة ومتقدمة أسوة بآداب الشعوب المجاورة.

وبهذه المناسبة -مناسبة مرور ١٢٤ عاماً على صدور اول صحيفة كوردية باسم (كردستان)، في القاهرة واصبحت يوما للصحافة الكوردستانية عامة، انحني إجلالاً وإكباراً لأعمال وتضحيات أفراد هذه العائلة النبيلة، ونأمل من الجهات الرسمية والمؤسسات الثقافية الكردية الاحتفاء بأسماء الشخصيات الوطنية الكردية المضحية، والتي سخرت معظم حياتها في سبيل قضية الوطن.

وأشكر وأبارك للأستاذ (السيد عبد الفتاح علي)، صديق الشعب الكوردي، على إصداره لمجلة فصلية خاصة بالكورد وكوردستان من القاهرة، حيث كانت صحيفة (كردستان) قبل ١٢٤ عاماً.. وأتمنى أن تكون مجلته كسفيرة للكورد وكوردستان في العالم العربي.

الكورد في مصر المحروسة

إن تواجد كورد وجذورهم على أرض مصر يرجع إلى عهود قديمة جداً وترجع هذه العلاقة التاريخية إلى العلاقات التجارية التي جرت بين أمم وشعوب عاشت في منطقة غرب آسيا مع سكان مصر القدماء لأن أرض الكنانة كانت مركزاً مهماً لإحدى أهم الحضارات في ذلك الزمن وبما أن الكورد قد أقاموا إمبراطوريات وممالك على بقعة إستراتيجية في تلك الارض التي كانوا يسكنون فيها بغرب آسيا وبالتحديد ما يسمى الآن بمنطقة الشرق الأوسط فقد كانوا بلا شك الجيران الأقرب من بلاد المصريين القدماء فالمصالح التجارية لعبت دورها في توطيد هذه العلاقات بين الطرفين وحدثت مصاهرات واختلاط بين هذين الشعبين كما حددتها المصادر التاريخية القديمة وخاصة في وقتها كانت الملكة (نفرتيتي) الكوردية الأصل ابنة الملك ألميتاني (الحوري توشيرتا ١٣٧١ ق.م) زوجها أهم ملوك الفراعنة في ذلك الوقت وهو أمنحوتب الرابع الشهير ب (أخناتون) الفرعون العاشر من الأسرة الثالثة عشر من فراعنة مصر القدماء .

نزار بابان
الاردن

أما في العهد الإسلامي فكان الكورد قد أقاموا الدولة الأيوبية عام ١١٧١م في بلاد الشام ومصر حيث رافق العديد من الجند والقادة العسكريين الكورد السلطان صلاح الدين الأيوبي واستقروا في مصر, كما تبعهم فيما بعد العديد من ابناء الكورد ممن عملوا في مجال التدريس , والعلوم الأخرى , ونتيجة لذلك اندمجوا وانصهروا في هذا المجتمع الإسلامي الجديد, ونتيجة للتصاهر مع المصريين فقد غرس الكورد جذوراً عميقة ونسجوا وشائج قوية من التلاحم الإنساني في هذا المجتمع العربي والإسلامي الطيب .
إن للقدر أحكامه الخاصة وللزمان دورة أخرى حين قُدر للكورد مرحلة أخرى للمشاركة في كتابة التاريخ المصري المعاصر, ألا وهو إسهامهم المهم في بناء مصر الحديثة على يد مؤسس الأسرة العلوية (محمد على باشا الكبير) بعد أن طهر أرضها من جيوش الغزاة الفرنسيين عام ١٢١٤ هجري ومن بعدهم فلول المماليك وحكامها الفاسدون الذين عاثوا فيها الدمار والخراب, ومعه جمع من خيرة القادة والجنود الكورد الذين استقدمهم معه من ألبانيا, ومن ثم وطد بمساعدتهم أركان حكمة وشاركوا معه بمنتهى الإخلاص والتفاني في بناء مرافق دولة مصر الحديثة كافة التي أضحت منارة العلم والمعرفة في نهضتها المعاصرة بالعالمين العربي والإسلامي .
ويكفينا فخراً بأن الأسرة الخديوية المصرية تعتز بأنتمائها الأصلي للأمة الكوردية العريقة, وذلك على لسان حفيده الأمير محمد علي ولي عهد الملك فاروق ملك مصر عام ١٩٤٩م وبشهادة أخرى من الأمير حليم أحد أحفاد محمد علي باشا, وقد جاء ذلك في مقال بعنوان (ولي العهد حدثني عن ولي النعم ...) نشر في مجلة (المصور) المصرية الشهيرة الصادرة يوم ٢٥ نوفمبر عام ١٩٤٩م على (الصفحة -٥٦) بمناسبة مرور مئة عام على وفاة مؤسس مصر الحديثة محمد علي باشا , من خلال حوار صحفي اجراه الأديب الكبير الكوردي الأصل عباس محمود العقاد .
هكذا أنجبت هذه الأمة الكثير من الأبناء البررة ليخدموا الإنسانية والبشرية أينما كانوا على أرض كوردستان أو في أية أرض توطنوا فيها . هكذا أصبح للكورد شرفً لأنها أخرجي للعالمين العربي الإسلامي بطلين خالدين هما (السلطان الناصرصلاح الدين الأيوبي – ومحمد علي باشا الكبير) وقد تلاقيا في النشأة الأولى, وفي النهضة بمصر, وفي نسب القلعة اليوسفية إليهما (قلعة القاهرة اليوم) فهي بالبناء تنتسب إلى صلاح الدين الأيوبي , وبالتجديد والتدعيم تنسب إلى محمد علي الكبير .
وأنطلاقاً من هذا التلاحم الصادق والترابط المقدس بين الأخوة في الدين الحنيف اضحى الكورد ابناء بررة لمصر المحروسة وبرز من بينهم الكثير من الفقهاء والعلماء الفطاحل في الدين والعلوم الحياتية وأسماء لامعة في دنيا الأدب والشعر وفنانين كبار في مختلف الفنون, ولا يسعنا أن نذكر أسماء العديدين منهم من مشاهير الكورد في مصر فقط كمثال نذكر البعض منهم, كما ذكرنا أسماء هذه الأسر الكريمة, لذا تبقى مصر تحتل مكان أعتزاز وحب في قلب كل كوردي ووجدانه .
أمير الشعراء أحمد شوقي, الكاتب الكبير عباس محمود العقاد, الكاتبة والشاعرة عائشة التيمورية ,الكاتبة والمفكرة الدكتورة سهير القلماوي,الكاتبة والصحفية درية محمد علي عوني, الأديب والمفكرأحمد أمين , والكاتب والداعي الأكبر لتحريرالمرأة قاسم أمين, الأمام الشيخ محمد عبده, الشيخ عبد الباسط محمدعبد الصمد,الفنانيين الكبار رشدي إباظة محمود الجندي سعاد حسني ...ألخ

جذور العلاقات

المصرية – الكردية

تعود جذور العلاقات بين مصر والمِيتّانيين (أسلاف الكرد) إلى حوالي منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، في عهد بعض ملوك الأسرة المصرية الثامنة عشرة، ومرّت تلك العلاقات بمرحلتين بارزتين:

الأولى: مرحلة الخصومة والصراع.

والثانية: مرحلة التحالف والمصاهرة.

ونبدأ فيما يلي باستعراض أبرز أحداث المرحلة الأولى.

مرحلة الصّراع المصري- المِيتّاني

الصّراع على سوريّا:

د. أحمد محمود الخليل

بدأ تاريخ الأسرة الملكية المصرية الثامنة عشرة من عهد الملك أُحمُس الأول Ahmose I (١٥٧٥– ١٥٥٠ ق.م) محرّر مصر من الهِكسوس، وانتهى في عهد ملكها الثانيَ عشر تُوت عَنْخ أمُون Tutankhamun (١٣٤٧– ١٣٣٩ ق.م)، وفي المراحل الأولى من تاريخ هذه الأسرة ازدادت قوة مصر، وأراد ملوكها الاستيلاء على سوريا؛ فأقاموا علاقات قوية مع المملكة الكاشّية في بابل، وهذا واضح في رسائل الملك الكاشّي كاداشْمان- خارْبي الأول (حكم بين ١٤١٠– ١٣٨٦ ق.م) إلى الملك المصري أَمُنُوفِيس (آمُونْحُوتَب) الثالث (حكم بين ١٤٠٥– ١٣٧٠ ق.م)، ثم تحوّلت مصر عن الكاشّيين لمّا ضعفوا، وأقامت علاقة إستراتيجية مع مملكة آشور المنافسة للكاشّيين، ويتّضح ذلك في رسالة الملك الكاشّي بُورْنا بُورْياش الثاني Burna-Buriash II (حكم بين ١٣٦٧– ١٣٤٦ ق.م)، إلى الفرعون آمُونْحُوتَب الرابع المعروف باسم أخناتون (حكم بين ١٣٧٠– ١٣٥٢ ق.م)، يعاتبه فيها على استقبال وفد آشوري، ويَعُدّ ذلك الاستقبال عملاً غير ودّي( ).

ومنذ نهاية القرن (١٦ ق.م)، ومثل أيّة قوة سياسية ناشئة وناهضة، تطلّعت مملكة ميتّاني إلى أن يكون لها نفوذ في الشرق الأوسط القديم، وتصاعد ذلك الطموح في النصف الأول من القرن (١٥ ق.م)، وقد دخل ملوك مصر من الأسرة الثامنة عشرة في صراع طويل ضد مملكة ميتّاني بشأن سوريا، وتصاعد ذلك الصراع في الفترة (١٥٥٠– ١٥٠٠ق.م)، والدليل أنّ الفرعون المصري تُحوتْموس الأول (حكم بين ١٥٢٨– ١٥١٠ ق.م) غزا سوريا، ووصل إلى مملكة ميتّاني، وأقام له نَصْباً هناك يخلّد فيه انتصاراته، وهذا يعني أنه كان معاصراً للملك الميتّاني الثاني شُوتّارنا (شُتَّرْنا) الأول Shuttarna ١، ابن كِيرْتا Ki- ir-ta، حوالي نهاية القرن (١٦ ق.م)، وقد قال عبد العزيز صالح في هذا الشّأن:

«واتّجه تُحوتْمُوس ناحية الشّام وأطراف العراق، ووجّهه إليها عاملان: عاملُ القوّة الدافعة التي صبغت سلوكه وروح شعبه وعصره، وعاملُ تَحرُّكِ الجماعات المِيتّانية التي ذكرتْها نصوصُ عهدِ سلفه، قرب نهرِ الخابور والفرات وفي شمال شرقَ الشّام. وكان في كلٍّ من العاملَين ما شجّعه على تنفيذ المرحلة الثالثة من السّياسة الخارجية للدولة؛ ألا وهي السيطرة على أبواب التجارة الدولية ومَداخل هجرات الشعوب في شمال الشّام وأطراف العراق، ولم تكن أحوال بلاد الشّام حينذاك مما يمكّنها من صدّ هجرات جديدة، أو كسر شدّة الهجرات الموجودة على أطرافها، دون دفع خارجي أو عون خارجي»( ).

وأضاف عبد العزيز صالح يقول:

«وحين تَطلّع تُحوتْموس الأول إلى جَمعها( ) تحت رايته اعتمد على جرأته واستعداد جيشه، واستعان بسلاح المبادرة والتحركات القوية الخاطفة، فمَرَق بجيشه من مصر عبر الشّام في سرعة غريبة، ودون معارضة كبيرة، حتّى بلغ نَهْرينا في منطقة المِيتّان، ثمّ عبر نهر الفُرات، وأرسى على ضفّته الشرقيّة نَصْباً حدّد به تخوم دولته الناهضة التي امتدّت على حدّ تعبير نصوص عهده من قرن الأرض في الجنوب ... حتّى أطراف مياه الفرات التي استغرب المصريون جريانها من الشمال إلى الجنوب على عكس جريان مياه نيلهم»( ).

(تحوتموس الأول)

ولم يستطع تُحُوتْموس الأول وخَلَفُه تُحُوتْموس الثاني (حكم بين ١٥١٠– ١٤٩٠ ق.م) إيقافَ تعاظم قوة مملكة ميتّاني وتزايدِ نفوذها في سوريا، والدليل على ذلك أنّ النصف الشمالي من سوريا انفصل عن الحكم المصري في عهد الملكة حاتْشبْسُوت Hatshepsut (حكمت بين ١٤٩٠– ١٤٦٨ ق.م)؛ لأنّ سياسة هذه الملكة توجّهت نحو

القرن الإفريقي (حيث تقع أريتريا والصومال الآن) أكثر من توجّهها نحو آسيا، وكان تُحوتْمُوس الثالث مشاركاً في الحكم مع حاتْشبْسُوت في السنوات التسعَ الأخيرة من حكمها، ولَمّا حكم بين سنتي (١٤٦٨– ١٤٣٦ ق.م) عمل لاستعادة النفوذ المصري في النصف الشمالي من سوريا، والقضاءِ على نفوذ مملكة ميتّاني، فتزعّمت مملكة ميتّاني حلفاً قوياً ضدّ مصر( ).

ويقول عبد العزيز صالح بشأن تحوتموس الثالث: «عندما اعتلى العرش منفرداً واجه مشكلةً واسعة هدّدت زعامةَ مصر وسُمعتَها الدولية في الشرق الأدنى، وكان عليه أن يتحدّاها ويُثبت كفاءته لحلّها، وتفرّقت مَواطن هذه المشكلة في نواحٍ من بلاد الشّام وأطراف بلاد النهرين، وكانت عواملها ثلاثة، وهي:

اهتمام عهد حاتْشبْسُوت بسياسته الإفريقية أكثر من اهتمامه بسياسته الآسيوية، ممّا باعد بعض الشيء بين مصر وبين جيرانها أهل الشام.

وأملُ دولة الميتّانيين التي بدأت تُلملم شملها، وتعترف بمَلك واحد في أن يصبح لها ضلعٌ( ) في توجيه أحوال الشرق الأدنى وتجارته، لا سيّما أنّ موقعها على الفرات، وامتدادها إلى شرقه نحو دِجلة، سمح لها بمركز تجاري متوسّط يمكن أن تتحكّم به في مداخل التجارة السورية- العراقية، ويمكن أن تنافس مصر به.

ثمّ اتّجاه حكّامها( ) إلى شَغل مصر عنهم بإثارة الاضطرابات ضدّها، وقد استجاب لتحريضاتهم بالفعل بعضُ حكّام الشّام وشيوخ بدوها»( ).

التّحالف الميتّاني- السّوري ضدّ مصر:

أدّت العواملَ الثلاثة السابقة الذكر إلى قيام تحالف ضدّ مصر، ضمّ عدداً من حكّام الممالك السورية بزعامة حاكم قادِش (تلّ النَّبي مَنْد قرب حمْص على ضفّة العاصي الشرقية)، ومن المحتملَ أنّ هذا الحاكم كان ميتّانياً، أو كان ميّالاً إلى مملكة ميتّاني، وقد اتّجه بالقوات المتحالفة جنوباً نحو شمالي فلسطين، واتّخذ مدينة مَجِدُّو (تل المتَسلِّم، شمال شرقي طُولْكَرم) مركزاً لقيادته، وكانت أهمّية مَجِدُّو تتمثّل في أنها تتحكّم في الممرّات الجبلية التي تجتازها طرق التجارة بين جنوبي سوريا وجنوبي ميزوپوتاميا من ناحية، وبين فلسطين ومصر من ناحية أخرى( ).

وردّاً على مملكة ميتّاني وحلفائها في سوريا، قاد تُحوتْمُوس الثالث ستّ عشرة غزوة ضدّ بلاد ريتينو (النصف الشمالي من سوريا)، وانتصر في الغزوة الأولى سنة (١٤٦٨ ق.م)

على الحلف السوري، ثمّ غزا سوريا في أربعة أعوام متتالية بجيوش ضخمة، مستعرضاً قواته الحربية، ومؤكّداً لأعدائه أنه قادر على البطش بهم، وكانت استعراضاته العسكرية موجَّهة إلى مملكة ميتّاني في الدرجة الأولى؛ لأنّها كانت أخطر منافس لمصر، وفي الغزوة السادسة قرر تُحوتْموس الثالث مهاجمة حاكم قادِش في عاصمته، لأنه كان يقود المقاومة السورية ضد النفوذ المصري.

(تحوتموس الثالث)

وكان حِصن قادِش ذا موقع إستراتيجي مهمّ، ويُطلّ على طَريق تجاري رئيسي يصل بين ميزوپوتاميا وسوريا، وبعد صعوبات كبيرة هَزم تُحوتْموس الثالث خصمَه حاكم قادِش، واحتلّ الحصن، ومع ذلك لم يستطع فرض نفوذه على جميع أمراء وسط سوريا، وظلّت المقاومة نشيطة؛ الأمر الذي جعل تحوتموس الثالث يهاجم سوريا مرة بعد أخرى.

كان تحوتموس الثالث يعرف أن خصمه الأكثر خطورة هو مملكة ميتّاني، وأنها تثير حكّام سوريا في الوسط والجنوب ضدّ مصر، وكان ملك ميتّاني حينذاك يُدعى ساوْشّاتّار Saushshattar بن پارْساشاتار Parsashatar، فهاجم تُحوتْموس الثالث مملكة قادِش مرة ثانية، وتوغّل في شمالي سوريا متوجّهاً إلى مملكة ميتّاني، ووصل في سنة (١٤٤٧ ق.م) إلى كَرْكَميش، وعبر الفرات إلى الضفة الشرقية، وذكر في إحدى هجماته على مملكة ميتّاني أنه جاء لِوضع لوحة شرقي الفرات بجوار لوحة جدّه تُحوتْموس الأول( ).

وفي السنة الثالثة والثلاثين من حكمه؛ أيْ حوالي سنة (١٤٣٥ ق.م)، هاجم تُحوتْموس الثالث مملكة ميتّاني، وتحضيراً لغزوته الجديدة زوّد الموانئ السورية بالمواد الغذائية، وأمر بإعداد أسطول كبير من أخشاب لبنان، ونقل السفن مفكّكةً برّاً، على عربات تجرّها الثيران، إلَى قربَ نهر الفرات، والتقى بالجيش الميتّاني في كَرْكَميش (عند جَرابْلُس حالياً)، بعد أن عبر الفرات عند كَرْكَميش، ولاحق «عدوَّه الخاسئ في جبال ميتّاني» حسبما قال، وانتصر على الملك الميتّاني ساوشّاتّار Saushshattar، وأجبره على الفرار، وأقام لنفسه نَصْبين تَذكاريين بالقرب من النَّصْب الذي كان قد أقامه تُحوتْموس الأول، وسجّل عليهما أخبار نصره، وحدّد بهما حدود بلاده في الشمال، ولم يتوغّل في مملكة ميتّاني، واكتفى بتخريب مناطقها الغربية والجنوبية( ).

(التوسّع المصري في عهد تحوتموس الثالث)

وفي السنوات التالية استطاعت مملكة ميتّاني تكوين جبهة معادية لمصر في النصف الشمالي لسوريا، وما كاد تُحوتْموس الثالث يصل إلى مصر

حتّى عادت مملكة ميتّاني من جديد للتدخّل في الشؤون السورية، وتحريض سكّانها على الثورة ضدّ الحكم المصري؛ لذلك خرج تُحوتْموس الثالث ثماني مرات أخرى إلى الأقاليم السورية الشمالية؛ تارة للاستطلاع، وتارات أخرى للإصلاح وإقرار الأمن وإرهاب العصاة( ).

وفي العام (٤٧) من حكمه، قاد تُحوتْموس الثالث جيشاً ضخماً، واجتاح سوريا حتّى وصل إلى الفرات، وعَبَره وتوغّل في أراضي ميتّاني، وذكر في إحدى مدوَّناته أنه دمّر الجيش الميتّاني في ساعة واحدة، وقال: «وخرّبتُ مدنَهم ومستوطناتهم، وجعلتُها طعاماً للنيران، وحوّلتُها إلى أماكن لم يَعُدْ باستطاعة الإنسان أن يسكن فيها، وألقيتُ القبض على سكّانها، وجعلتُهم من بين الأسرى... وغنمتُ مواشيَهم، واغتصبتُ منقولاتهم بأعداد لا تُحصى، وأخذتُ حبوبهم، واقتلعتُ شَعيرهم من جذوره، ودمّرتُ حدائقهم، واقتلعتُ أشجارها المُثمِرة»، وورد في المدوَّنة أيضاً أنّ تُحوتْموس الثالث حطّم نَهارينا، فتحوّلت إلى أرض لا تنبت فيها الأشجار.

ذكرى جريمة

الأنفال

سيئة الصيت

حملات تدمير كوردستان وإبادة شعبها

تقع كوردستان كوطن محتل مجزأ دولياً في الشرق الأوسط في موقع مهم جداً استراتيجياً على الخارطة السياسية، وإن معظم المصادر الأساسية لطاقة المنطقة كائنة في إطار أرض كوردستان، النفط الذي هو أحد المصادر الرئيسية للطاقة بنسبة ما موجود في كوردستان، حيث يمكننا القول بأن أكبر احتياطي للنفط في المستقبل مصدره كوردستان، إضافة إلى وجود احتياطي كبير للكبريت والفوسفات والذهب واليورانيوم والحديد والمعادن الأخرى، وكذلك استناداً إلى الزراعة ووجود مصادر كثيرة للمياه، كل هذه تظهر غنى أرض كوردستان.

غفور مخموري

السكرتير العام للاتحاد القومي الديمقراطي الكوردستاني YNDK

إضافة إلى ما سبق ذكره، فإن كوردستان بلاد متلاصقة مترابطة تقع وسط شرق الأوسط، وكذلك لها أهمية وغنى متعدد الأبعاد، خاصة في مجال الجيوبوليتيكي حيث أنها تعد أحد أهم الأقاليم الجغرافية في العالم .

إن كوردستان ذات ستة أبواب، باب ينفتح نحو الأناضول وأوروبا، والباب الثاني نحو القوقاز وروسيا، والباب الثالث نحو آسيا الوسطى، والباب الرابع ينفتح على عالم إيران، والباب الخامس يكون نحو الشام، والباب السادس نحو بلدان الخليج.

ولذلك فإن كوردستان كانت دائماً محط أنظار الدول القوية ونقطة اصطدام القوى التوسعية والاحتكارية لاحتلال أرضها ونهب ثرواتها. لو رجعنا إلى التأريخ القديم جداً كـ(جالديران ولوزان) اللتين كانتا جريمتين كبيرتين ضد كوردستان والقومية الكوردية وقد أصبحتا سبباً لتجزئة واحتلال كوردستان، لكن لم تمر نتائج تلك الجرائم دون الجواب ورد الفعل، بل إن الشعب الكوردي على امتداد تأريخ التقسيم واحتلال أرضه، بهدف الدفاع عن وجوده وبقائه وطرد المحتلين من أرضه وإنشاء الكيان القومي والوطني، كان دائماً في تضحيات ثورية ضد المحتلين والمضطهدين، إضافة إلى ذلك خلال امتداد وطوال هذه التضحيات الجسام، كانت الأوضاع الدولية والإقليمية والمحلية أيضاً، كان القسم الأعظم مباشرة منها وقفوا ضد حركته التحررية وقسم آخر منهم لم يكونوا على مستوى ثقل وأهمية وعظمة الحركة، ولكن الذي يمكن أن يعتز به الكورد إلى الآن هو أنه نتيجة لتضحياتهم البطولية رغم وجود الكثرة الكاثرة من أعدائهم الشرسين الهمجيين، تمكنوا من أن يحافظوا على وجودهم كقومية، وتمكنوا أيضاً من الدفاع عن وجودهم وبقائهم، ويحمون أنفسهم من الانقراض والفناء. ولا شك أن هذا يعد نقطة لامعة لتأريخ الكورد وأكبر مكسب لتضحياتهم.

بالنسبة للوضع السياسي في كوردستان فإن احتلال كوردستان لم يكن مثل احتلال الدول الأخرى، وكوردستان كأرض مرت بعدة مراحل للتقسيم، فقد انقسمت بين عدة قوى، فلأول مرة قُسمت أرضها بعد معركة(جالديران) في عام ١٥١٤م، بين الإمبراطوريتين الصفوية والعثمانية، وبعد ذلك في (سايكس- بيكو) ثم في (لوزان) حيث قُسمت على أربع دول مختلفة سياسياً (العراق- تركيا- إيران- سوريا) هذا التقسيم أدى إلى أن تحكم كوردستان أربع سياسات مختلفة، ومن الناحية الاجتماعية نرى أن الأمة الكوردية كأحدى أمم الشرق الأوسط قد قُسمت على ثلاث أمم كبيرة وهي الأمة العربية

والتركية والفارسية. نحن في الجنوب وإخواننا في الغرب أكثر تأثراً بالفكر العربي والثقافة العربية والعادات والتقاليد العربية، هذا التأثير ما زال موجوداً لحد الآن، لأن الأمة الحاكمة تسعى دوماً إلى أن تفرض تراثها وثقافتها وعلاقاتها الاجتماعية على الأمة المضطهدة، النظام في سعي مستمر لمحو العادات والتقاليد الاجتماعية للأمة الكوردية، وتزيل الطابع القومي الكوردي، كذلك في شمال كوردستان نرى أن الثقافة القومية التركية غالبة على أمتنا، وفي الشرق فإن الفكر الفارسي والثقافة الفارسية غالبة على أمتنا. ومن الناحية الاجتماعية لقد خلقت ثلاث وقائع مختلفة، إذنً فإن التأثيرات التي كانت على أمتنا وعلى التاريخ جعلت أن يكون ظرف احتلال كوردستان مختلفاً جداً عن احتلال الدول الأخرى، على سبيل المثال (فيتنام وكوبا وفلسطين...الخ) كانت لديها مشاكل مع محتل واحد، لكن المشكلة الرئيسية للأمة الكوردية هي أن لديها مشكلة مع أربعة محتلين من الناحية السياسية.

ومن الناحية الاجتماعية كما أشرت فإن هذه التأثيرات قد أضرت كثيراً بنضال الأمة الكوردية، لذا نرى أن حدوث أي تقدم في جنوب كوردستان في هذه المرحلة يكون له تأثير مباشر على الأجزاء الثلاثة الأخرى من كوردستان، مما يجعل من دول المنطقة أن تكون في سعي مستمر ودائم حتى لا يسود الهدوء والاستقرار في جنوب كوردستان، كي لا يؤثر على الحركة السياسية الكوردية في الأجزاء الأخرى من كوردستان، ولهذا السبب فإن أي تغيير أو تطور خارجي باتجاه كوردستان يجب أن يراعي مصالح دول المنطقة، وهذا معناه إبعاد تلك الدول الخارجية نفسها من مساندة شعبنا.

التعريب والأنفال :

جريمة تعريب كوردستان من الجرائم الكبرى التي نُفذت وتُنفذ ضد شعبنا الكوردي من قبل الأنظمة المحتلة لكوردستان، وهي هجمة شرسة كبيرة تهدد الأمن القومي الكوردي الآن وفي المستقبل. ومع الأسف فإن الكتابة عن هذا الموضوع قليلة جداً، وكان الأحرى أن يتم البحث والتمحيص والكتابة عنه بشكل أوسع.

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وتقسيم كوردستان على الدول المصطنعة الأربع (العراق- سوريا- إيران- تركيا) وإلحاق جنوب كوردستان بالعراق العربي، وغرب كوردستان بسوريا العربية، بدأت الدولتان العربيتان العراق وسوريا بتنفيذ عملية التعريب في كوردستان، ولهذا فقد نفّذوا حملات منتظمة وبصيغ وأشكال شتى، تميزّت بالوحشية والبعد عن الطبيعة الإنسانية، وشملت أعمالهم الإبادة والسلب والنهب وتخريب وتدمير المدن والقصبات والقرى الكوردية. ولم يدخروا أية وسيلة لإلحاق الضرر بأبناء شعبنا الكوردي وأرض كوردستان متى وكيف طالت أيديهم ذلك، ولا زالوا حتى الآن مستمرين في سياساتهم الإجرامية هذه.

وجنباً إلى جنب مع العرب مارس النظام التركي نفس الأعمال والمخططات لتتريك أبناء شعبنا في شمال كوردستان والنظام الإيراني كذلك لتفريس أبناء شعبنا في شرق كوردستان، وهكذا فإن محتلي كوردستان بأجزائها الأربعة سعوا دوماً لإذابة وصهر شعبنا الكوردي ومحاولة القضاء على وجوده بكل السبل الممكنة.

في ٣١ يوليو/تموز ١٩٨٣، أطلق النظام العراقي حملة "الأنفال" باعتقال ٨ آلاف من البارزانيين من منطقة بارزان في كوردستان، ونقلهم إلى صحارى جنوبي العراق، وقام بقتلهم ودفنهم في مقابر جماعية، وهذه الحملة توسعت صوب مناطق أخرى في كوردستان، لتنتهي بمقتل ٢٥٠ ألف شخص على الأقل بينهم الكثير من الأطفال والنساء والمسنين، فضلاً عن تهجير ونزوح مئات آلاف آخرين.

كان عام ١٩٨٨ من الأعوام الأكثر شؤماً ومأساوية ودموية بالنسبة لشعبنا الكوردستاني. ونستطيع أن نقول إنه كان عام تدمير كوردستان وإبادة شعبنا الكوردستاني من قبل النظام العراقي. حيث بدأ أكثر الحملات وحشية ودموية وهي الحملة التي سماها النظام العراقي المحتل بـ(حملة الأنفال) والتي بَدأت منذ آذار ١٩٨٨ وحتى الخامس من أيلول من نفس العام. وقد استطاع النظام نتيجة هذه الحملة الوحشية تفريغ ٤٩,٤١٪ من أرض جنوب كوردستان وتم تدمير وحرق وإزالة أكثر من ٤٥٠٠ قرية وقصبة كوردية في محافظات كركوك وأربيل والسليمانية ودهوك، و ٣١ قرية مسيحية آشورية في محافظة دهوك، وفُقدَ حوالي (٢٥٠,٠٠٠) ربع مليون إنسان كوردي رجالاً ونساءاً وأطفالاً وشباباً وشيوخاً في حملات الأنفال سيئة الصيت، وتم دفنهم في مقابر جماعية، وتعرضت أكثر من ٣٠٠ قرية كوردية الى القصف بالأسلحة الكيمياوية. وإحراق الأخضر واليابس بالنار والحديد وارتكاب العديد من الجرائم الأخرى ضد الإنسانية، كل هذه الجرائم نُفذت ضد الكورد من قبل سلطة العراق ونظام البعث المقبور، وفي ليلة ٢١/٢٢ آب ١٩٨٨ تم ترحيل كافة سكان قصبة ديبكة التابعة لقضاء مخمور بمحافظة أربيل، ولم يُبقى النظامُ فيها أحداً وقام فوراً بإحلال العرب الوافدين وتوطينهم في بيوت الكورد المرحلين بالقوة. طبيعي أن حملات الأنفال هي جزء من عملية تعريب كوردستان هدف آخر أراده النظام في حملات الأنفال لغرض تعريب المناطق الكوردستانية. لقد كانت الغاية من حملات الأنفال تدمير كوردستان وإبادة شعب كوردستان وتقليل أعداد السكان الكورد في جنوب كوردستان.

إنّ حملات الأنفال سيئة الصيت حيث طرد وتهجير مواطني جنوب كوردستان، سبّبت التقليل من حجم سكان جنوب كوردستان وبالتالي إلى تقليل نسبة الزيادات السكانية. والقرى والقصبات التي قام النظام بتخريبها قام لاحقاً بإعطائها للعرب وتوطن العرب في أغلبها وخاصة القرى المحيطة بكركوك ومناطق كرميان وسهل قراج وسهل مخمور وكنديناوه وما حولها والكوير وبعض قرى سهل أربيل، مما يؤكد أن نية النظام العراقي كانت مبنية على تدمير كوردستان وإبادة شعب كوردستان من جهة، والتعريب كوردستان وتوطين العرب محل الكورد. لاحقاً وبعد حملات الأنفال استمر النظام في تخريب كوردستان وتهجير الكورد من الأماكن الأخرى، ففي عام ١٩٨٩ قام النظام بترحيل سكان قصبات قلعه دزه وسنكةسةر وبيمالك وخربتها تماماً، ووفق القرار ٢٦٣ الصادر من ما يسمى بـ(مجلس قيادة الثورة في العراق) تم بناء العديد من المجمعات القسرية الأخرى في محافظات أربيل والسليمانية ودهوك لغرض المراقبة والسيطرة على المرحلّين.

وفي ٣ مايو/أيار ٢٠١١، اعتبرت محكمة الجنايات العليا العراقية، حملة "الأنفال"، "جريمة ضد الإنسانية وإبادة جماعية - جينوسايد-".

تكرار الأخطاء السابقة :

عقب سقوط نظام البعث في العراق في ٩ / ٤ / ٢٠٠٣، كانت جميع الأطراف تنتظر أن يحكم العراق نظام ديمقراطي، ولا يكرر أخطاء الأنظمة

السابقة تجاه الشعوب العراقية، ولكن رأينا أن الحكام الحاليين أخذوا يفكرون بنفس العقلية السابقة ويحاولون أن يطبقوا نفس سياسة تلك الأنظمة، إن هذا الأُسلوب المتبع للحكم في العراق قد ألحق ويلحق الأضراربجميع الأطراف، ويصبح سبباً لتكرارالمآسي السابقة، لذلك يستوجب على الجميع التصدي لهذا الأُسلوب في الحكم ورفضه.

إن نظام الحكم في العراق من خلال ممارساته الحالية حث الخطى نحو الانفراد والديكتاتورية، ووقف أسوة بالأنظمة العراقية السابقة ضد الكورد ومطالبه، وفي الوقت نفسه شرع يتحرك ضد عرب سنة العراق في محاربتهم، إضافة إلى ملاحقتهم وممارسة القتل ضدهم، وفي العملية السياسية بدأ يشل تأثيرهم ويهمشهم. إن السياسة الخاطئة والمعادية للحكومة العراقية الحالية التى مارستها ضد مكونات داخل إطار الخارطة المصطنعة للعراق جعلتها تواجه مجموعة من المعضلات الأمنية والإدارية، وما حدث في العراق والذي كان حصيلة السياسة الخاطئة والفاشلة لحكومة العراق، إذ يبدو أن السيطرة على هذا الوضع ليس من السهولة بمكان سيستمر إلى أمد ويلحق أضراراً بالغة بالبنية التحتية والفوقية للعراق، وإن ما حدث يعد ضريبة للسياسة الخاطئة والطائفية.

علينا نحن الكورد مراقبة الوضع والتعامل بيقظة وحذر مع الأحداث ولا نقع تحت طائلة تأثير أية جهة، ولهذا الغرض يجب أن نأخذ العبرة من الماضي، فمن هذه الناحية تحدثت في كثير من المرات السابقة عن التجربة المرة للشعب الكوردي مع الحكومات العراقية، وهنا أرى من الضروري أن أُذكّر جميع الأطراف بأننا الكورد لنا تجربة مُرة مع الأنظمة العراقية المتعاقبة على دست الحكم، وكلما كان العراق ضعيفاً وغير قادر يلتجئ إلى الكورد

ويتفاوض معه، وحال ما يشتد ساعده ويمتلك القوة والإمكانية حتى يناهض الشعب الكوردي ومطاليبه، وإذا نظرنا إلى الماضي نرى أن كافة السلطات العراقية كانت في بداية تولي زمام الحكم أبدت نوعاً من المرونة والتساهل، ولكن بعد أن تقوت وتعززت سلطاتهم عادت تناهض وتعادي شعب كوردستان، هو ذا عبد الكريم قاسم حينما تسنم دست الحكم من ١٩٥٨ إلى ١٩٦١ أبدى نوعاً من المرونة، ولكن بعد ذلك في ١٩٦١ تنصل عن تعهداته، الأمر الذي أدى إلى إندلاع ثورة أيلول في ١٩٦١/٩/١١ بقيادة الجنرال مصطفى البارزاني الخالد، إن سلطة قاسم فعلت ما فعلت وما استطاعت إليه سبيلاً من قتل الكورد وشن الهجمات بقصف القنابل وحرق مدن وقرى كوردستان، وإذا أخذنا أُنموذجاً آخر فإن حزب البعث قام سنة ١٩٦٨ بالانقلاب وتولى زمام الحكم، أبدى في البداية نوعاً من المرونة وبدأ بالحوارمع قيادة ثورة كوردستان فاضطر أخيراً أن يوقع ويعلن اتفاقية آذار ١٩٧٠ في ١١ آذار ١٩٧٠ ، من ١٩٧٠ إلى ١٩٧٤ يخيم الهدوء على كوردستان، وخلال السنوات الأربع حين سارت سلطة البعث نحو القوة تنصلت من تعهداتها وبدأت بشن الحرب على كوردستان واستخدمت جميع أنواع المؤامرات، بدءاً بالتعريب والقصف الكيمياوي وإخفاء آثار المعتقلين الكورد إلى أن وصلت إلى حملات الأنفال السيئة الصيت، وقد كان هدف البعث إبادة شعب كوردستان بأرضه وناسه، والأُنموذج الأخير يتمثل في سقوط نظام البعث في ٢٠٠٣/٤/٩ ، وحين انهار حكم البعث فإن الذين أطلقوا على أنفسهم المعارضة العراقية ما كانوا يملكون موقعاً جماهيرياً من داخل العراق، وعندما عادوا إلى العراق بتعاون من بلدان التحالف والبلدان المجاورة للعراق عززوا قواعدهم ومواقعهم، فكانوا في كل شئ يستنجدون بقيادة كوردستان، حيث أنها لم تقصر في مساعدتهم ودعمهم، وما فعلت لتلك الأطراف العربية العراقية لم تفعل ربعها للقوى والجهات الكوردستانية، لقد استجابت لهم إلى حد بالغ بحيث همشوا الأطراف الكوردستانية، في حين كان من المفترض أن تتعاون وتدعم الجهات الكوردستانية أكثر وتقوم بتقويتهم، وما فعلت للجهات العربية العراقية أن تفعل للجهات الكوردستانية، ولكن للأسف لم تفعل ذلك، هو ذا ما رأيناه بعد سقوط نظام البعث كيف أن الجهات العربية واقفة ضد مطالب شعب كوردستان وقيادته، وكيف دافعت الجهات الكوردستانية عن مكاسب شعب كوردستان وساندت القيادة الكوردستانية، فمن الحق والصواب أن تعيد القيادة الكردستانية النظر في مواقفها وسياستها، وتعيد تنظيم الوسط السياسي أكثر، وتعززه، وتأخذ آراء وأفكار حماة الوطن والمخلصين بنظر الاعتبار، وتتلقى بصدر رحب انتقادات ومعاتبات الناس، وتكون مهتمة وحريصة على حل مشاكل الناس، وما تفعل لهذه الجهة وتلك الجهة، لتفعل لشعب كوردستان، إن هذا واقع لا بد أن نعترف به، ومن الضروري أن يسود التشاور بين الأطراف الكوردستانية.

الحل :

إن أفضل حل للنجاة من الوضع الراهن في العراق ولقطع الطريق عن الحكم الفردي والديكتاتورية، يجب أن يحول العراق عملياً إلى ثلاث دول، تؤسس دولة لشعب كوردستان، ودولة للعرب السنة، ودولة للعرب الشيعة، إن هذا حل واقعي ملائم لوضع العراق، لأن تجربة أكثر من مائة سنة خلت أثبتت لنا بأنه من الصعوبة بمكان جداً، أن نتمكن العيش حتى النهاية ضمن خارطة العراق المصطنعة، خاصة نحن شعب كوردستان علينا أن ننتفع من الماضي ولا نفوت الوقت عبثاً، إذ تقول لنا تجربة الكورد مع أنظمة العراق ألاّ نأتمن السلطات العراقية، لذلك ينبغي علينا منذ الآن أن نتهيأ للاحتمالات والمستجدات التي تطرح أنفسها على أرض الواقع ويكون لها تأثير على شعب كوردستان.

سيرة الجلاد

الذي كان يُعذب ضحاياه بالشمس

هي سيرة وصورة، على رغم إمكان تصنيفهما ضمن القصص الخيالية التي تتناقل روايتها الأجيال. ليستا متخيلتين؛ وما ميّزهما عن غيرهما من السِيَر والصور، أنهما تحيلان واقعة الألم إلى سرد مبني على الذاكرة، كما في تاريخ التعذيب في الإسلام، الذي وثقت رواياته الكتب والمراجع وفق ما تناقلته الأجيال. هناك روايات كثيرة عن صاحب هذه السيرة/ الصورة، إنما المُثير فيهما هو غيابه المرئي، وكأنه غير موجود بالمطلق، أو اختلقته مُخَيلة الضحايا في خِضم الألَم. كانت الصور التي يرسمها سَرد نساء كُرديات عن ظُلم "الجلّاد الغائب" مؤثرة ومُشبَعة بالدموع؛ لكنها بقيت ناقصة إلى تلك اللحظة التي ظهرت له فيها صورتان يتيمتان، يلتهم "الجلاد" في واحدة منهما أفعى، فيما يسلخ جلد أرنب في الأخرى (الصورتان أدناه).

خالد سليمان

صورتان لـ«النخبة»

إنهما صورتان لجندي عراقي من قوات المغاوير، أي النخبة المُدرّبة الخاصة في عراق عهد الديكتاتور صدام حسين (١٩٦٨-٢٠٠٣)، حوّله عدم التردد في سلخ جلد الحيوانات الحية أثناء الخدمة العسكرية والتهامها، إلى جلّاد كان ينتقم من ضحاياه، كلما فاضت حرارة الصحراء منه في صيف الجنوب العراقي في ثمانينات القرن العشرين. صورتان، غيرتا تاريخاً لا يستطيع الباحثون والمؤرخون تحديد ملامحه من دون اللجوء إلى حكايات التعذيب في التاريخ العربي والإسلامي، وتاريخ الأنفال ضد الشعب الكُردي عام ١٩٨٨ بطبيعة الحال. صورتان، أعادتا الصدقية التاريخية لوصف الضحايا، صدقية يفتقد إليها القوميون والبعثيون والإسلاميون بطبيعة الحال.

بعد مرور ثلاثة عقود على الأنفال وأثناء بحثه عن خيط يوصله الى شخصية هذا الجلّاد، حصل الصحافي الكُردي ومخرج الأفلام الوثائقية فرمان عبد الرحمن على الصورتين المذكورتين لديكتاتور الصحراء الصغير؛ الحجّاج. أنتج عبد الرحمن فيلماً وثائقياً لقناة (روداو) الناطقة باللغة الكُردية عن جلّاد غائب، إنما كُلّي الحضور في ذاكرة الناجين من سجن نقرة سلمان جنوب العراق. وحصل على الصورتين في البصرة من خلال شخص، كان حصل عليهما هو بدوره من خلال أحد أقربائه الذي أمضى سنوات في الخدمة العسكرية مع الحجّاج.

تجول فرمان بين ناحية السلمان جنوب غربي مدينة السماوة والبصرة وكُردستان للتأكد من وجود الحجّاج في الصورتين اليتيمتين ومقارنتهما مع أوصاف من ذاق المذلة تحت سيطرته وقسوته. لم تستغرق ذاكرة الضحايا الأكراد الوقت لاسترجاع صورة جلّادهم والتعرّف إليه، كما لم يحتج عذاب الشمري، وهو ابن المنطقة وقتاً للتفكير حين رأى الصورة، إذ قال فوراً: إنه الحجّاج.

القصة، وما فيها؛ رئيس حرس أقدم على سجن عراقي، تفتقد الروايات المنقولة عنه إلى سيرته الشخصية؛ منها اسمه واسم عائلته ومكان ولادته، والبيئات الاجتماعية التي ولَّدته وانشأته. يقتصر السرد عنه على الألم من دون شيء يقنع المتلقي بوجوده أصلاً، على رغم أنه كان كلّي الحضور بسوطه وشاربيه الكثّين بين المعتقلات والمعتقلين. كان يُسمى «الحجّاج»، أو عجّاج تكريتي أو الملازم حجاز.

من هنا تبدأ إشكالية تحديد هوية جلّاد لا يعرف أحد حتى اسمه الأصلي. نعتمد في هذه الرواية التي بقيت ناقصة الى حين ظهور التقامه أفعى وسلخه أرنباً، اسم «الحجّاج»، كما يناديه جميع الناجين من بطشه. لا أحد يعرف لماذا كان يكنى بهذه الكنية، وكيف وصل إلى رتبة عسكرية تسمح له بالتعذيب عبر التشميس في سجن نقرة السلمان الذي يرجع تاريخ تأسيسه إلى عهد الإدارة الكولونيالية البريطانية (١٩٢٣) في محافظة المثنى بالقرب من الحدود السعودية. أهو كنية عائلته، أم اختارها بنفسه حُبّاً بأحد أكبر المستبدين في التاريخ الإسلامي، الحجّاج بن يوسف الثقفي (٦٦١-٧١٣م)، أو اختارها له مقرّب عارف بتاريخ التعذيب واستيلاده المتواصل للمُعَذّب؟ لا أسوق هذه الأسئلة إلّا في سياق توثيق ذاكرة جماعية في إطلاق التسميات والأوصاف، ذاك أن لقب «الحجاج» لم يأت من الأكراد المُؤَنفلين المعتقلين في مُعتقل نقرة السلمان، إن إن السكان المحليين في ناحية السلمان ومدينة السماوة كانوا يسمونه الحجّاج.

وما يهم في هذه السيرة بحسب أوصاف من ذاقوا طعم المذلة الجسدية والنفسية بين أوراقها، هو أن بطلها، الحجّاج، كان يتميز بالصفات التالية: قامة طويلة، أكتاف عريضة، حنطي اللون، وجه عريض، شوارب سوداء، قسوة في الملامح، لا تترك يده السوط ولا يعرف قلبه الرحمة. كان الواحد الأوحد في ذلك السجن الذي زُجّ فيه الشيوخ والنساء

والأطفال الأكراد أثناء عمليات التطهير العرقي، المسمى الأنفال عام ١٩٨٨. وكان حارساً ورئيساً وقاضياً في آن واحد، يُعَطِّش ويُعَذِّب من يشاء. وحين يسرد عنه ضحاياه حكايات المذلّة، نجد أنفسنا أمام بورتريه مرسوم في أعالي الخوف.

ربط ست نساء تحت أشعة الشمس

تتذكر آمنة محمد، التقيت بها عام ٢٠٠٤، وهي إحدى ضحاياه وقضت أكثر من ثلاثة أشهر في سجن نقرة السلمان الكثير عنه وتقول: «كانت الحياة جحيماً، وصل طعم الذّل إلى عظامنا. كان الحجّاج مدير سجننا، وهو الذي منعني من دفن ابني وابنتي، قتلهما المرض والحرّ والجوع والعطش في ذلك السجن صيف عام ١٩٨٨. لقد أخذ مني جثتيهما مع الحراس الآخرين قائلاً: نحن ندفنهما. بقيت في العنبر وبكيت وانهارت أعصابي». تتابع هذه الأم الكُردية التي ذاقت المرارة الكاملة على يد الجلّاد الغائب: «كان يعاقبنا كيفما يشاء، بعد منتصف الليل، ظهراً أو صباحاً إذا أراد. لقد ضربني مرة بالسوط لأنني تجرّأت وذهبت مع نساء أخريات إلى قاووش المعتقلين المسنّين وتكلمنا معهم حول ما إذا كانوا يعرفون شيئاً عن مصيرنا وإلى متى نبقى في هذه الصحراء. وربط في ذلك اليوم ست نساء تحت أشعة الشمس لمدة ساعات للسبب ذاته ومنع الجميع من الاقتراب منهن. كانت نشميل محمد علي واحدة من اللواتي تم تعذيبهن بأشعة الشمس، انها لا تريد التذكّر والحديث عن تلك الظهيرة».

كان «تشميس الضحايا»؛ طرحهم في الشمس أو تكبيلهم وتركهم تحت أشعة الشمس الحارقة لساعات، أسلوباً من أساليب الحجّاج، وكان يعتمد معه التعطيش. عذاب الشمري، من سكان ناحية السلمان، كان عمره عشر سنوات آنذاك، ١٩٨٨، ويعمل بائعاً متجولاً وكان بإمكانه الوصول الى أطراف السجن وبيع السكاكر وأشياء أخرى خفيفة للحرّاس. ويقول عذاب «"كنت أرى المعتقلين يتجمعون حول قاطرة المياه ويبدأ الحرّاس ضربهم، كان الحجّاج يضربهم بسوطه البلاستيكي. أتذكر لون سيارته الحمراء، سوبر موديل ١٩٨٥، وكان يركب سارة لاند كروزر بيضاء أحياناً».

قمع الموتى!

لم يكن الحجّاج يسمح بحفر القبور للموتى أكثر من عمق نصف متر خارج السجن، وكان يسمح بذلك للكلاب الجائعة المتجمعة حول المكان بالتهام جثث الموتى. نشر الصحافي الأميركي جيفري غولدبرغ قصة امرأة كُردية تسمى سلمى بابان في مجلة «نيو يوركر» بتاريخ ٢٥ آذار/ مارس ٢٠٠٢. تقول سلمى بابان في روايتها عن القسوة التي عاشتها في ذلك الجحيم الصحراوي: «لم يكن بإمكاننا إبقاء جثث الموتى في القاعة، وفي أول أيام نقرة سلمان مات ٣٠ شخصاً وربما أكثر». مرض ابنها الصغير ريبوار البالغ من العمر ٦ سنوات وأصيب بالإسهال. كانت تعرف أنه سيموت، لم يكن هناك طبيب أو أدوية، بكى كثيراً ومات في حضنها. «كنا نصرخ ونبكي أنا وبناتي وأعطيناهم الجثة فأخذها الحراس ونقلوها إلى الخارج». بعد موت ابنها توجهت سلمى نحو النافذة لترى ما إذا كان الحراس دفنوا جثة ولدها، إنما تخشب جسدها وفقدت وعيها حين رأت الكلاب حول جثة ابنها: «رأيت رجلي ابني ويديه بين أنياب الكلاب، كانت الكلاب تأكل ولدي».

لم يكن الحجّاج مسؤولاً عسكرياً كبيراً، إنما القسوة التي امتلكها أثناء الخدمة العسكرية ودخوله وحدات «المغاوير» الخاصة، حولته إلى جلّاد التشميس. وكانت القسوة كفيلة بالحصول على الامتيازات، منها امتيازات الظلم، في الأجهزة العسكرية والأمنية العراقية. بعد عام ٢٠٠٣ صار بإمكان الصحافيين زيارة سجن نقرة سلمان ونقل صور عنه، وعما كُتِب على جدرانه بطبيعة الحال، ولكن بقي الحجّاج لغزاً، إنما لحظتا التقام الأفعى وسلخ الأرنب، في صورتي الحجّاج، وثقتا ما يمكن وصفه بسيرة مُمكنة لجلّاد كان يُعَذِّب ضحاياه بالشمس.

الصحراويون

إلى المونفلين

شعر: فريدون سامان

ترجمة: مكرم طالباني

مشروخ من كل جهة
صدأٌ في كل جانب
حمل صورة مدينتي الضائعة
في إطاره المضعضع
عيناك مرآة
غطاها الضباب
في الصيف القائظ المغبر هذا
لن يبدو فيها سيمائك المعتم المنهك
وعلى شوارع البلوغ
أضاع خلودك خطواته
وصورة ساقيه إحدى شجيرات الرمان
أودعت ظلالها
عيناك
مرآة كمرآة صدئة
كضاب مدينتي الضائعة المتربة
لن تستطيع رؤية أحد الصحراويين
لن تحلم برحلة السحب الطائرة
تكون عطوفة كتلك الأمطار
التي تهدهد مهد أحلامك الطفولية
ألا ترين
حين ترحل الأمواج
دون أن تعود كرةً أخرى
دون الوصول إلى سواحل الطمأنينة أبداً
ذوات اللحى البيض
ألا ترين حين تسقط ورقة
من على غصن شجرة هرمة جوفاء
في خريف الحياة الشاحبة
ولن تغدو مظلة لتلك العصافير

التي تقتلها الوحدة
دون أن يوجد هناك عش
يقيها من زمهرير الشتاء
أو تغدو خيمة لرحالة سفوح هذه الجبال
وتحتضن جل الغزلان الجبليات الهائمات
بحرارة
ألا ترين
عيناك، مرآة
تقتفيان الآثار ..
تطوفان سطح هذه البسيطة المزدحمة
شبراً شبراً
تبحثان عن أخبار قبج سهول (كرميان) السجينات
وبقايا عظام رماد أطفال أتون الضباب
حورية الرمل
لم تكوني فتاة (كويستان) !
إذن كيف بقيت وحيدة في هذا الصحراء الجرداء ؟
كالريح
كالمطر
كالبرق
تهمسين في آذان ذرى الجبال
وفي ظلمة وحشة مصيرك هذه
ارتديت رداء الرّمل سراً
كالراحلة ليلاً
تائهة في دروب وأزقة العشق
كنور القمر تنفذين إضراباً
لأجل قدسية ونقاوة الليلة المقمرة
تطفئين نفسك كالنباريس

وتجعلين الضياء سلالم
وفي قلعة حياتك الحصينة
المحاصرة بالمجانيق والسلاسل تلك
تتسلقين الشمس
ألا تخبريني
أي جدول
أي نهر
أوصلك إلى هذه الفيافي القاحلة
كي تهيمين على وجهك في أرض (عرعر) الجرداء تلك
من أجل عشق شباب (كويستان)
ذوي العيون النرجسية
وكسنابل القمح
تملئين نهديك حليباً
لأجل إرواء عطش أسراب القطا
المتخلفة في بيادر الأشواك والأدغال
في هذه الليلة المتأخرة حتى الفجر
جدلية أية ملحمة افتراق تجدلين
ألا تعرفين متى تشرق الشمس هنا
وكيف تغرب ...
وأين ينهمر المطر
وأي مرج ونبع يصيبهما الجفاف عطشاً
ولن يدرك احد أسرار موت قبج (كويستان)
كذلك لن تعرف مجاميع السنونو لماذا تموت
وهل الأسماك تنتحر
على كل سواحل الغربة
لبحار الحسرة تلك
هنا في هذه الفيافي العرعرية
من يصغي لدموع الندى

وتنهدات أغاني الرمال الخضراء
من في هذا الموقد
يسكب دمعة لحسرات النيران
وتضرعات ذلك السيف الجريح
من بإمكانه
اجتياز جيش الرماح والحراب والخناجر
وعبور تخوم المخيمات
عدا شواهد الرمال تلك
من يقيم الصلاة الجماعية (للموت)
أمام دروع المحن
ويتسلق قامة الأشباح
في ذلك الوادي الضيق
حورية البحر
ألم تكوني فيما مضى بنت (كويستان)
لكنك الآن اصبحت جارية الفيافي
حين يهمس صراخك في أذان الجبال
تفور وتهيج تلك الجداول والأنهار
حين تلتهم النيران طرف ثوب الذئب الأغبر
تغدو الخيم منازل
لتبدأ طقوس الموت
على جثة حبيبك الموئود ...
وتغدو العواصف رسائل
حاملة النبأ للصخور والكهوف والقمم
كيف يزرع رب المنية
أمام أنظار جميع حواريّ الأرض
بذور الموت
في رحم هذه المدينة الخربة العاقر

لكل (مم) و (زين)
في هذه الفيافي الجرداء
كل شاهدة تبحث عن لحدها الضائع
كل حفرة تولول لجثتها
هنا في هذه الليلة الدامسة المتوحشة
الكاسفة شمسها أبداً
في ذلك الوادي الضيق
في تلك القلعة الرملية
بعيون عمياء
وأيادي مقطوعة
جسد محطم أنا
أتيت لأجل زيارة ما تبقى
من أردية وأحذية وذكريات السنونوات
لجدول (حورية) (كويستان) المهتوك
وأمام أنظار هذه الخيمة السوداء المقدسة
أتيت كي أنظف صدأ مرآتي المشروخة
كي أعثر على بؤبؤ عيني
وأنقل مدينة أمواتي إلى مكان آخر
وفي شوارع البلوغ
التقط خلود خطواتي
في ليلتك الحالكة الوحشة هذه
التي يغيب عنها بصيص نبراس دوماً وأبداً
أتيتُ كي أرفس الكرة الأرضية تلك
التي لا زالت على ظهر السمك
وفوق قرون الثيران

أسس بناء فكر كردي معاصر

إن لكل شعب مضطهد أو غير مضطهد منظومة فكرية، هذه المنظومة تتكون بالاستناد إلى جملة ظروف وعوامل تاريخية وثقافية واجتماعية وسيكولوجية واقتصادية، تتكون عبر عملية التفاعل والتجادل بين الوعي والواقع بين النظرية والممارسة بين القول والفعل، وهذه المنظومة يمكن لها أن تحدد خطوطاً استراتيجية بالإضافة إلى تشخيص الواقع، تهتدي إليها الفعاليات السياسية والثقافية والاجتماعية، وبالنسبة للكرد يلحظ غياب منظومة فكرية موحدة، وحتى أن الفكر غائب بسبب سيطرة الأيديولوجيات وسطوة السياسي بالمعنى اليومي المحدود،

حواس محمود

كاتب وباحث مقيم في النرويج

وبسبب حالة التجزئة التي يعاني منها الشعب الكردي وظروف المرحلة الانتقالية من عدم تقرير مصيره حتى الآن مما أفقده حالة استقرار تتكون فيها ملامح وتجليات فكر كردي معاصر، ومن هنا تأتي المحاولة الراهنة المتواضعة لبناء أسس ومبادئ فكر كردي معاصر، يستطيع أن يقدم رؤية موضوعية للواقع الكردي، ويضع النقاط على الأحرف، ويشير إلى مكامن الخلل والعطب، ويرسم مسارات معقولة ومنطقية للسير النضالي باتجاه نيل الحقوق القومية المشروعة، ودخول العصر بقوة وتوازن وجدارة. وتأتي هذه المحاولة كحاجة موضوعية للمس الجراحات الفكرية والأيديولوجية وحالة القلق الفكري لدى الجماهير، هذه الجماهير التي تتيه في شتى الجوانب والاتجاهات الأيديولوجية المتنازعة على الساحة الكردستانية، وغياب البوصلة الاستراتيجية الموظفة لصالح مطامح وأهداف الشعب الكردي في كافة أجزاء كردستان

إنَ الناظر للوحة الفكرية الكردية يجد مظاهر عديدة تدل على غياب فكر كردي معاصر، منها إنّ الفكر الكردي اتخذ طابعاً أيديولوجياً وسياسياً بالدرجة الأولى، تمثل في أدوات مؤسساتية هي الأحزاب الكردية،

ملامح ومظاهر غياب فكر كردي معاصر:

إنَ الناظر للوحة الفكرية الكردية يجد مظاهر عديدة تدل على غياب فكر كردي معاصر، منها إنّ الفكر الكردي اتخذ طابعاً أيديولوجياً وسياسياً بالدرجة الأولى، تمثل في أدوات مؤسساتية هي الأحزاب الكردية، هذه الأحزاب تنوعت شكلاً وتماثلت مضموناً، تنوعت شكلاً باختلافات أيديولوجية مصطنعة ونابعة من انتماءات وولاءات لأحزاب كردستانية أخرى، وتماثلت مضموناً في غياب فكر متماسك في منظومته، ثابت في مبادئه مستمر في نضاله وتفاعله مع الجماهير، وكذلك فإننا نجد العديد من حالات الانقسام والتشرذم تتم بالاستناد إلى الولاءات الكردستانية الخارجية، وبغياب الاختلاف الفكري وحتى الأيديولوجي، أي أن الأيديولوجيا أيضاً غائبة في الانشقاقات وبخاصة في مرحلة الثمانينات والتسعينات، والفكر غائب بشكل مطلق عن مسائل الاختلاف. إن الحالة التشتتية للأحزاب الكردية وتبعية بعض الناس لها يمكن تسميتها بـ(التشتت القطيعي) أي كيفما اتجه القائد حزبياً انشقاقياً كذلك تبعه مريدوه وأنصاره في ولاء مطلق أشبه ما يكون بالولاء العشيري – نسبة للعشيرة –. ومن ملامح الغياب الفكري أيضاً غياب الدور الثقافي للمثقفين الكرد، إذ أن المثقفين الذين نجدهم من خلال نتاجاتهم وبخاصة في مرحلة التسعينات كانوا في معظمهم منخرطين في صفوف الأحزاب الكردية، وبسبب عمليات الانشقاقات وأسباب أخرى تركوا صفوف الأحزاب وبدأو يعملون بجهود فردية لخدمة الثقافة الكردية، ولكن وبالرغم من جنينية الثقافة الكردية وخطواتها الأولى على أيديهم، إلا أن الظاهرة الثقافية تبشر بالخير لدى هؤلاء، وذلك بسبب غياب مناخات القمع الحزبي عليهم والحرية النسبية القليلة المتاحة لهم في تأليف ونشر نتاجاتهم، لكن ما يؤخذ على نتاجاتهم هذه قلة الاهتمامات الفكرية والتاريخية

إنّ المجتمع الكردي يتبع لمجتمعات متعددة الأنماط الاجتماعية، وهي تختلف عن المجتمعات الرأسمالية بغياب تطور صناعي يفرز طبقات رئيسية، ولهذا السبب مع أسباب أخرى ذات طابع ثقافي واجتماعي تاريخي يتعلق بذهنية الإنسان الشرقي الذي لا تزال الأوهام والخرافات والمثاليات والرومانسيات الفضفاضة تسيطر على عقليته،

والتحليلية والنقدية والاستراتيجية، الأمر الذي يفتقده الكرد اليوم وحاجتهم الماسة إليه لمعالجة أزماتهم الصغرى والكبرى في عالمنا المعاصر اليوم، وبالنسبة للجماهير نجد اللا مبالاة تجاه الأحزاب وتجاه المثقفين، وتسود العاطفية المطلقة وتغيب المناخات والأجواء العقلانية، ويسود الحوار حالة من السخونة والانفعال والصراخ واللا فهم والتوتر، ويتمسك المحاور بجملة من المسلمات ومقولات حفظها عن ظهر قلب يتشدق بها ويرفعها حجة في وجه المحاور الآخر الذي لا يقل عنه «فهلوية» في الحفظ والتلقين والتدجين والصراخ والعنف واللا هدوء – وبخاصة في فترة التسعينيات من القرن المنصرم – ويتمسك كل منهما برأيه أو بالأحرى بحزبه أو بصورة أدق بزعيمه، فتكون النتيجة سلبية واختلافاً، وقد يكون شجاراً أو تفككاً عائلياً اجتماعياً يهدد المجتمع الكردي بالانقسام الاجتماعي وهذا له خطورته الكبرى، وتسود الانتهازية والذرائعية والأنانية واللف والدوران والتهويل والتمظهر والاستعراضية وشتى الأساليب اللا واقعية واللا مخلصة في سير العملية النضالية.

أسباب غياب فكر كردي معاصر:

يمكن أن تنقسم أسباب غياب فكر كردي معاصر إلى قسمين،

القسم الأول: يتعلق بالظرف الاجتماعي الاقتصادي التاريخي، والقسم الثاني: يتعلق بالظرف الثقافي والسياسي.

ا- الظرف الاجتماعي الاقتصادي التاريخي:

تتداخل في المجتمع الكردي كبقية مجتمعات البلدان النامية عدة تشكيلات اجتماعية اقتصادية، والتي تتسم باللا تمايز في الطبقات والشرائح الاجتماعية الداخلة في تركيبه. إنّ المجتمع الكردي يتبع لمجتمعات متعددة الأنماط الاجتماعية، وهي تختلف عن المجتمعات الرأسمالية بغياب تطور صناعي يفرز طبقات رئيسية، ولهذا السبب مع أسباب أخرى ذات طابع ثقافي واجتماعي تاريخي يتعلق بذهنية الإنسان الشرقي الذي لا تزال الأوهام والخرافات والمثاليات والرومانسيات الفضفاضة تسيطر على عقليته، أقول لهذه الأسباب فشلت عملية النهضة التي عادة ما تقوم بها البرجوازية، وأدى هذا التخلف الصناعي ذي التبعات الفكرية السلبية إلى إبقاء المجتمع الكردي في حالة تطورية لا تتناسب مع تطوره القومي، بغياب الزخم الاجتماعي لهذا التطور، أي أنّ البرجوازية الكردية تابعة للبرجوازية في البلدان المقسمة لكردستان والتي هي بدورها تابعة للبرجوازية الغربية، مما أضفى على البرجوازية الكردية حالة من التبعية المضاعفة، وهذا ينعكس على البنية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الكردي أو بالتحديد وضع الطبقات الاجتماعية. إنّ هذه الوضعية غير المستقرة والقلقة وغير الطبيعية تؤثر سلباً في بناء منظومة فكرية واضحة المعالم والتجليات، ويمكن القول إن الوعي القومي الكردي لم يتبلور بانسجام مع التطور التاريخي للشعب الكردي بمعنى لم يأت- الوعي القومي – كانعكاس للضرورات الاقتصادية والاجتماعية، وبالتالي لم تكن البنية الفوقية موازية للبنية التحتية بعلاقاتها الإنتاجية الرأسمالية كما حصل في أوروبا، وإنما كان الوعي القومي محاكاة للطموحات

واختلفت الشعارات وتناقضت المقولات وارتبكت البرامج واختلفت الشعارات، وتغيرت كثيراً من حالات متشددة إلى حالات متراخية مع حركة الزمن والتاريخ، هذه الحالة أثرت كثيراً في غياب فكر كردي استراتجي يرسم معالم النضال المستقبلي ويحدد أهداف الكرد ويبين رسالة الكرد الحضارية في المنطقة ويشرح الغايات والحاجات الموضوعية للنضال الكردي.

القومية للشعوب الأخرى، وبنفس الوقت رد فعل على السيطرة السياسية للشعوب المجاورة والأنظمة الاستبدادية الشرقي،ة وبصورة أكثر توضيحاً نتج الوعي القومي الكردي تحت تأثير بنى فوقية أساساً كاللغة – المشاعر – القومية – القبيلة ولم تتحول المسألة الكردية إلى ضرورة اقتصادية اجتماعية بشكل جوهري ورئيسي في بداياتها كما كان ينبغي لها أن تكون لخصوصية كردستان المقسمة أصلاً عبر كافة المراحل التاريخية.

ا- الظرف السياسي والثقافي

وكما مر معنا آنفاً فإن انخراط المثقفين في التنظيمات والأحزاب السياسية الكردية أدى إلى سطوة السياسي على الثقافي، ولبس النضال القومي الكردي لباساً سياسياً وقومياً وغاب البعد المعرفي الاستراتجي عن ساحة النضال، واختلفت الشعارات وتناقضت المقولات وارتبكت البرامج واختلفت الشعارات، وتغيرت كثيراً من حالات متشددة إلى حالات متراخية مع حركة الزمن والتاريخ، هذه الحالة أثرت كثيراً في غياب فكر كردي استراتجي يرسم معالم النضال المستقبلي ويحدد أهداف الكرد ويبين رسالة الكرد الحضارية في المنطقة ويشرح الغايات والحاجات الموضوعية للنضال الكردي. والحقيقة أن كل ما كان سائداً ولا يزال هو نمط سياسي وتكتيكي مرحلي وإلى حد كبير فردي أحادي، وهو أقرب إلى إبداء وجهة نظر منه إلى منظومة فكرية متناسقة الأبعاد والملامح، وللأسف لم تحاول التنظيمات السياسية الاستفادة من جهود المثقفين في تخصيص مؤسسات ملحقة بالحزب غاياتها معالجة المسألة الكردية كل حسب اهتماماته، مثلاً الذين يشغفون بالدراسات التاريخية كان ينبغي تكليفهم بهذه الدراسات وتأمين المراجع والبحوث اللازمة لذلك، والذين كانوا يميلون للدراسات الفكرية التحليلية كان ينبغي تكليفهم بالبحث في هذه المجالات وهكذا .. بالنسبة لباقي الاهتمامات ويمكن هنا الإشارة إلى نقطة أخرى مهمة في هذا المجال فإن المنح الدراسية للطلبة الكرد من قبل بعض الأحزاب الكردية أو من قبل الأحزاب الشيوعية لم تأخذ جدواها المعرفية والفكرية بسبب الاهتمامات العادية (الطب – العلوم – الهندسة – الرياضيات) وغيرها، ولكن غابت عنها الدراسات الفكرية – التاريخية – الفلسفة – الأدبية – التراثية – الموسيقية – السينمائية – وهذا يمكن إن يسد نقصاً في مجال غياب الأكاديميات والجامعات الكردية، وللأسف ضاعت الفرص وسخرت لمصالح أنانية وضيقة، وغاب البعد الاستراتيجي

المعرفي في هذه المنح التي لو استثمرت جيداً لشكلت نواة لفكر كردي معاصر، يضاف إلى ذلك مجال التراث إذ لم تكلف الأحزاب الكردية بعض المثقفين لدراسة وجمع وتدقيق ومراجعة التراث الكردي بأمثاله وحكمه وقصصه وحكاياته وآدابه وأغانيه وموسيقاه وعاداته وتقاليده، وفلكلوره بشكل عام، وهذه مهمة ضرورية لبناء فكر معاصر لأن الماضي سيكون لخدمة الحاضر، وعلينا أن نفهم تراثنا ونوظفه لخدمة الحاضر والمعاصرين وعلينا أن نتلاءم مع الحداثة والعصر لاستكمال مسيرة الوعي القومي النضالي الكردي، ولا ننسى القول بأن ما يسود مجتمعنا هي قيم القبيلة – العشيرة – الدين – الخرافة، وتتعرض ثقافتنا للسرقة والتحريف والتزوير والقرصنة والتشويه والاعتداء وكل هذا يحتاج للتناول والمعالجة والنقد والتحليل.

أسس فكر قومي معاصر:

لعلها مهمة صعبة وشاقة وضع أسس بناء فكر كردي معاصر، ولعلها قد تكون أقرب إلى الطوباوية والأحلام والخيال مقايسة ومقارنة بالوضع القائم والراهن والمأساوي إلى درجة كبيرة، ولكن لنسأل أليست الاكتشافات والاختراعات البشرية منذ بدايات التاريخ كان أساسها الأحلام والطموحات والخيالات، ولذلك وبالانطلاق من الجرح الكردي والتمزق الكردي الذي يضرب في بنية المجتمع الكردي الذي يئن تحت ضربات كثيرة ولعلها الأكثر إيلاماً «فوضى السياسة» وفقدان الفكر المعرفي، ويمكنني هنا وضع الأسس على الشكل التالي:

١- بناء مؤسسات ثقافية وفكرية عمادها المثقفون الكرد المستقلون والشخصيات المتنورة الكردية، لدراسة الواقع الكردي واللوحة السياسية والاجتماعية والاقتصادية الكردية، والخروج منها بكتب ودراسات ومجلدات ضخمة (ويجب تأسيس دور النشر والمطابع لهذه الغاية)، تأخذ منحى أكاديمياً وتصبح مراجع لكل سياسي ولكل تنظيم حزبي كردي في سائر أرجاء كردستان.

التركيز على عدم عبادة الشخص وبخاصة هذا الشخص الزعيم، وتوظيف الخاص في خدمة العام القائد في خدمة الحزب والحزب في خدمة الشعب والشعب في خدمة القضية القومية المشروعية.

٢- التركيز على ترك العاطفية والشفافية الشعورية والموجات الوجدانية الفضفاضة إزاء أي حدث كردي صغير أو كبير مأساوي أو انتصاري، وتأكيد العقلانية وتماسك الأنفس وضبطها والاستمرار والمواظبة الفكرية الدائمة، وتشجيع الجماهير على قراءة الكتب الفكرية للباحثين والمحللين الكرد الذين يبحثون في مجال الدراسات الفكرية والتاريخية والاجتماعية.

٣- التركيز على عدم عبادة الشخص وبخاصة هذا الشخص الزعيم، وتوظيف الخاص في خدمة العام القائد في خدمة الحزب والحزب في خدمة الشعب والشعب في خدمة القضية القومية المشروعية.

٤- نبذ الحوارات الانفعالية الصارخة، والتأكيد على أجواء الهدوء والمحبة، وأخذ الاختلاف كمسألة عادية وبديهية وعدم النظر إلى الخلاف كمسألة مرفوضة، مما يؤدي إلى حالات اتهامية ومهاتراتية وتشاجرية وتمزق عائلي ومجتمعي كبير، والتركيز على الوطني العام بدلاً من الحزبي الخاص.

٥- الجزء في خدمة الكل، هناك مقولات كردية خاطئة ناتجة عن القصور الفكري والفوضى الفكرية تقول بأن على الكل الكردستاني أن يخدم الجزء الكردستاني (كل الجهود باتجاه كردستان تركية)، (كل الجهود باتجاه كردستان العراق)، هذه المقولات خاطئة يجب أن توظف كل الجهود باتجاه كافة أجزاء كردستان، أو أن يُوظف الجزء في خدمة الكل، كردستان العراق خطوة أولى تجاه كردستان عموماً، أو كردستان تركية خطوة باتجاه كردستان عموماً.

٦- التركيز على عدم استخدام الأكراد كورقة بيد الأنظمة الإقليمية أو الدولة، وبالتالي تطبيق مبدأ(عدم الاعتماد على أنظمة الكيانات الغاصبة لكردستان)، وهذا المبدأ شرط أساسي من شروط فكر كردي معاصر ينبذ اعتماد الأكراد كورقة بيد هذا النظام أو ذاك.

٧- تأسيس مرجعية عليا في كل جزء كردستاني، ومرجعية عليا لكردستان عموماً، تتشكل من المتنورين والمثقفين الكرد ويشاركهم المثقفون الكرد في أوربا، وظيفتهم تنوير ووضع الأسس اللازمة للتعامل القومي الكردي في الراهن والمستقبل وعلى المدى الاستراتيجي القادم.

التكتيك في خدمة الاستراتيجية وليس العكس، أي أن الأحزاب الكردستانية تعتمد على الأنظمة الغاصبة لكردستان وتعقد الصفات وتؤثر على القضية الكردية في الجزء الواقع تحت هيمنة ذلك النظام المعتمد عليه،

٨ – تسخير كافة الجهود النظرية في خدمة العملية الممارسية، أي أن تقوم النظرية بخدمة الممارسة وذلك أن الكرد يتكلمون كثيراً، ويضعون حلولاً صائبة وغير صائبة نظرية، لكنهم في الممارسة ضعيفون وهذا يضر بالقضية وبالفكر الكردي أيضاً.

٩ – التكتيك في خدمة الاستراتيجية وليس العكس، أي أن الأحزاب الكردستانية تعتمد على الأنظمة الغاصبة لكردستان وتعقد الصفات وتؤثر على القضية الكردية في الجزء الواقع تحت هيمنة ذلك النظام المعتمد عليه، مما يؤدي إلى الإضرار بالقضية القومية الكردية لذلك الجزء ولكافة الأجزاء، لأنه سرعان ما ينتهي التحالف على أرضية هشة الرابح الوحيد هو النظام الإقليمي الذي استفاد من الورقة الكردية لصالحه وليس لصالح القضية الكردية، والتجربة الكردية غنية في هذا المجال.

١٠- الاستفادة من الثورة المعلوماتية والتكنولوجية، بتطوير الإعلام الكردي والاتصال مع القوى والشخصيات الإقليمية والدولية وتخصيص ديبلوماسيين وكوادر متقدمة موجودة في أوربا والمهجر أو إرسالها إلى هناك لهذه الغاية، وظيفتهم الاتصال بالمنظمات الديمقراطية والإنسانية وبأصحاب القرار هناك لخدمة القضية الكردية.

ختاماً:

هذه ورقة نقاشية تحتاج بالتأكيد للطروحات والنقاشات وللنقد والإضافات أرجو مناقشتها.

الكورد من الكهف

إلى بناء الحضارة

نتائج البحث الذي قام به ثلاثة عشر عالِماً من الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا وأستراليا ونيوزيلندا والتي تم نشرها في المجلة العلمية الأمريكية (SCIENCE)، تُشير إلى أن كوردستان هي منبع اللغات الهندو-أوروپية، حيث أنّ اللغة إنتشرت من كوردستان إلى مناطق الشعوب الناطقة باللغات الهندو-أوروپية حالياً، مع التوسع الزراعي في كوردستان الذي بدأ بين سنة ٧٥٠٠ وسنة ٦٠٠٠ قبل الميلاد. هذا الاكتشاف هو ثورة كبرى في التاريخ الكوردي ويُظهر عراقة الشعب الكوردي والدور المحوري الذي لعبه أسلافه في لغات وثقافات شعوب العالَم.

غزالة خليل

في بحث آخر، نُشر في المجلة العلمية (Nature Ecology and Evolution)، والذي تمّ إجراؤه بإستخدام تقنية الحمض النووي، توصّل الباحثون الى الأصل الكوردي لِبُناة موقع «ستونهينگ Stonehenge» الأثري الذي يبعد ثلاثة كيلومترات عن مدينة (Amesbury) في مقاطعة (ويلتشاير Wiltshire) في جنوب غربي إنكلترا. يذكر الباحثون أن الناس قد سافروا من كوردستان بإتجاه الغرب عبر البحر الأبيض المتوسط إلى أيبيريا (إسبانيا والبرتغال) قبل أن يعرجوا شمالاً، حيث أنهم وصلوا إلى بريطانيا في حوالي ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد. كانت الهجرة إلى بريطانيا عبارة عن مجرد جزء من توسع عام هائل لسكان كوردستان في الألفية السادسة قبل الميلاد، حيث أدخل المهاجرون الكوردستانيون الزراعة إلى أوروبا. بالإضافة إلى الزراعة، فإنّ المهاجرين الكوردستانيين الذين هاجروا إلى بريطانيا خلال العصر الحجري الحديث، قد أدخلوا أيضاً تقليد بناء الآثار باستخدام الأحجار الكبيرة المعروفة باسم «مگليث»، وما مَعْلَم «ستونهينگ» إلا جزء من هذا التقليد. من الجدير بالذكر أن هذا الموقع الأثري يحتوي على حلقة من أحجار واقفة، علو كل حجر هو حوالي أربعة أمتار وعُرضه ٢,١ متراً ويزن حوالي ٢٥ طن.

نتائج الأبحاث السابقة الذكر، تتطابق مع اكتشافات عالِم الآثار الأمريكي البروفيسور (روبرت جون بريدوود Robert John Braidwood) الذي يذكر أنّ الانتقال من حياة الصيد الى حياة الزراعة حدث في كوردستان في حوالي عام (٦٠٠٠ - ١٠٠٠٠) قبل الميلاد. كما أنه يضيف بأن الشعب الكوردي كان من أوائل الشعوب التي طوّرت الزراعة والصناعة ومن أوائل الشعوب التي تركت الكهوف لتعيش في منازل بها أدوات منزلية متطورة للاستعمال اليومي وأن الزراعة وتطوير المحاصيل قد وجدتا في كوردستان منذ (١٢) ألف سنة، انتشرت منها إلى ميزوبوتاميا السفلى، ثم إلى غرب الأناضول ثم إلى الهضبة الإيرانية ووصلت منذ ثمانية آلاف سنة إلى شمال أفريقيا ثم أوروبا والهند. يضيف هذا العالِم الأمريكي بأن الكثير من المحاصيل التي نعرفها الآنَ، كالقمح والذرة والشعير قد انطلقت من كوردستان. حول الصناعة، يؤكد البروفيسور المذكور بأن الموقع الأثري «چيانو» الواقع في شمال كوردستان يمكن أن يُطلق عليه اسم أقدم مدينة صناعية في العالَم، حيث يُستخرج منه النحاس إلى يومنا هذا، كما عُثر فيه على صلصال دُوّن عليه التبادل التجاري.

كما أن نتائج الأبحاث أعلاه، تُفسّر كون أكثر من ٥٠٪ من الكلمات الإنكليزية مأخوذة من لغة أسلاف الكورد السومريين، الذي أشار إليه العالِم اللغوي البريطاني البروفيسور (Wadell) في مقدمة قاموسه السومري – الآري الذي ألّفه في سنة ١٩٢٧ ميلادية.

قام أسلاف الكورد الخوريون (الهوريون) بابتكار الحروف لأول مرة في تاريخ البشرية، حيث أنه في مدينة (أوگاريت) التي تقع شمال مدينة اللاذقية بحوالي ١٢ كيلومتر، تم العثور في سنة ١٩٣٣ مِيلادية، على رُقيم فخاري صغير، طوله ٥,٥ سنتيمتر وعرضه ١,٣ سنتيمتر والموجود حالياً في متحف دمشق الوطني. يحوي هذا الرُقيم (٣٠) ثلاثين حرفاً مسمارياً، التي كانت عبارة عن حروف أبجدية لم يُعرف لها نظير في العالَم من قبل، حيث أنها أول ابتكار للأبجدية في تاريخ البشرية والتي تمّ ابتكارها في حوالي سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد. هذا النظام للكتابة الأبجدية المسمارية كان نظام كتابة مسماري سهل التعلم والاستخدام، مقارنةً بالكتابة السومرية والأكادية المقطعية. هذا النظام هو أقدم نظام كتابي أبجدي مسماري في العالم الذي امتلك نظاماً قواعدياً متكاملاً، وكان يُكتب من اليسار إلى اليمين. كانت الحروف السبعة والعشرون الأولى هي حروف ساكنة والأحرف الثلاثة الباقية هي حروف صوتية، أي حروف علّة. إن ابتكار الأبجدية كان حدثاً هاماً جداً لا يمكن مقارنته بأي حدث آخر في تاريخ الجنس البشري، وهو أعظم من ابتكار الطباعة، إذ أن تحليل الكلام وإرجاعه إلى عناصره الأولية يحتاج إلى عمل فكري عظيم.

كما أن الخوريين ابتكروا أول نوطه موسيقية في العالَم، في حوالي عام ١٤٠٠ قبل الميلاد والتي مكتوبة باللغة الخورية وبالكتابة المسمارية. الأنشودة الخورية هي عبارة عن ابتهال ديني باللغة الخورية ومحتواها تدور حول حكاية زواج لم ينتج أطفالاً، فنتج عنها أنشودة لرثاء حال الإلهة (نيگال) زوجة إله القمر، التي كانت عاقر لا تنجب أطفالاً. في الأنشودة تسأل الإلهة (نيگال) زوجها عن سبب عقمها وتلومه على ذلك، حيث أنه كان الإله الذي يمنح الأطفال للأزواج، بينما ترك زوجته عاقراً لا تنجب.

هذه الاكتشافات تؤكد على عراقة الشعب الكوردي وكونهم الروّاد الأوائل في ابتكار الزراعة والكتابة والأرقام والفن والصناعة والموسيقى وتدجين الحيوانات وإنشاء المدنية وتبرهن أنّ كوردستان هي مهد البشرية ومنبع اللغات الهندو-أوروپية.

الكساد الأخلاقي

للمعارضة والكردي الجيد

سبق لي وأن أشرت إلى أن الثورة السورية فشلت في الانتصار أخلاقياً على الجلاد، قبل أن تسقط سياسياً وعملياً أمام جيش نظامه. فما أحدثته من انقسام وما أثارته من كرنفالات الكراهية بين المكونات السورية لم يسبق للسوريين أن تعرفوا عليه في تاريخهم القريب والبعيد. إذ خلّفت وراءها صدوعاً وانهيارات أخلاقية، وعلى جميع المستويات الاجتماعية والسياسية والثقافية، يستحيل علينا تجاوزها في زمن قصير. وربما تطبع بطابعها التراجيدي الخاص الهوية السورية وتترك فيها ندوباً وجراحاً مفتوحة لأمد طويل.

د. سربست نبي

❖ أستاذ الفلسفة السياسية، جامعة كويه، كردستان العراق

إن كلّ ثورة تحتاج إلى اتساق أخلاقي معين في المبادئ، وإن انطوت على اختلافات سياسية جليّة. فالتاريخ لا يعرف ثورات محض أخلاقية، وحتى ثورات الأنبياء والرسل كانت لها هفوات أخلاقية جلية. ولم يسبق للتاريخ أن شهد ثورة للملائكة أو القديسين، هذه موجودة في الأساطير فقط. ولكن الثورة إن كانت خالية من القيم أو لا تملك ضوابط أخلاقية أو سياسية، ولا تساهم في إنتاج قيم إنسانية جديدة، وقيم حياة جديدة، وبالنتيجة بشراً من طراز جديد تستحيل إلى كارثة، وتعيد إنتاج أشدّ أشكال البؤس تخلفاً. والتاريخ يعلمنا أن جميع قوى التغيير والمعارضات في العالم التي قامت بالثورات وأحدثت تحولاً عظيماً في أوطانها وأوضاعها، إنما أنتجت، في الوقت ذاته، قيماً وطنية سامية أرقى وأكثر تقدماً، ورسخوا القيم الإيجابية القديمة، قيم الانتماء والتضامن الوطني. والحال حتى الآن، أن المعارضة السورية عجزت عن بلورة قيم وطنية جديدة تعكس انتماءاً وطنياً أسمى، على العكس من ذلك، كلما مضى الوقت أكثر تعرّت أكثر من القيم الوطنية والأخلاقية، وغاصت وتمترست وراء قيم أيديولوجية في غاية التخلّف والسلبية ورهنت إرادتها لأجندة غير وطنية.

لعل أبرز مثال على ذلك، ما تعرّض له الشعب الكردي من إهانات بالجملة واحتقار وازدراء ليس فقط من قبل عوام المرتزقة التابعين للائتلاف المعارض لدى اجتياحهم المناطق الكردية، وأفرغوا زخّات شتائمهم البذيئة ونابيّتهم، التي تنمّ عن كراهية وانحطاط تربوي في المنشأ بحق شعب بكامله. كذلك الأمر مع نخب ورموز(المعمعة) السورية،

لعل أبرز مثال على ذلك، ما تعرّض له الشعب الكردي من إهانات بالجملة واحتقار وازدراء ليس فقط من قبل عوام المرتزقة التابعين للائتلاف المعارض لدى اجتياحهم المناطق الكردية، وأفرغوا زخّات شتائمهم البذيئة ونابيّتهم، التي تنمّ عن كراهية وانحطاط تربوي في المنشأ بحق شعب بكامله. كذلك الأمر مع نخب ورموز(المعمعة) السورية، الذين لم يتوانوا بكل حقد وصفاقة في الإفصاح عن تركة الوضاعة والسوقية لديهم، التي تعكس القاع الأخلاقي العميق لثقافتهم وتربيتهم الأيديولوجية. فمن قائل بأن أصول الكرد غجر إلى أجير النظام سابقاً القائل بأنهم(بويجية) وماسحي أحذية إلى المهرّج الثورچي، الذي نفى عنهم صفة الآدمية... الخ دونكم بأحكام التكفير التي أطلقها شيوخ التكفير التابعين لعصابات الإخوان، بحق الكرد وغيرهم، التي بررت قتلهم وسبيّ نسائهم والسطو على أملاكهم ونهبها.

إن ما تعرّض له الكرد على يد أولئك(الثورچية) في زمن(الثورة) السورية من ازدراء وإسقاط أخلاقي لم يسبق أن تعرضوا له حتى في ظلّ نظامي صدام حسين أو الأسد، اللذين رغم قسوتهما وفاشيتهما القومية لم يبلغا هذا المبلغ من الضعة والسوقية. إذ رغم المجاز والقتل كان التوقير الأخلاقي للضحية لدى

الطاغيتين ربما أفضل من ابتذال ودونية ثورجية المعمعة السورية. وهذا مايعزز لديّ القناعة بأن هؤلاء الذين لم يبلغوا ذاك الحدّ من السطوة والقوة، التي كانت لدى النظامين البعثيين، لو قيّض لهم النصر وتمكّنوا لأقدموا على ما هو أسوأ وأكثر توحشاً وإجراماً منهما.

هذه المفارقة تفضي بنا إلى نتيجة واحدة على الأقل، هي أن هذه(الثورة) تقدمت منذ البداية نحو إثبات ذاتها سياسياً دون أيّ رأسمال أخلاقي رمزي مشترك، أو دون أن تتراكم لديها ميراث أخلاقي حيث وضعت نصب أعينها غاية وحيدة ورئيسة هي الاستيلاء على السلطة وإسقاط النظام القائم أيّاً كانت الوسائل المستخدمة. ويبدو لنا في نهاية المطاف أن هذه(الثورة)، التي تحوّلت إلى كرنفال للدم والخراب، لم تعد قادرة على ضمان حقوق الضحايا والمقهورين المهدورة في زمن الاستبداد، ولكنها تبدو معنية أكثر بالحفاظ على امتيازات أعوان الجلاد وعملائه الذين أمعنوا في الاستزلام له طوال تلك الفترة وانشقوا عنه في برهة غرق سفينة الاستبداد، ليصبحوا هم الأوصياء على دماء الضحايا الآن وسادة العربدة الثورية.

هلّ يمكن تفسير هذا الأمر بمجرد القول إنه سلوك فردي لا أخلاقي؟ بالتأكيد لا، فما يقبع خلف هذه الآراء والمواقف هو نمط متكامل من الخطاب السياسي والأيديولوجي وجملة من الممارسات الخطابية ومنظوم قيم ومعايير باتت راسخة، وغدت عادات أصيلة في تفكير المعارض السوري وسلوكه، المحسوب على التيارات الإخوانية والعروبية، وهي في جملتها ما يمكن أن نطلق عليها مفهوم (العقل الأخلاقي) للمعارضة السورية. إنه خطاب أزمة يعكس هزيمة العقل السياسي الحامل له منطقياً

هذه المفارقة تفضي بنا إلى نتيجة واحدة على الأقل، هي أن هذه(الثورة) تقدمت منذ البداية نحو إثبات ذاتها سياسياً دون أيّ رأسمال أخلاقي رمزي مشترك، أو دون أن تتراكم لديها ميراث أخلاقي حيث وضعت نصب أعينها غاية وحيدة ورئيسة هي الاستيلاء على السلطة وإسقاط النظام القائم أيّاً كانت الوسائل المستخدمة.

وواقعياً، فهو يبحث عن ضحية أخرى يبرر بها هزيمته، وينتقم منها كي يستعيض بها شجاعته المفقودة.

الثورجي اليوم، الذي تربى في كنف النظام، ورضع من ثدي أيديولوجيته وقيمه السياسية، وعاش تحت فضاء من الشعارات والرموز السياسية والتربوية، وكان متطبعاً ولا يزال بهذا المجال، ليس من السهل عليه التحرر منه بالسهولة ذاتها التي قفز بها من قارب النظام المنخور بين عشية وضحاها. وبالنتيجة لا نكون إزاء إنسان متحرر من سلطة الجلاد وسلوكه، وإنما مجرد ضحية مشوّهة لا يزال يثوي داخلها طاغية قزم وتافه، يحفزّها الغلّ والكراهية والرغبة في الانتقام من كل ما يقع في طريق تطلعاتها إلى ممارسة دور الجلاد.

يبرر هذا الاستنتاج إن جميع من أذاق الآخرين صنوف القهر والعذاب، من اعتقل

الناس، المخبر الذي كان يلاحق أنفاس البشر ويذيل تقاريره الكيدية عن حركاتهم، الجلاد الذي كان يفترس ضحاياه في الزنازين، المحقق، اللص وناهب المدن، المرتزق الذي كان يخرج في كل أوان ليهتف باسم القائد الخالد ويرغم الناس على الهتاف معه، الفاشي والعنصري الذي كان يطعن في هوية المختلفين معه وانتمائهم، المتعصب والمهووس بإيذاء الآخرين. كلّ هؤلاء أصبحوا في صفّ الثورة لما شعروا أن قارب النظام المنخور بات على وشك الغرق. وبعضهم أصبح ناطقاً باسمها ورمزاً لها. من عارض النظام وعارض هؤلاء ولوحق وفرّ من البلد ثائراً لحقه هؤلاء واغتصبوا ثورته، إذاً ما مبرر بقائه ضمن هذه الثورة، إذا كانت كتلة الشرّ أصبحت كلها في هذه الضفة، ألا نحتاج إلى ثورة أخرى على هذه الثورة كي تتطهر من جميع الشرور التي لحقت بها حتى أصبحت ضد مبدئها بالذات؟

فضلاً عما سبق فإن الخطاب السياسي للجماعات الإسلامية والقوموية المعارضة، قدمت على الدوام لمثل هذا الثورچي موارد نظرية يبرر بها رؤاه ومواقفه ليس من الكرد فحسب، وإنما أيضاً من جميع المكونات الهوية السورية، مثل الطوائف، العلوية، الدروز إلخ. فموقف الازدراء والاستعلاء يظل مطبوعاً وطاغياً على نظرتهم وموقفهم اتجاه الجميع. إلا أنه يتخذ في الحالة الكردية طابعاً أشد حدّة وتطرفاً، لأن الكرد يشكلون تحديّاً سياسياً وربما وجودياً في وعيهم.

هناك فجور سياسي وأخلاقي صارخ سائد في سلوك أطراف عديدة وأفرادها. انتحال مفضوح ومريب لدماء ضحايا الشعب السوري. بعضهم يطالب باحترام وتقديس بعض القضايا الوطنية وهو ذاته من يخونها سرّاً وعلانية. بعضهم يعلن صراحة تمثيله للشعب السوري، ويؤكدون على ذلك مراراً وتكراراً ويحث الشارع والآخرين على مبايعته وفي الوقت ذاته هو نفسه لا يحترم هذا الشعب وقيمه وتنوّعه، ولا يحترم الثقة التي منحه إياها الشارع. عدد من رموز الثقافة السورية والسياسيين المعارضين، ممن كنّا نعتقد فيهم السمو، كشفوا طوال عقد من الزمن عن ضيق أفق وتعصب لا يليق إلا بمتطرف يهودي مهووس بيوم السبت. فضحتهم انفعالاتهم الحقيقية ومشاعرهم المقنعة بعبارات العقلانية والتسامح الفضفاضة. روائح الكراهية الطائفية والقوموية التي لا تطاق أخذت تفوح بقوة من كلماتهم. هذه الرؤوس الساخنة في المعارضة السورية خدمت النظام أكثر من أزلامه

هناك فجور سياسي وأخلاقي صارخ سائد في سلوك أطراف عديدة وأفرادها. انتحال مفضوح ومريب لدماء ضحايا الشعب السوري. بعضهم يطالب باحترام وتقديس بعض القضايا الوطنية وهو ذاته من يخونها سرّاً وعلانية.

ومرتزقته، الرؤوس الساخنة التي تجاهلت حقائق الوضع السوري، وتعاطت معها بنفس منطق النظام. الرؤوس الساخنة، التي أرادت أن تقدّ مستقبل سوريا طبقاً لأهوائها وأوهامها الأيديولوجية، الرؤوس الساخنة، التي لم تدرك بعد أن البلاد باتت غارقة في هاوية الحرب الأهلية وهي لا تزال تتبجح وتتغطرس وتعاند. لأنها ببساطة شديدة جرّدت كل دعوى أو مطلب سياسي من أبعاده الأخلاقية. تأكيد الذات وثنياً، الوعي المشوّه بالكرامة الفردية والجماعية، ردّات الفعل المنحرفة، ازدواجية المعايير الأخلاقية وغياب الاتساق في الوجدان الجمعي، النخوة المجانية، المكابرة الفارغة ومعاندة التقدم، الضجيج الاستعراضي والزعيق الأرعن الناجمين عن غيرة زائفة، الهستيريا القطيعية المتطرفة المصحوبة بالرغبة في الانتقام، الذاكرة الانتقائية، النزعة الإيمانية المنافقة والسطحية، كلها مظاهر لأزمة العقل الأخلاقي وتناقضه، حيث تجدونها جليّة وصارخة في تظاهرات السلوك السياسي للمعارضة السورية، بخاصة تلك القابعة في استنبول وتدار من هناك بمقود المخابرات التركية.

بالطبع لا يمكن تفسير هذا الفجور الأخلاقي والصفاقة لدى هؤلاء وغيرهم، بل والسياسي كذلك، بموجب هذا الأمر فحسب. ذلك أن النخب السياسية والثقافية أيضاً تهاونت منذ البداية مع مثل هذه المواقف.

بالطبع لا يمكن تفسير هذا الفجور الأخلاقي والصفاقة لدى هؤلاء وغيرهم، بل والسياسي كذلك، بموجب هذا الأمر فحسب. ذلك أن النخب السياسية والثقافية أيضاً تهاونت منذ البداية مع مثل هذه المواقف. بل إن الكثيرين منهم تهاونوا مع الأمر وعدوّه أمراً عارضاً. مثلما أن الكثيرين ممن أسميتهم في وقت مبكر بـ(بالأكراد الجيدين) و اكتسبوا أخيراً صفة الـ(أوادم) قبلوا على أنفسهم هذا الخزي وصفقوا لمثل هذه العربدة بحق شعبهم بدونيّة ودون خجل. فالمهم بالنسبة إليهم أن يتدرجوا مع هؤلاء وينخرطوا في الفضاء السياسي والثقافي السوري ذاته. إن استجداء رضى المعارض السوري، كان أقصى ما يتطلع إليه أشباه السياسة والثقافة الكرديتين، شرط أن يتحلل من كرديته (السيئة) أو(الرديئة) التي كانت على الدوام تثير حفيظة هذا(المثقف)، فالكردي الجيد هو وحده الكوردي العقلاني المعتدل في هذه الأوقات، بنظر المعارضة العروبية والإسلامية، إنه الكردي المطيع، غير مشاكس، غير نزق، الساذج، المرن إلى أقصى حدّ. أي المساوم والناعم، الأملس والظريف في نظر المالح والبيانوني والشقفة وجميع البطانة الإسلامانية والقوميين الجدد ومعظم السوقيين من جوقة البذاءات والشتائم. إنه الكوردي المداهن، المنافق والمتملق، الذي لا يكفّ عن التهليل والإعجاب بتفاهات المثقف(السوركي)، الوضيع والمتدني أمام ترفع وغطرسة

الأخير، يعترف بسيادته ورعايته له، ويقبل لنفسه بدور التابع الدوني، ويتوائم باستمرار مع مزاعمه بالتفوق والحكمة والوصاية والسيادة. ويبدي استعداده على التعايش مع جميع مزاعمه وأوهامه الأيديولوجية عن الأمة الخالدة والهوية والمصير المشترك، وأن تستجيب مع منطقه السياسي وتتسق مع توجهاته العنصرية.

الكردي الجيد يُراد به في هذه الحالة الكردي الوديع واللطيف، وحتى الرومانسي الذي يتغنى بأمجاد العروبة، ويحلم بوطنية مصاغة على هوى الآخرين. وبالمقابل قد يضطر أحياناً إلى أن يحتقر ذاته ويتخلص من كل ما يمتّ إلى هويته وانتمائه بصلة كي يتوافق وينسجم مع غرور وغطرسة سيده المعارض. عليه الاستعداد أن يكفّر بكل انتماء له أو حق، وحتى أن يمحي ذاته ويتماه في عباءة سيده. إنه الكردي المتحرر من حالة الاحتقان الأيديولوجي الناشئ عن الشعور بالقهر، المتطهر من وباء كراهية الأوغاد العنصريين، الذين ينكرون حق البشر في الكرامة والمساواة. إنه الكردي المطلوب الآن بإلحاح شديد في جميع المناسبات والأوقات. إنه مسخ (العروبي الجيد) في نظر الأمريكيين أو الأوروبيين ونسخة كاريكاتيرية عنه. وخلاف ذلك هو الكردي العنصري المقيت، الكوردي السيء والقبيح بنظرهم، الذي يفتقر إلى الحس الإنساني بالكرامة.

الكردي الجيد يُراد به في هذه الحالة الكردي الوديع واللطيف، وحتى الرومانسي الذي يتغنى بأمجاد العروبة، ويحلم بوطنية مصاغة على هوى الآخرين. وبالمقابل قد يضطر أحياناً إلى أن يحتقر ذاته ويتخلص من كل ما يمتّ إلى هويته وانتمائه بصلة كي يتوافق وينسجم مع غرور وغطرسة سيده المعارض.

الكردي الجيّد، هو الذي يكفّر بانتمائه الكردي لتأكيد هويّة لا معنى لها ولا مبرر إلا تحت رايات البعثيين الجدد أو أشقائهم من ورثة ثقافة التكفير الصدئة. وبأخصر القول، الكوردي الجيد، المطلوب بشدة، والمرغوب فيه هذه الأيام، هو العديم الكرامة، الفاقد للجرأة والشجاعة، المعتاد المذلة و الهوان، العاجز عن أن يجد نفسه إلا عبداً و تابعاً لجلاده. وفي المحصلة بدا هذا الـ(الكردي الجيد)حتى في نظر الثورجي، مثاله الأبهى، مجرد مهرج (آدمي من الأوادم) سياسي أو ثقافي، فاقد للهيبة والجدارة.

إن عملية تسفيه الشعب الكوردي وقضيته كانت مقصودة، خدم خلالها العديد من الأفراد والأحزاب الكوردية أجندة المعارضة القوموية/ الإسلاموية، ولم تساهم في الحفاظ على وقار وهيبة شعبهم أو قضيتهم حتى صرنا نستجدي آدميتنا من(مهرج) تافه، ممثل فاشل، أو لص يعتقد أنه قادر علي رفع الكرة الأرضية برأس اصبعه إن شتم الكورد وأمعن في إهانتهم والتقليل من آدميتهم.

مشروع الدولة

الفيدرالية

في سوريا

ينقسم العالم حسب الفكر الديني إلى عالمي الخير والشر، حيث نجد ذلك راسخًا في العقائد الدينية المختلفة، ومنذ عهد الحكيم زرادشت تعرّف التاريخ البشري في منطقتنا على الصراع الأبدي بين «أهورامزد» و«أهريمان»، حيث في نهاية العالم ينتصر الأوّل ويندحر الثاني، ويسود الخير والأمان والسلام والنور على الشر والاضطراب والحرب والظلام... أما من الناحية الجمالية فالعالم ينقسم إلى«جميل» و«قبيح»، وعلى هذا الأساس يجد كل شيء مكانه اللائق به في عالم الألوان والأضواء والخطوط.

جان كورد

ومن منطق المادية والاقتصاد والسوق نجد الربح والخسارة في طرفين متعاكسين، ولكن من الناحية السياسية حيث تسعى الحكومات للاستفراد بها ينقسم العالم إلى صديق وعدو، والعدو ليس بالضرورة أن يكون عدوًا شخصيًا، بل إنه ذلك الذي يتوقّع منه أن يهاجم أو يؤذي أو يغتصب، والحروب التي حدثت ولا تزال تحدث قد أزهقت أرواح الملايين من البشر، وأذاقت أعدادًا كبيرة منهم شتى ألوان العذاب، لم تكن إلاّ نتيجة هذا التفكير التقسيمي للسياسة في العالم.

ومن أجل القضاء على هذه الشرور التي مصدرها التفكير السياسي، لجأ بعض المفكرين إلى طرح فكرة «الدولة العالمية» أو«المنظومة الكونية» التي لن تبقى فيها حدود بين الدول، وتزول بذلك قائمة التصنيف ويختفي الأعداء... ولكن هذا المشروع الذي تتضاءل فيه أهمية السياسة يبدو كحلم إنساني كبير وهدفٍ صعب المنال. وهناك من فكّر بصورة أقرب إلى الواقع العالمي، فدعا إلى تنظيم الكيانات السياسية بحيث تفقد السلطة المركزية في الدولة الواحدة الاستفراد بالسياسة واحتكارها فطالبوا بتفتيت السلطة المركزية إلى سلطات لا مركزية وإقامة الدولة على أساس فيدرالي أو بمنح أقاليم منها حق الحكم الذاتي، إضافة إلى تأهيل وتقوية منظمات المجتمع المدني حتى تمتلك أسباب القوّة وتفرض اللازم على الحكومة في مجالات اجتماعية وإنسانية عديدة، مع ربط الدول بعضها ببعض بمعاهدات دولية متشابكة، جمركية وعسكرية وثقافية واقتصادية، وإيجاد رباط أو اتحاد أو تحالف«فوق وطني» كالاتحاد الأوروبي، أشد تأثيرًا وفعالية، بحيث تتضاءل فرص اللجوء إلى استخدام القوة فيما بينها، وتزداد فرص التعاون والعمل المشترك في مختلف المجالات التي فيها المصلحة المشتركة، وبخاصة في مجال البيئة والكوارث الطبيعية ومحاولات الإقلال من أخطار سلاح الدمار الشامل وتخفيف وطأة المجاعات والأوبئة على الصعيد الدولي أو على مستوى عدة أقاليم متجاورة، وتفقد السياسة الوطنية قيمتها كسلعة تستفرد بها السلطة المركزية وتستخدمها كعصا غليظة لتحقيق مآرب فئوية على حساب الشعب أو مصالح شعب ما على حساب الشعوب الأخرى.

وتزداد فرص التعاون والعمل المشترك في مختلف المجالات التي فيها المصلحة المشتركة، وبخاصة في مجال البيئة والكوارث الطبيعية ومحاولات الإقلال من أخطار سلاح الدمار الشامل وتخفيف وطأة المجاعات والأوبئة على الصعيد الدولي أو على مستوى عدة أقاليم متجاورة..

وبقدر ما تتزايد قدرات مجتمع ما على امتلاك ناصية القرار العام تضعف أهمية «السياسة» التي تستفرد بها السلطة. ولذا قال العلاّمة الألماني كارل شميدت (١٨٨٨-١٩٨٥) في الدولة بأنها تفقد المونوبول (الاستفراد) السياسي عندما تتداخل فيها أيادي المجموعات المجتمعية،

وفي هذه الحال تقوم كل مجموعة مجتمعية بتعريف خاص بها عمن هو الصديق ومن هو العدو. ورأى هذا الخبير بشؤون السياسة التي تقوم على فكرة التقسيم (صديق أو عدو) بأن»العداوة» مكوّن أساسي أو عنصر ثابت في النفس البشرية، ولكن يمكن إعادة قولبتها أو صياغتها عن طريق تقليم أظافر السلطة الحاكمة، أيًا كانت، وعن طريق التربية ومزيد من التعاون والتنسيق وتفتيت السلطة، كما حدث ويحدث عمليًا في التاريخ البشري.

الفيدرالية كمبدأ عملي:

الفيدرالية «فيدراليزم» تأتي من الكلمة اليونانية «فيودوس»التي تعني العقد الوثيق والتحالف»العصبة» والاتفاق بين مكونات مختلفة، ومن ذلك نفهم أن فكرة الفيدرالية ليست انفصالية كما يزعم أنصار السلطة المركزية ويهاجمونها، والدولة الفيدرالية (ستيت فيدرال) أو الدولة التعاهدية (ايتات فيدرال) تقوم على أساس للحكم والاتحاد لولايات أو أقاليم أو دول تعيش مع بعضها دون انفصال أو وحدة مركزية شديدة، والفيدرالية تعود تاريخيًا إلى عهد »ائتلاف الولايات اليونانية تحت إشراف مجلس الامفكيونيين» أو ما يسمى بمجموعة الدول المؤتلفة، اتحاد أثينا وديليا، الاتحاد الإيخائي... قبل الميلاد. وفي الشرق عمل الهندوس أيضًا بفكرة الفيدرالية كاتحاد ولايات (ڤيرات)، سوبتاجانا، بينجاب)، كما تأسست الولايات المتحدة الأمريكية بعد مؤتمر فيلادلفيا عام ١٧٨٧، ومؤتمر أنابوليس ١٧٨٦ للعلاقات التجارية بين الولايات الأمريكية.

الدولة الفيدرالية تتضمّن كيانات دستورية متعددة، لكل منها نظام قانوني خاص بها واستقلال ذاتي، وتخضع كل الكيانات لدستور منظّم لمجمل البناء التشريعي والسياسي للكيانات المتحالفة ضمن الدولة الفيدرالية.

الفيدرالية «فيدراليزم» تأتي من الكلمة اليونانية «فيودوس»التي تعني العقد الوثيق والتحالف»العصبة» والاتفاق بين مكونات مختلفة، ومن ذلك نفهم أن فكرة الفيدرالية ليست انفصالية كما يزعم أنصار السلطة المركزية ويهاجمونها..

وهذا القانون الأساسي»الدستور» هو عقد سياسي بين مكونات هذه الدولة ملزم للجميع، وأحيانًا يسمى بـ»القانون الأعلى». هذا الدستور ينص على اختصاصات الهيئات الفيدرالية والإقليمية للولايات، ولا يتم تعديله إلا بموافقة ثلثي أعضاء البرلمان الاتحادي، وينص على أن النظام السياسي مركّب من حيث تعددية السلطة السياسية والمؤسسات الدستورية، وللسطة الفيدرالية صلاحيات في الأقاليم»الولايات» لا يمكن أن تعترض عليها الهيئات الإقليمية رغم تمتعها باستقلال ذاتي وتنظيم ذاتي. وبالنسبة للدستور الفيدرالي الأمريكي – مثلًا- تُعتبر تشريعات الولايات باطلة إن تعارضت مع نصوص صريحة للدستور الفيدرالي. لذا نجد الفيدرالية كمبدأ عملي لصالح وحدة البلاد وليس لانفصال أجزاء منها... والتجارب الفيدرالية الشهيرة في العالم

بأنها راسخة ومساهمة في وحدة البلاد، وليس على العكس من ذلك.

يمكن أن تنشأ دولة فيدرالية عن طريق تفكيك دولة واحدة وإعادة توحيدها على أساس فيدرالي كما في الاتحاد السوفييتي في عام ١٩٢٢، البرازيل في ١٨٩١، الأرجنتين في ١٨٦٠، المكسيك في ١٨٥٧ وتشيكوسلوفاكيا في ١٩٦٩... أو بتنازل الإمارات والولايات عن بعض سلطاتها لصالح تكوين دولة فيدرالية مشتركة كما في الولايات المتحدة الأمريكية ١٧٨٧، ألمانيا الاتحادية ١٩٤٩، سويسرا ١٨٧٤ واتحاد الإمارات العربية ١٩٧١، وكلا الأسلوبين يتضمنان عنصرين متناقضين هما (الاتحاد) و(الاستقلال الذاتي).

ربما تنشأ الدولة الفيدرالية بسبب حاجة الأقاليم إلى حلفاء وشركاء لتأمين القوة في حال الدفاع عن النفس، كما في الاتحاد الهولندي أو الاتحاد السويسري، وقد يكون في البدء بدوافع تجارية لا سياسية كما في حال اتحاد الولايات الألمانية الشمالية (هانزا شتاتن) في عهد بسمارك، أو للسببين معًا كما في حال اتحاد الإمارات العربية. وتلازم النزعة الاستقلالية والاتحادية في الدولة الفيدرالية يوفران لها الأمن والاستقرار ويساهمان رغم تناقضهما في ديمومة الدولة.

من خصائص الدولة الفيدرالية أنها تقوم على أساس فكرة الاتحاد وليس الانفصال، وهذا ما نراه جليًا في دساتير الدول الفيدرالية جميعًا، ووجود نظام المجلسين عوضًا عن المجلس المركزي الواحد، فهناك المجلس الأعلى الاتحادي ومجالس الأقاليم.

أما عن السلطة التنفيذية الفيدرالية فإنها قد تكون رئاسية يتم فيها انتخاب الرئيس من الشعب مباشرة، كما في الولايات المتحدة الأمريكية، وهو الذي يختار طاقم حكومته ومستشاريه وموظفي الدولة، ويعيّن قضاة المحكمة العليا بموافقة ومشورة المجلس الأعلى المنتخب من الشعب، أو تكون حكومة جمعية كما في سويسرا، حيث هناك ٧ أعضاء منتخبين من البرلمان الفيدرالي لمدة زمنية محددة)، أو نظامًا برلمانيًا يتولى فيه (المستشار) رئاسة الحكومة الاتحادية الذي يُنتخب من أعضاء البرلمان الاتحادي (البوندستاغ)، في حين يتّم انتخاب رئيس الدولة من قبل المجلسين معًا، البرلمان الاتحادي ومجلس الولايات (البوندسرات). وتتفاوت أساليب عمل الحكومة الاتحادية وحكومات الأقاليم في توزيع الصلاحيات والمسؤوليات من حكم مباشر أو غير مباشر أو بأسلوب مختلط، وأبرز مثال على ذلك هو وضع البوليس الفيدرالي الأمريكي»إف بي آي» حيث يتم التنسيق بينه وبين بوليس الولايات.

ربما تنشأ الدولة الفيدرالية بسبب حاجة الأقاليم إلى حلفاء وشركاء لتأمين القوة في حال الدفاع عن النفس، كما في الاتحاد الهولندي أو الاتحاد السويسري، وقد يكون في البدء بدوافع تجارية لا سياسية كما في حال اتحاد الولايات الألمانية الشمالية (هانزا شتاتن) في عهد بسمارك، أو للسببين معًا كما في حال اتحاد الإمارات العربية.

والهيئة القضائية الفيدرالية»محكمة فيدرالية عليا» هي التي تفصل في الحكم بين الحكومة المركزية وحكومات الأقاليم، وتنظر في نزاعات الأقاليم فيما بينها، كما في الهند وكندا وألمانيا وسويسرا والولايات المتحدة الأمريكية. وتكون هناك محاكم للولايات (ديستريكت كورت) ومحكمة استئناف إقليمية للولاية (كورت أوف آبيلز)، إضافة إلى المحكمة العليا (سوبريم كورت). وتتميّز الدولة الفيدرالية الهندية بأنها ذات نظام قضائي موحّد وليس ثنائي (اتحادي وإقليمي).

أما من ناحية السيادة الدولية للأقاليم والولايات والدول المنضمّة للاتحاد الفيدرالي فلا تبقى لها هذه السيادة، حيث تصبح الدولة الفيدرالية في نطاق القانون الدولي دولة واحدة وليس عدة دول، وهي وحدها صاحبة الشخصية الدولية وحاملة المسؤولية عن ولاياتها وأقاليمها، وهي المُخاطب الدولي دون ولاياتها، أما في الاتحاد السوفييتي المنفرط فقد كان للحكومات الفيدرالية ضمن الاتحاد حق إقامة العلاقات الخارجية وإبرام المعاهدات وتبادل الديبلوماسيين وفتح القنصليات والمساهمة المباشرة في المنظمات الدولية، وحسب المادة ٧٩ من دستور الاتحاد لعام ١٩٧٧ فقد تمتعت بيلوروسيا وأوكرانيا بالعضوية في الأمم المتحدة. ويكون لكل إقليم مجلس تشريعي ومجلس تنفيذي ونظام قضائي خاص به، ويتّم ذلك حسب الأصول الديموقراطية المعهودة، عن طريق انتخاب رئيس حكومة الإقليم من قبل شعب الولاية مباشرة أو من خلال انتخابه في برلمان الإقليم، أما في الهند فالمادة ١٥٥ من دستور الدولة فينص على تعيين حاكم الولاية من قبل رئيس الدولة الاتحادية.

لماذا الدولة اللا مركزية السورية؟

أما من ناحية السيادة الدولية للأقاليم والولايات والدول المنضمّة للاتحاد الفيدرالي فلا تبقى لها هذه السيادة، حيث تصبح الدولة الفيدرالية في نطاق القانون الدولي دولة واحدة وليس عدة دول، وهي وحدها صاحبة الشخصية الدولية وحاملة المسؤولية عن ولاياتها وأقاليمها..

كانت سوريا أو أجزاء واسعة منها في الإمبراطورية الرومانية متمتّعة بصلاحيات إقليمية واسعة، كما في حال مملكة زنوبيا التي كانت تنزع للاستقلال وتم القضاء عليها بسبب ذلك الطموح الكبير، وصارت سوريا في عهد الدولة الأموية صدر الدولة العربية الحديثة التي ضمت إليها بلدانًا واسعة وبعيدة ومختلفة عن بعضها من عدة وجوه، ولكن نظام الحكم الأموي كان أشبه بالنظام الفيدرالي، من حيث منح صلاحيات واسعة للولايات والأقاليم التابعة للدولة، إلاّ أن الفارق هنا يكمن في أن الدولة الفيدرالية تُبنى على أساس توافقي وطوعي، وليس عن طريق السيطرة العسكرية والقوة كما في العهدين الروماني والأموي... وبعد أن انتقلت عاصمة الخلافة الإسلامية من دمشق إلى بغداد، صارت سوريا تابعة بعد أن كانت متبوعة، ولكنها تمتّعت على الدوام بصلاحيات

إقليمية واسعة، كما في العهدين الزنكي والأيوبي، حيث كانت سوريا تابعة للخليفة في بغداد شكليًا، والسلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، الذي امتدت رقعة دولته من كردستان إلى اليمن ومصر وليبيا، لم يخرج رغم قوته وسعة مملكته من تبعية الخليفة، إلا أنه كان سيد قراره السياسي وكان هو الذي يقرر الحرب والسلام، وإدارة الدولة الأيوبية كانت في أيدي أتباعه الأيوبيين في القاهرة ودمشق، وليس في أيدي الخليفة في بغداد. وشهدت ممالك سورية كمملكة حلب مثلًا شبه استقلالية كاملة في الإدارة، وبخاصة في عهد الملكة الكردية «ضيفة خاتون» التي تولّت حكم المملكة بعد وفاة زوجها لمدة ست سنوات، وكانت تصّد هجمات المغول عن حلب من ناحية الشرق والصليبيين من ناحية الغرب في الوقت ذاته بهمة وشجاعة، دون العودة إلى المركز الأيوبي في دمشق والقاهرة أو إلى بقايا الخلافة في بغداد.

أما في عهد الاحتلال الفرنسي، فكانت سوريا تضّم دويلات متجاورة ولكنها كانت غير متناسقة أو متعاونة أو متحالفة بحلف سياسي مثبت ذي اتفاقيات ملزمة، إلاّ أن إرادة الشعب السوري في الاتحاد والقوّة وفي نيل الحرية، دفع بزعماء الطوائف والمذاهب والأديان (السُنة، العلوية، الدروز، النصارى، اليزيدية والإسماعيلية) وكذلك أبناء القوميات (العربية والكردية والآشوريين والكلدان والسريان والشركس...) إلى التقارب والتعاون والكفاح الثوري المشترك لطرد الفرنسيين وتحقيق الاستقلال الوطني. ويجدر بالذكر هنا أن الزعماء العلويين قد تقدّموا بطلب إلى السلطات الفرنسية قبيل استقلال سوريا، تطرّقوا فيه إلى مخاوفهم من سيطرة العرب السُنّة على مقاليد الحكم بعد الاستقلال، ودعوا إلى إقامة دولة خاصة بهم في منطقة جبال العلويين المتاخمة للحدود اللبنانية وفي حال تعثّر ذلك يأملون في ضم مناطقهم إلى لبنان ولا يريدون فرض البقاء ضمن الدولة السورية عليهم.

أما في عهد الاحتلال الفرنسي، فكانت سوريا تضّم دويلات متجاورة ولكنها كانت غير متناسقة أو متعاونة أو متحالفة بحلف سياسي مثبت ذي اتفاقيات ملزمة، إلاّ أن إرادة الشعب السوري في الاتحاد والقوّة وفي نيل الحرية، دفع بزعماء الطوائف والمذاهب والأديان (السُنة، العلوية، الدروز، النصارى..

ومنذ الاستقلال ترسخت فكرة الدولة المركزية ذات السلطة التامة على شؤون البلاد والعباد، وتوالت حكومات بورجوازية وطنية على الحكم لم تكن مصلحة البلاد لديها بتلك الأهمية التي كانت عليها مصالحهم الطبقية، ثم جاءت حقبة طويلة من الانقلابات العسكرية الدموية، التي أضرّت بالتوجه الديموقراطي للبلاد وبالاقتصاد الوطني على حد سواء، وتعرّضت اللحمة الوطنية إلى هزات عميقة بسبب السلوك الطائفي أو الحزبي أو الأيديولوجي لبعض الزعماء السياسيين والجنرالات العسكريين، إضافة إلى تدخلات خارجية بتأثير ظروف»الحرب

الباردة» على المنطقة برمتها.
وأثبتت الوحدة بين مصر وسوريا (١٩٥٨-١٩٦١) فشل النظام المركزي، حيث تم إدارة القطر الشمالي (سوريا) كمنطقة تابعة للقطر الجنوبي (مصر) من قبل الإدارة الناصرية التي اختارت وسائل القمع والأجهزة الأمنية والتصرّف القاسي حيال الضباط السوريين، وانتهجت نهج الإقصاء للسياسيين السوريين المطالبين بتنظيم العلاقة في الجمهورية العربية المتحدة على أساس وطني توحيدي ديموقراطي، ولقي الشعب الكوردي على أيدي جلاوذة النظام الناصري ومجرميه من أمثال عبد الحميد السرّاج شتى ألوان الإرهاب السياسي، وهو الشعب الذي قدّم تضحيات كبرى من أجل الحرية والاستقلال منذ أن خرج وزير الدفاع الكردي (يوسف العظمة) لمقاتلة الفرنسيين لدى قدومهم صوب دمشق في عام ١٩٢٠، وإلى خروج آخر جندي فرنسي من البلاد في١٧ نيسان من عام ١٩٤٦. ولا يمكن نسيان الضربة المؤلمة التي تلقاها الضباط الكرد في الجيش السوري الذي ساهموا بقوة في تأسيسه وتطويره، حيث تّم تسريح المئات منهم بقرارات تعسفية وعنصرية خلال فترة وجيزة.

ولم تتمكن البورجوازية الوطنية السورية من إعادة بناء النظام الديموقراطي الصحيح بعد حدوث الانفصال (١٩٦١-١٩٦٣)، بل تبعثرت جهودها بسبب التحارب الحزبي الضيّق الأفق، والاهتمام بالمصالح المالية والتجارية دون المصالح الوطنية الجامعة، واستمرّت في ممارسة سياسة عنصرية ضد الشعب الكردي،

ولم تتمكن البورجوازية الوطنية السورية من إعادة بناء النظام الديموقراطي الصحيح بعد حدوث الانفصال (١٩٦١-١٩٦٣)، بل تبعثرت جهودها بسبب التحارب الحزبي الضيّق الأفق، والاهتمام بالمصالح المالية والتجارية دون المصالح الوطنية الجامعة، واستمرّت في ممارسة سياسة عنصرية ضد الشعب الكردي، حيث يعود قانون الإحصاء الاستثنائي الذي طبّق على الكرد دون سواهم في مناطق الجزيرة إلى عام ١٩٦٢ حيث كان الانفصاليون لا يزالون في الحكم... ويجدر بالذكر أن الدراسة العنصرية للمقبور محمد طلب هلال (ضابط أمن سياسي) بصدد محافظة الجزيرة والحسكة ومشروعه لتهجير الكرد ومحو وجودهم القومي بأسلوب رهيب قد كُتبت في ذلك العهد، مما زاد في اتساع الشرخ بين الكرد والحكومة المركزية التي لم يهمل الدستور السوري وجودهم القومي كمكوّن اثني أساسي إلى جانب العرب وسواهم فحسب، وإنما تعرّض لتمييز قومي صارخ منذ قيام السوريين بخطواتهم الأولى في عالم الحرية والديموقراطية بعد الاستقلال.
هذه السياسة الفاشلة للأحزاب الانفصالية هي التي مهدت الطريق لأن يستولي على الحكم في سوريا حزب عنصري متزمت أيديولوجيًا ومتأثر عميقًا بأفكار النازية الألمانية والفاشية الإيطالية، بل هو وليد عقائدهما الفاسدة، ألا وهو حزب البعث العربي الاشتراكي، وذلك عن طريق انقلاب

عسكري دموي في ٨ آذار عام ١٩٦٣، ودعم ذلك وصول البعث إلى حكم العراق أيضًا، وهما بلدان متجاوران، لهما ذات الطموحات والمصالح والأهداف، ولهما المشاكل الاقتصادية والسياسية المتشابهة.
تفنن حزب البعث الذي يحمل شعار (الوحدة والحرية والاشتراكية) في ابتكار وسائل القمع الرهيب ضد الأحزاب الديموقراطية والشخصيات الوطنية السورية الرافضة لنظام وفكرة «الحزب القائد» وحارب بشكل فظيع الإسلاميين والشيوعيين والناصريين والمنافسين الاشتراكيين في الوقت ذاته، ولكن أشد الطغيان والظلم أصاب القومية الكردية واليهود السوريين، وهذا لا يستطيع أحد إنكاره، بل إنه أرسل قوات عسكرية (قوات اليرموك) بقيادة العقيد فهد الشاعر (درزي) للمساهمة في حرب النظام المركزي العراقي ضد الثورة الكردية التي كان يقودها الملا مصطفى البارزاني منذ عام ١٩٦١، وكانت الأوامر صريحة وواضحة «اقتلوا الكرد وارهبوهم»، فالكرد حسب نظر البعثيين عاملون على إنشاء «إسرائيل ثانية» وانتزاع أراضٍ«عربية» من العراق وسوريا. وكان الهدفُ من تكليف ضابط درزي بالهجوم على الكرد هو ضرب المكونات السورية بعضها ببعض... وتاريخ البشرية يثبت أن الكرد يعيشون على أرض وطنهم التاريخي من قبل أن يفد العرب من اليمن والحجاز حيث موطنهم الأصلي إلى كوردستان، فزاد البعث بذلك في تعميق الشرخ بين الشعب الكردي ونظامهم العنصري حتى العظم.
ويجدر بالذكر أن ممارساتهم العنصرية هذه نالت الدروز أيضًا، حيث تّم تغيير اسم «جبل الدروز» إلى «جبل العرب»، ولم يقم وهو الحزب الثوري الاشتراكي برفع الغبن عن المواطنين العلويين الذين كانوا يعيشون في ظروف اقتصادية سيئة منذ عقودٍ طويلة من الزمن ويعانون من إقصاءٍ سياسي ـ ثقافي وتمييز ديني باستمرار، وغرقوا في بحر من الأمواج المتلاطمة من انقلابات عسكرية على بعضهم بعضًا (١٢ نقلاب فاشل) تحمّل السوريون نتائجها الوخيمة سياسيًا واقتصاديًا وانعكس ذلك سلبيًا على وحدتهم الوطنية اجتماعيًا، وهذا ما أفسح المجال أمام الضباط العلويين للقيام بانقلاب ناجح، تمكنوا بعده مباشرة من قلب الموازيين وإعادة نسج الخريطة السياسية للبلاد السورية، ووضع الشروط التي يرغبون بها لإعادة ترميم البيت السوري. ثم قام الجنرال حافظ الأسد (قائد سلاح الجو، ثم وزير الدفاع) بالانقلاب على رفاقه الحزبيين من سنة وعلوية، فأسس منذ عام ١٩٧٠ ما أطلق عليه اسم«الحركة التصحيحية»، إلاّ أن النظام تحوّل من

ويجدر بالذكر أن ممارساتهم العنصرية هذه نالت الدروز أيضًا، حيث تّم تغيير اسم «جبل الدروز» إلى «جبل العرب»، ولم يقم وهو الحزب الثوري الاشتراكي برفع الغبن عن المواطنين العلويين الذين كانوا يعيشون في ظروف اقتصادية سيئة منذ عقودٍ طويلة من الزمن ويعانون من إقصاءٍ سياسي ـ ثقافي وتمييز ديني باستمرار،

جراء ذلك إلى حكم العائلة ـ الطائفة، فتم تصفية المعارضين في الحزب «القائد» وفي الجيش، وأسس لدولة المخابرات أي «الدولة السرّية» التي صار مركز قرارها السياسي ليس العاصمة دمشق وإنما قرية «قرداحة: سابقًا كرد داغه» موطن الرئيس الأسد، ولم تعد سوريا كما كانت عليه قبل انقلابه الأبيض، بل صارت مزرعة للنهب والسلب من قبل العائلة والأقارب وبعض ضباط الطائفة ومن والاهم من أبناء الطوائف الأخرى وتأليه «القائد إلى الأبد» والحكم المطلق للأجهزة الأمنية، ولم يكن تشكيل ما يسمى بـ«الجبهة الوطنية التقدمية» من البعثيين والاشتراكيين وغلاة القوميين العرب والشيوعيين، إلاّ تقليدًا للطغاة الشيوعيين في أوروبا الشرقية الذين انتهجوا ذات السلوك للسيطرة على ال معارضة.

لقد بدأ عهد جديد منذ عام ١٩٧٠ يتسم بإثارة المزيد من الحقد والكراهية بين مكونات الشعب السوري، وانتهاج سياسة «فرّق تسد»، والضرب على أوتار العروبة المثالية و«تحرير فلسطين» ودعم «المقاومة»، وفي الحقيقة فإن النظام السوري لم يكن جادًا في أي مشروع بدليل أنه لم يحقق شيئًا من أهدافه المعلنة وهو يحكم البلاد منذ عقودٍ طويلة، لا في الوحدة العربية ولا في حرية الشعوب العربية ولا في تطبيق الاشتراكية، ولكن النظام استفاد في تثبيت دعائمه على الدعم الكبير من قبل المنظومة الشيوعية له، واعتباره عنصر«أمن واستقرار» في المنطقة من قبل العالم الحر الديموقراطي آنذاك.

شنّ النظام الأسدي الحرب على الإسلاميين منذ عام ١٩٧٧ واشتد أوار الصراع بين الطرفين (١٩٨٠-١٩٨٢) إلى درجة ارتكاب النظام لمجازر وحشية للمواطنين المدنيين، ومن أبرزها مجزرتا مدينة حماه وسجن تدمر العسكري. وهذا ما دق إسفينًا بينه وبين المكوّن السُني السوري بشكل قوي. أما سياسته حيال الشعب الكردي فقد تميّزت بتطبيقه لمشروع «الحزام العربي» بجلب العشائر العربية من منطقة حوض الفرات وتوطينها في أكثر من ٤٠ مزرعة من«مزارع دولة» بهدف تغيير التركيب الديموغرافي للمناطق الكردية على امتداد الحدود التركية ـ العراقية السورية بعمق ١٥ كم وطول يزيد عن ٣٠٠ كم، وذلك لفصل كرد سوريا عن أشقائهم في العراق وتركيا، كما استمر في نهج منع الثقافة الكردية وسلوك عنصري إقصائي إزاء الكرد في مختلف مناحي الحياة السياسية للبلاد.

ولهذا، فإن مساهمات النظام القائم بنفسه في تعميق الشرخ بين مكونات البلاد الاثنية والدينية هي التي أوصلت سوريا إلى هذا اليوم الذي نرى فيه احتقانًا صارخًا،

لقد بدأ عهد جديد منذ عام ١٩٧٠ يتسم بإثارة المزيد من الحقد والكراهية بين مكونات الشعب السوري، وانتهاج سياسة «فرّق تسد»، والضرب على أوتار العروبة المثالية و«تحرير فلسطين» ودعم «المقاومة»، وفي الحقيقة فإن النظام السوري لم يكن جادًا في أي مشروع بدليل أنه لم يحقق شيئًا من أهدافه المعلنة وهو يحكم البلاد منذ عقودٍ طويلة،

كما أن السوريين السُنة لن يقبلوا بأي شكل من الأشكال أن ينفذ المجرمون الذين آذوهم وأقصوهم عن الحكم طوال عقودٍ من الزمن وأهدروا دماءهم وسلبوهم أموالهم دون عقاب، وسيعملون على فرض قوتهم من خلال تمتعهم بـ«الأكثرية السكانية» حسب قناعتهم... لذا لا بد من طرح مشروع وطني بديل للانفراط والانفكاك،

وتجاذبات قوية، قد تؤدي في ظل السياسات الحمقاء للأسد النجل وطاقمه الحاكم من الحرس القديم لأبيه إلى ضربة قاصمة للوحدة الوطنية السورية، والحديث المستمر لبعض المعارضين الكبار في أكبر التجمعات السياسية المعارضة في البلاد، عن إحداث النظام لفتنة «طائفية» بهدف تقسيم البلاد في حال عدم قدرته على سحق الاحتجاجات والمظاهرات الداعية لإسقاطه ولإقامة نظام ديموقراطي حر، حديث جاد ويجب عدم إهماله، أو الاستخفاف به. فسوريا بعد طول الحقبة الأسدية منذ عام ١٩٧٠ وإلى الآن ودوام اللعب على وتر«الطائفة» لن تعود إلى سابق عهدها، وعلينا تفهّم مخاوف أبناء وبنات الطائفة العلوية التي تدرك مخاطر انزلاق النظام إلى هذه الأوضاع، فهذه الطائفة لن تسمح لأحد بأن يعاقبها بسبب طغيان أو انحراف بعض منتسبيها الذين يستغلّون اسمها لتثبيت سلطانهم، وبخاصة بعد الغلو في الإرهاب السياسي والاستخدام المفرط للقوة من قبل النظام الأسدي ضد المواطنين، حيث تتصاعد نعرات «الانتقام» لدى بعض الذين ما عادوا يتحمّلون رؤية المناظر العدوانية الرهيبة التي تبثها الأقنية التلفزيونية عما يحدث في الشارع السوري، وسيسعى العلويون نتيجة المخاوف من المستقبل والقلق النفسي إلى مزيد من التماسك والمطالبة مثلما يطالب الكرد الذين أعياهم سوء الإدارة تجاههم وعدم الاعتراف بهم كقومية متميّزة، بأن يتوّلوا بأنفسهم إدارة مناطقهم، أو حتى الانفصال عن سوريا وبناء دويلة علوية صغيرة في غرب البلاد، وهذا سيشجّع الدروز أيضًا في جنوب البلاد وفي هضبة الجولان ولبنان وإسرائيل على طرح مطالب شبيهة عندما تضعف الدولة السورية في مركزها السياسي. كما أن السوريين السُنة لن يقبلوا بأي شكل من الأشكال أن ينفذ المجرمون الذين آذوهم وأقصوهم عن الحكم طوال عقودٍ من الزمن وأهدروا دماءهم وسلبوهم أموالهم دون عقاب، وسيعملون على فرض قوتهم من خلال تمتّعهم بـ«الأكثرية السكانية» حسب قناعتهم... لذا لا بد من طرح مشروع وطني بديل للانفراط والانفكاك، ويختلف تمامًا عن الدولة المركزية والسلطة الأحادية التي ضربت الوحدة الوطنية بقمعها الطائفي والحزبي واستخدامها المفرط للقوة تجاه مكونات البلاد الاثنية والدينية.

– مشروع الفيدرالية السورية:

قبل كل شيء يجب أن يكون لسوريا دستور جديد، يضمن احترام اختلاف عقائد الشعب السوري وحقوق الإنسان، بغض النظر عن اللون والجنس والدين واللغة والمركز

حيث أن العدالة أساس كل حكم صالح، يمكن أن يكون هناك اتفاق وطني على الحفاظ على وحدة البناء القضائي للبلاد، وصون السلطة القضائية دستوريًا، وإنشاء محكمة دستورية عليا، وبالمقابل إفساح المجال أمام قيام محاكم إقليمية في الولايات (الأقاليم) تخضع من حيث هرميتها للنظام القضائي العام في البلاد.

الاجتماعي، أي أن يكون حضاريًا بكل معنى الكلمة، أسسه العدل والمساواة بين الجميع، أفرادًا وجماعات، بعيدًا عن العصبية الحزبية أو القبلية أو الدينية.... وهذا الأساس ضرورة للتقارب والتضامن والشعور بالانتماء للوطن الواحد المشترك. كما يجب أن يصون الحق في اللا مركزية وقيام نظام اتحادي على أسس واضحة وراسخة دستوريًا.

النقطة الأساسية الأخرى في هذا المجال هي تحييد الجيش وقوى الأمن الداخلي دستوريًا، وإسناد وظائفهما حسب اختصاصهما لها، وإيجاد المناخ القانوني الملائم لإعادة بناء وتنظيم قوى الدفاع عن الوطن والمواطن، وإخضاعهما بشكل تام لمؤسسات الحكومة، وعدم استخدامهما كقوة قمع سلطوية ضد الشعب السوري.

حيث أن العدالة أساس كل حكم صالح، يمكن أن يكون هناك اتفاق وطني على الحفاظ على وحدة البناء القضائي للبلاد، وصون السلطة القضائية دستوريًا، وإنشاء محكمة دستورية عليا، وبالمقابل إفساح المجال أمام قيام محاكم إقليمية في الولايات (الأقاليم) تخضع من حيث هرميتها للنظام القضائي العام في البلاد. وبهذا الشكل يتم منح (الاستقلال القضائي الذاتي) للولايات مع ارتباطها المسلكي مع القضاء الاتحادي الفيدرالي، دون إفراط أو تفريط.

لا يمكن الخلاص من نتائج المرحلة القمعية الحالية، دون التخلّص من شرور «الدولة السرية» ووضع حدٍ للذين أزهقوا أرواح المواطنين وانتهكوا الحرمات ومارسوا التعذيب النفسي والجسدي ونهبوا الأموال العامة والخاصة، وهذا يعني إعادة النظر في مجمل مسيرة التاريخية الخاطئة لحزب البعث العربي الاشتراكي والنظام الأسدي، على قاعدة منح كل ذي حق حقه، ومحاسبة المسؤولين قضائيًا أو في محاكم دولية عن التراكم الإجرامي تاريخيًا.

في حين تتألف الولايات المتحدة الأمريكية من (٥٢)، وجمهورية ألمانيا الاتحادية من (١٦) ولاية اتحادية، فإن سويسرا تتألف من (٣) ولايات (مقاطعات اتحادية) فقط، والعراق الحالي من فيدرالية واحدة هي الفيدرالية الكردية في جسم الدولة العراقية، وعليه يمكن تقسيم سوريا إداريًا إلى أربع مقاطعات (أقاليم، ولايات) اتحادية:

– مقاطعة الوسط، وتضم سائر المناطق السنيّة في وسط سوريا وشرقها بشكل خاص

– مقاطعة علوية وتضم مناطق الطائفة العلوية الأساسية في غرب البلاد، والتي منها منطقة جبال العلويين.

– مقاطعة كردية (قومية) تضم المناطق الشمالية من سوريا، الجزيرة وكوباني (عين العرب) وجبل الأكراد (كورداغ)، حيث الأغلبية السكانية الكردية (وهم في أغلبهم سُنة وجزء منهم أيزيديون مع تواجد قرية علوية واحدة بينهم في منطقة جبل الأكراد غرب حلب). وبتصفية مزارع الدولة ومشروع «الحزام العربي» وكل مشاريع التغيير الديموغرافي الهادفة لإنهاء الوجود القومي الكردي، ويجدر بالقول إن هذه المناطق الشمالية من سوريا قبل الاحتلال التركي كانت تضم أغلبية ساحقة من الكرد وأقلية مسيحية من (سريان ـ كلدان ، وآشوريين).

– مقاطعة درزية في جنوب سوريا، حيث المناطق المتاخمة لإسرائيل (هضبة الجولان) ومناطق قريبة من الحدود اللبنانية.

ولكن مع ذلك تبقى هنالك أقليات قومية أو دينية وأبرزها الأقلية الدينية الأيزيدية في سائر المقاطعات يجب ضمان حقوقها العقيدية أو القومية بشكل راسخ في القانون الأساسي (الدستور الاتحادي السوري)، وفي دساتير الولايات أو الأقاليم (المقاطعات) بصورة دقيقة.

ولكن مع ذلك تبقى هنالك أقليات قومية أو دينية وأبرزها الأقلية الدينية الأيزيدية في سائر المقاطعات يجب ضمان حقوقها العقيدية أو القومية بشكل راسخ في القانون الأساسي (الدستور الاتحادي السوري)، وفي دساتير الولايات أو الأقاليم (المقاطعات) بصورة دقيقة.

وقد يتساءل البعض عن جدوى هذا التقسيم، ولذلك من الضروري تذكيرهم بأن هناك مدن ألمانية مثل (برلين وهامبورغ) تتمتّع بحقها الفيدرالي في الاستقلال الذاتي، لها برلمانات ودساتير وحكومات وميزانيات، وهذا ما يقوّي من الدولة الألمانية التي استفادت استفادة قصوى من تاريخها، ولا تسمح لأن يعود إلى الحكم نظام شبيه بالنازية الهتلرية التي استغلّت نظام الدولة الممركزة لتتحول إلى غول سفاح ضد البشرية.... ولا يقل البعث في طغيانه وفساده وإرهابه ضد الشعوب السورية إجرامًا عن النازية أو الفاشية، ونستطيع إثبات ذلك بالوقائع والبيانات والإثباتات الدقيقة.

وإننا إذ نؤكّد على ضرورة تعميق الوحدة الوطنية للبلاد السورية مع ضمان الحقوق الإنسانية وترسيخ مبادىء العدل والإحسان والمساواة بين المواطنين، ننزع بمشروعنا هذا فتيل الفتن الطائفية والنزعات العنصرية ونسد الطريق على التطرّف العقيدي أو القومي وكذلك نمنع وصول تيارات حزبية مجرمة بحق الشعب السوري أو قيام الطائشين بانقلابات عسكرية دموية على الشرعية الدستورية والحياة المشتركة في اتحادٍ طوعي متين.

لنعمل من أجل سوريا فيدرالية حضارية متحدة

جمعية الطلبة الكرد

في أوروبا

يعود تاريخ تشكيل أول رابطة طلابية كردية على الساحة الأوربية إلى الشهر الأول من عام (١٩٤٩). وقد كان الدافع الأساسي وراء ولادة فكرة تشكيلها، كما يقول د. نور الدين زازا في مذكراته هو وقوع الطالب الكردي عبد الله قادر، من كرد مدينة السليمانية بجنوب كردستان،

علي جعفر

الذي قصد سويسرا عام (١٩٣٩) بهدف إكمال دراسته فيها، في جامعة لوزان السويسرية، في ضائقة مالية نتيجة إلغاء الحكومة العراقية المنحة الدراسية عنه، بسبب اندلاع الحرب العالمية الثانية، فلم يتمكن من إكمال دراسته وكان عليه العودة إلى العراق بناء على طلب الحكومة العراقية بوجوب عودة كل الطلاب العراقيين إلى بلادهم، إلا أنه رفض العودة، فقطعت الحكومة العراقية المساعدات عنه، بحيث لم يعد بإمكانه إكمال دراسته الجامعية، فتكفل الطلبة الكرد الآخرون المتواجدون هناك بتقديم يد المساعدة له. وعليه يقول د. زازا: «... راودت ذهني حينذاك فكرة فحواها تنظيم وجمع كل الطلبة الكرد في أوربا داخل اتحاد، وفي أحد أيام كانون الثاني من عام (١٩٤٩) قرر طلاب سويسرا الستة من الكرد المجتمعين في لوزان تأسيس رابطة الطلبة الكرد في أوربا، ودعوا كل زملائهم المتواجدين في هذه الساحة بالانتماء اليها... واختارني المؤتمر التأسيسي في لوزان رئيساً للرابطة...». كما تقرر في هذا المؤتمر إصدار صحيفة شهرية تحت اسم: (Dengê Kurdistan) أي (صوت كردستان)، باللغات الفرنسية والكردية والإنيليزية، يرأس تحريرها نور الدين زازا.

أما الدافع الآخر والذي لم يكن أقل أهمية من الأول، الذي دفع نور الدين زازا - صاحب الفكرة - لتشكيل الرابطة هو شعوره بحاجة الكرد الماسة لوجود رابطة تكون بمثابة بيت للكرد المتواجدين في أوربا والوافدين لاحقاً، وكانت غالبيتهم العظمى حينها طلاباً وذلك للتعارف فيما بينهم وتمتين أواصر العلاقات والروابط القومية،

أما الدافع الآخر والذي لم يكن أقل أهمية من الأول، الذي دفع نور الدين زازا – صاحب الفكرة – لتشكيل الرابطة هو شعوره بحاجة الكرد الماسة لوجود رابطة تكون بمثابة بيت للكرد المتواجدين في أوربا والوافدين لاحقاً، وكانت غالبيتهم العظمى حينها طلاباً وذلك للتعارف فيما بينهم وتمتين أواصر العلاقات والروابط القومية، وتقديم يد المعونة والمساعدة لمن يحتاج. ولكي تكون الرابطة بمثابة الجسر الواصل بين الكرد والعالم الخارجي، وخاصة الأوربي، ومصدراً للمعلومات والأخبار المتعلقة بأوضاع هذا الشعب. أي ممثلية دبلوماسية كردية تكون بمثابة سفارة كردستان على الساحة الأوربية. فتنقل إليهم واقع الشعب الكردي في أجزاء كوردستان الأربعة وما يتعرض له من ظلم واضطهاد قومي وتطبيق مشاريع عنصرية وشوفينية تستهدف إبادته وصهره في بوتقة القوميات العربية والفارسية والتركية والقضاء على كيانه القومي. خاصة إذا علمنا أنّ عدد الكرد المتواجدين على الساحة الأوربية حتى منتصف القرن الماضي يكاد لم يتجاوز بضعة عشرات. وأن الرأي العام الأوربي في غالبيته الساحقة كان لا يعرف شيئاً عن هذا الشعب، ناهيك عن الكثيرين الذين لم يسمعوا به أصلاً. وذلك نتيجة وجود محورين على المسرح الدولي. محور الدول الاشتراكية الذي كان يتزعمه الاتحاد السوفيتي السابق. ومحور الدول الغربية

إلا أن د. نور الدين زازا لا يذكر أسماء الخمسة الآخرين الذين كانوا - بالإضافة إليه - نواة تشكيل الرابطة ومؤسسيها. كل ما يذكره في مذكراته؛ هو أن واحداً منهم من كورد جنوب كوردستان وآخرين من شرقي كوردستان، من دون أن يذكرهم بالاسم. ولا ندري ما إذا كان ذلك ناتجاً عن قلة العدد وعدم استعداد أحد منهم للتحرك والنشاط.

برئاسة أمريكا. حيث كانت حرب باردة تدور بين هذين المحورين، كان الخاسر الأكبر في حروبهما الشعوب الضعيفة، أوالمغلوبة على أمرها، ومنها الشعب الكردي. وبحكم تجزئة هذا الشعب ووطنه كوردستان بين أربع دول، فقد كانت خسارته أمرّ وأشد. إذ بحجة أن قوانين الأمم المتحدة لا تجيز التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأعضاء، كان يتم السكوت عن جرائم حروب الإبادة الجماعية الفظيعة التي كانت ترتكب ضد الكرد، لأنها – حسب قولهم – مسألة داخلية. فهم في سوريا مواطنون عرب، وفي العراق يعترف بوجودهم لكن دون منحهم حقوقهم القومية، وفي تركيا هم أتراك الجبال وفي إيران فرع من الفرس. وهنا يجب الإشادة بدور د. كامران بدرخان، سليل الأسرة البدرخانية المعروفة، الذي كان يقيم في باريس، والذي شجع هؤلاء الطلبة لتشكيل الرابطة وقدم لهم النصح والدعم، وتأمين بعض المنح الدراسية في فرنسا. وقد ورد في بعض الوثائق المتعلقة بالجمعية أن د. كامران هو الآخر كان عضواً فيها، لكننا لم نتمكن من تثبيت ذلك، مع التذكير هنا بأن د. كامران شارك في بعض مؤتمرات الجمعية بصفة ضيف، وليس كعضو.

إلا أن د. نور الدين زازا لا يذكر أسماء الخمسة الآخرين الذين كانوا – بالإضافة إليه – نواة تشكيل الرابطة ومؤسسيها. كل ما يذكره في مذكراته؛ هو أن واحداً منهم من كورد جنوب كوردستان وآخرين من شرقي كوردستان، من دون أن يذكرهم بالاسم. ولا ندري ما إذا كان ذلك ناتجاً عن قلة العدد وعدم استعداد أحد منهم للتحرك والنشاط، أم أنه كان ناتجاً عن تقديم الأنا على الروح الجماعية المؤسساتية عند هذه الشخصية الثقافية والسياسية الكردية الكبيرة، لأنها تتكرر في أمكنة أخرى من كتاباته.

وقد جاء في بحث للدكتور كمال فؤاد منشور في مجلة (هاڤيبون) العدد المزدوج (٢ – ٣) عام ١٩٩٨) التي كانت تصدر في برلين بألمانيا ما يلي: « ... في تلك السنة (أي عام ١٩٤٩) دارت في ذهن بعض الطلبة الوطنيين الكرد الذين كانوا يدرسون في أوربا، منهم نور الدين زازا، عصمت شريف وانلي، شوكت عقراوي، عبد الله قادر .... أن يؤسسوا تنظيماً للطلبة الكرد في أوربا. لكي يتمكن هؤلاء كباقي طلبة الشعوب الأخرى من أن يعرِّفوا طلبة العالم بواقع شعبهم ووطنهم ....».

أما د. حسن شتوي فقد كتب في كتابه الموسوم: (مصيرعائلة قاسملو) بهذا الصدد ما يلي: «... يقوم بعض من الطلبة الكرد في سويسرا بالاجتماع في لوزان ليؤسسوا بمعاونة كامران بدرخان ونور الدين زازا وأحمد قاسملو ورحمن قاسملو بتأسيس اتحاد طلبة الكرد في أوربا ....».

و قد سألت زوجة د. زازا الصحفية السويسرية جيلبرت ڤافر زازا عن أسماء المؤسسين فأفادتني بأن من بين المؤسسين الستة كان هناك شخصان من كورد شرق كوردستان، و كانا عضوين في الحزب الشيوعي الإيراني (توده) وأنها تعتقد أن أحدهم هو عبد الرحمن قاسملو الذي اغتالته المخابرات الإيرانية في ڤيينا بتاريخ (١٣ تموز ١٩٨٩). وقد حاولت واستفسرت من أكثر من جهة، خاصة من كرد شرق كردستان، فتبين لي أنه في تلك الأيام كان كل من عبد الرحمن قاسملو وشقيقه أحمد في باريس، وكانا عضوين في حزب توده. ولم يكن أحد غيرهما في ذلك التاريخ من كرد شرق كوردستان في باريس، ويدل هذا على أنّه من شبه المؤكد أنّ المؤسسين الآخرين هما الأخوان؛ عبد الرحمن وأحمد قاسملو.

بعد الإعلان عن الجمعية بأشهر قلائل تلقت دعوة رسمية من القائمين على تنظيم وإقامة المهرجان الثاني لاتحاد الطلبة والشبيبة الديمقراطي العالمي، الذي أقيم في العاصمة الهنگارية بودابست في النصف الثاني من شهر أب / أغسطس عام (١٩٤٩) للمشاركة فيه.

وهكذا يصبح المؤسسون الستة كالآتي: نور الدين زازا شمال ثم غرب كردستان، عصمت شريف وانلي غرب كردستان، شوكت عقراوي وعبد الله قادر من جنوب كردستان، أحمد قاسملو، وشقيقه عبد الرحمن من شرق كردستان.

بعد الإعلان عن الجمعية بأشهر قلائل تلقت دعوة رسمية من القائمين على تنظيم وإقامة المهرجان الثاني لاتحاد الطلبة والشبيبة الديمقراطي العالمي، الذي أقيم في العاصمة الهنگارية بودابست في النصف الثاني من شهر أب / أغسطس عام (١٩٤٩) للمشاركة فيه. فاعتبرتها الجمعية فرصة سانحة قلما يتوفر مثلها لطرح قضية الشعب الكردي أمام الوفود الطلابية العالمية والحصول على تعاطفهم وتأييدهم. وعليه لم تترد الجمعية في تلبية الدعوة، فبعثت بوفد تألف من: نور الدين زازا وشوكت عقراوي وعبد الله قادر وعصمت شريف وانلي للاشتراك في هذه التظاهرة الطلابية العالمية، ولكن ما أن علمت وفود الأحزاب الشيوعية للدول الغاصبة لكردستان بوجود وفد جمعية الطلبة الكرد في أوربا حتى قدّموا للقائمين على تنظيم المهرجان الاحتجاج وراء الآخر على مشاركتهم، وحاولوا منعهم وإخراجهم من قاعات المهرجان. وفي هذا الخصوص يكتب د. زاز في الصفحة ١٠٢ من مذكراته:

« ...... و الحزب الذي كُلف بهذه المهمة هو الحزب الشيوعي الإيراني (توده)، حتى أن رفاقنا في باريس الذين كانوا أعضاء في توده، أصبحوا أدوات لذلك، .... ». بدعوى وحجج من قبيل؛ إن وجود جمعية كهذه يتناقض مع وحدة الطلبة والشبيبة، وكذلك الطبقة العاملة، وأممية الأحزاب الشيوعية في هذه البلدان، و......... وعليه يجب منع هؤلاء من

شكل حضور الرابطة في هذه التظاهرة الطلابية العالمية إنجازاً كبيراً وخطوة هامة باتجاه تنوير الرأي العام الأوربي بقضية الكرد وكردستان، لكن الأنظمة الغاصبة لكوردستان وأحزابها الشيوعية انزعجت أيّما انزعاج من مشاركة الرابطة، واستمرت في محاربتها، وهذه المرة من الداخل أيضاً.

المشاركة، وحل جمعيتهم.

ولكن أمام إصرار وفد الجمعية وتعاطف وفود بعض الأحزاب اليسارية لأمريكا اللاتينية ورئيس اتحاد الشبيبة الفرنسي غي بوانسون (كان رئيس اتحاد الشبيبة العالمي) الذي كان تواقاً لمعرفة هذا الشعب حيث كان يجهل كل شيء عن الكرد كما يقول زازا، فقد بقي وفد الجمعية مشاركاً، لكنه أُجْبِر على التحدث باسم الكرد وليس باسم كردستان.

وفي هذا الصدد يقول د. زازا: «... قاموا (أي وفود الدول الغاصبة لكردستان والأحزاب الشيوعية التابعة لها) بترتيب الأمور بحيث نبقى مهملين ونكون غائبين عن هذه التظاهرة ،ولكنني نجحت في فرض حضور الكرد من خلال ارتدائي الزي الشعبي الكردي، و تمكنا مع العديد من الزملاء من إثارة فضول المصورين الصحافيين، ولم تقتصر أنشطتنا على الجانب الفولكلوري فحسب، ألقيت في اليوم المخصص لمناهضة الاستعمار وأمام جمهور يناهز عدده خمسة آلاف شخص قصيدة كنت كتبتها عن مصطفى البارزاني نُشرت في اليوم التالي في الصحافة المجرية. وقد نشب جدال عنيف بيننا وبين بعض المنظمات اليسارية التي اعتبرتني بعد حين كشخص منبوذ وكعميل مخرب ومع ذلك تمكنّا بفضل الأحزاب اليسارية لأمريكا اللاتينية من المشاركة في المؤتمر، وقد حاول ممثل وفد الحزب الشيوعي السوري منعي من تقديم تقريري، ولكنني أصررت بالرغم من التنازل الذي فرضته علينا تنظيمات الشرق الأوسط بوجوب التعبير باسم الكرد...».

شكل حضور الرابطة في هذه التظاهرة الطلابية العالمية إنجازاً كبيراً وخطوة هامة باتجاه تنوير الرأي العام الأوربي بقضية الكرد وكردستان، لكن الأنظمة الغاصبة لكوردستان وأحزابها الشيوعية انزعجت أيّما انزعاج من مشاركة الرابطة، واستمرت في محاربتها، وهذه المرة من الداخل أيضاً. فقد تم تكليف توده الإيراني بهذه المهمة غير الشريفة، لكون عضوين في الرابطة ينتميان إليه هما أحمد وشقيقه عبد الرحمن قاسملو. وبدأ الأخوان المذكوران يتقاعسان عن أداء المهام الموكلة إليهما من قبل الجمعية حسب التعليمات التي تأتيهم من قيادة توده، خاصة عبد الرحمن قاسملو المكلف بطبع و توزيع (Dengê Kurdistan)، وبخلق الأعذار، وتكرار ما يتلقّون من قيادتهم؛ من قبيل « إن الحديث عن كردستان، عن القومية الكردية، عن ماضيها وحاضرها وحقوقها ليس إلا تعبيراً عن الشوفينية الكردية، و ... « .

من أجل دراسة هذا المقترح ومصير الجمعية، فقد دعوا إلى اجتماع موسع وتم تقديم

مقترح بحل الجمعية، إلا أنه لم ينل الأغلبية عند التصويت، حيث كان أغلب الحضور مع استمرار عملها ونشاطها.

كان نور الدين زازا من المطالبين بحل الجمعية لظهور آراء متباينة ومختلفة بين أعضائها، حيث اتجهت العلاقات بينهم نحو التأزم من جهة، ومن جهة أخرى تراجع عبد الرحمن قاسملو عن طبع (Dengê Kurdistan) ومن ثم انسحابه كلياً من العمل فيها. ولأسباب ذاتية متعلقة بشخصه، منها عدم قدرته كتابة وتحرير المقالات وطبع الصحيفة، وهي بعيدة عن مكان إقامته بمئات الكيلومترات، ورغبته في إتمام أطروحته للدكتوراة. والسبب الهام الآخر هو أنه كان يتجنب الدخول والمشاركة في أية خلافات أوانشقاقات كردية. لأنه لا يريد أن يورد ذكر اسمه كطرف في هكذا مواضيع حساسة ومضرة بقضية شعبه، وهذا موقف يحسب له. وفوق هذا وذاك ضعف الحركة القومية الكردية التي لم يكن بمقدورها عمل شيء في الساحة الأوربية في ذاك الوقت.

بقى أن نشير هنا إلى أن د. زازا قبل عودته إلى سوريا، وضع أرشيف الرابطة وأرشيفه الشخصي أمانة عند عصمت شريف وانلي، وأوصاه بأن يحتفظ بهما ربثما يعود ثانية إلى سويسرا أو إلى أي بلد أوربي آخر، ولكن للأسف عندما رجع للمرة الثانية عام (١٩٧٠) إلى سويسرا..

بقى أن نشير هنا إلى أن د. زازا قبل عودته إلى سوريا، وضع أرشيف الرابطة وأرشيفه الشخصي أمانة عند عصمت شريف وانلي، وأوصاه بأن يحتفظ بهما ربثما يعود ثانية إلى سويسرا أو إلى أي بلد أوربي آخر، ولكن للأسف عندما رجع للمرة الثانية عام (١٩٧٠) إلى سويسرا، و طلب منه إعادة الأرشيف إليه، كان رده أنه أتلفه كله. ولم يرتح – والقول لزوجة زازا – زوجي لهذا الجواب. و ما استشففته من زوجة د. زازا هوأن العلاقة بين عصمت شريف وانلي وزوجها كانت يكتنفها الفتور.

فيما يلي ترجمة أهداف الجمعية الكردية إلى العربية، كما وردت في بداية الصفحة التاسعة من العدد المزدوج (٣ - ٤) من «صوت كوردستان Dengê Kurdistan » الصادرفي أيلول وتشرين الأول عام ١٩٤٩:

١- توحيد الشباب والشابات الكورد الذين هم خارج كوردستان ضمن إطار تنظيمي واحد.
٢- مساعدة الطلبة بعضهم بعضاً.
٣- نسج علاقات متينة مع الجمعيات والتنظيمات الكردية في الوطن.
٤- التعريف قضية الكرد وكوردستان.
٥- النضال مع جمعيات الشباب والطلبة الديمقراطية للشعوب الأخرى.
٦- النضال معهم في سبيل السلام، وحرية الشعوب المضطهدة، والديمقراطية.

الدين

عند الكرد قبل الإسلام

إدريس عمر

حسب المعلومات التاريخية وآراء المهتمين بتاريخ الكرد إن المجتمع الكردي تكوين حضاري منبثق عن تكوين إثني يضم فروعاً زاغروسية وآرية ضخمة، ومن أبرز تلك الفروع: كُوتي وكاشُو ولُوللو وميتاني «حُوري» ومَنناي وخَلْدي «أورارتو» وميدي»مادي»، وقد أفلحت الدولة الميتانية في تحقيق التجانس الثقافي بين تلك القبائل، ثم استكملت الدولة الميدية تلك المهمة، وطوّرت ذلك التجانس في صيغة «اتحاد أقوام ميديا»، وهيأت المناخ السياسي والاقتصادي والثقافي لتمازج هذه الفروع في جبال زاغروس وعلى أطرافها، وفي النهاية كان الشعب الكوردي وليد ذلك التجانس.

وبما أنّ أجداد الكورد ينتمون إلى كتلة الشعوب الزاغروس-آرية، التي غلب عليها الطابع الثقافي الآري في العهد الميتّاني والميدي خاصة، فلا ريب في أنهم كانوا، في العهود الغابرة، من أتباع ديانة ميثرا، شأنهم في ذلك شأن جميع الشعوب الآرَية حينذاك، ويبدو أن الميثرائية أصبحت أكثر اقتراباً إلى عقيدة التوحيد في الألف الأول قبل الميلاد، حينما تجلت في صيغة «الأزدائية»، وتسمى « دِينْكَرد، نسبة إلى الإله أزْدان (يَزدان – الخالق)،» وقد شُرحت الأفستا في كتاب سمّي دِين كرد، وهو مكتوب باللغة والأحرف البهلوية».(أحمد محمود الخليل: تاريخ الكرد في العهود الإسلامية، ص٧٥)

ولم يرد في هذا المصدر الضبط الدقيق لمصطلح «دين كرد»، ترى أهو «دين كُرد» أم دين كَرد» أم» دين كُرْد»؟ وقد أورد نوري إسماعيل هذا المصطلح في كتاب «الديانة الزردشتية» بصيغة» دينكرد» Dinkard، وذكر أن الكتاب الخاص بهذا الدين كُتب بالخط البهلوي، وأن اسمه الأصلي زند أكاسيه، وأن مؤلفه هو المَوبَد الزردشتي آذر بورفرخزاد، الذي عاش في القرن التاسع الميلادي.

وذكر محمد العريبي أنه نشأت في القرن التاسع الميلادي طائفة مناهضة للمسيحية والإسلام، ووضعت شروحات جديدة للزردشتية التي أطلقوا عليها «ديانة الخير»، وتعرف هذه الشروح بـ»المصادر البهلوية»، وأهمها كتابان: الأول يسمى بنداهشِين، أو «زنداجاهية»، وهو يتناول مسائل تتعلق بأصل الكون. والثاني يسمى دنكارت Dankart، وهو دائرة معارف لمأثورات دينية.

وثمة من يرى أن منشأ اسم الكورد ديني وليس عرقياً، ويعود إلى اسم دينكَرْد «دينكارد» وأن اسمي»كاردونياش» و»كاردوخي» ينتميان إلى»دينكرد»، ويذكر دياكوف أن كلمة «كورتاش» Kurtash تعني العاملين من الأسر الحرة، وأنها في العيلامية تقابل الكلمة الإيرانية القديمة «كردا» Gurda. ونخلص من المعلومات القليلة الواردة في هذا المجال إلى أن الصلة وثيقة بين كلمة «كورد» باعتبارها اسماً لشعب وباعتبارها اسماً لدين.

وما لا شك فيه أنّ الصلة وثيقة بين «دينكرد» والزردشتية، ولعل دينكرد هو في مقام»العهد القديم» ضمن منظومة لاهوت الهضبة الآريانية وجبال كوردستان، وقد أفاد مرشد اليوسف في كتابه الإلكتروني»دُومُوزي: طاوُوسي ملك» أن السومريين أطلقوا كلمة « دينكر Dinger على كائنات خالدة غير مرئية شبيهة بالإنسان وأنها تعني «الإله» بالسومرية، كما أنها تعني بالكوردية «من يعمل في مجال الدين».

ولكلمة «دين» Dîn و Dîtin في الكوردية دلالتان: الرؤية الحسية البصرية، والرؤية المعنوية والفكرية، ويرجع مصطلح « دينكرد» بدوره إلى «دين كار»، باعتبار أن الملائكة ورئيسهم «مير كار- رئيس العمل» عملوا في عبادة الله تعالى تسعين ألف سنة، مع ملاحظة أن كلمة « كارا» Kara كانت تعني الناس المحاربين، « وكار» بالكردية معناها «العمل».

وجدير بالذكر أنّ « كار» (العمل) في «دينكرد» هو مقياس لإيمان الفرد ومعيار لسلوكه وحضارته، والهدف من خلق الإنسان هو العمل لتعمير الكون، والعمل (كار) عبادة في دينكرد، لذا كان على جميع أفراد المجتمع الميدي الأول، بما فيهم نائب الملك وقادة الجيش وكبار رجال الدولة، أن يمارسوا العمل المنتج المفيد.

ويركز»دينكرد» على بناء الشخصية الإنسانية بجوانبها الذاتية (المعنوية)

والخارجية (المادية – السلوكية)، ويتمثل ذلك في مبدأ :» فكر جيداً، قل جيداً، اعمل جيداً، تكن إنساناً جيداً«.

ووفق تعاليم «دينكرد» فإن عزازيل (طاوُوس ملك) هو رئس الملائكة، وهو الذي قادهم في مهمة العمل لعبادة الله تعالى، وهو مالك خزائن العرفان، وهو مَلاك الوحي أيضاً، وهذا يعني أنه يقوم مقام الملاك جبريل في الدين الإسلامي.

وإن الخليقة والتكوين، وفق تعاليم «دينكرد»، نتاج تفاعل أربعة عناصر هي الماء والتراب والهواء والنار، وبتأثير أربعة عوامل هي قوة الشروق وقوة الغروب وقوة الشمال وقوة الجنوب، ومروراً بأربع مراحل هي مرحلة الولادة والصبا ومرحلة الشباب ومرحلة النضج ومرحلة الشيخوخة، ويُرمز إلى هذه الفلسفة بدائرة «الماند دى لا»، وهي دائرة مغلقة فيها صليب متساوي الأطراف.

ويقول الدكتور أحمد محمود الخليل:» لقد رأيت هذه الدائرة منحوتة على الطرف العلوي من أبواب بعض الدور القديمة في قرى الكورد، كما أني رأيت والدي رحمه الله وبعض المسنين يحفرون الصليب المتساوي الأطراف على الصخور لرسم الحدود بين ملكيات الأراضي، هذا إضافة إلى أنني كثيراً ما وجدت العجائز الكورديات ممن كنّ يعالجن الأطفال المرضى في قرانا يرسمن الصليب نفسه بالسُخام «بقايا الدخان في أسفل صاج التخبيز» على جباه الأطفال والصبية المرضى، وكنت، وأنا صبي، واحد منهم«(المصدر السابق، ص ٧٧).

و«ماند» من أسماء الجلالة في «دينكرد»، وهذه الكلمة هي نفسها «مَنْد»، التي تتألف منها بعض الأسماء الكردية المركبة عند الكرد الأيزديين خاصة، وكان اسم ابنة الملك الميدي أستياك– والدة الملك الأخميني كورش الثاني– هو ماندانا (هبة الإله ماند). وقد حُرّف الاسم«مَنْد» بعدئذ إلى «مَنْدُو» على غرار «شيخو» من شيخ، و«مصطو من مصطفى.

ومن أسماء الجلالة في «دينكرد» أيضاً « أزدا» بمعنى « الخالق/خالقي» و» وخُودا» (خُه دا) ويعني (مُوجِد نفسه/خالق نفسه)، والأرجح أن الديانة المندائية العرفانية (الغنوصية)، في واسط بالعراق، على صلة ما بالبنى العقدية والفلسفية والثقافية لعقيدة «دينكرد»وغيرها من العقائد الآريانية، وقد جاء في كتاب الصابئة المندائية المسمى «حَرَان كُوثَه» أي (حران السفلى) أنهم جاؤوا إلى بطائح البصرة من مدينة حران وما حولها من جبال ماداي، حيث الينابيع الساخنة في الشتاء والباردة في الصيف»، ولا يخفى أن حران (حاران) كانت تقع في منطقة النفوذ الحوري (الميتاني)، بل الأرجح أن اسمها مستمد من الحوريين.

وإن الشر– وفق فلسفة الأزدائية التي ينتمي إليها دِينكرد – جزء من التكوين الذاتي للإنسان، وليس عنصراً خارجياً طارئاً، لذا لا وجود لمخلوق يسمى شيطان/إبليس في العقيدة الأزدائية، وعَزازيل (طاؤوس ملك) يحتفظ في الديانة الأزدائيَّة بمكانته المرموقة عند الله تعالى، باعتباره رئيس الملائكة، وقد بدأ التحول عن هذه الفلسفة مع ظهور

الانشقاق الزردشتي عن الأزدائية، إذ تقوم الزردشتية على وجود إله أهورامزدا، ينافسه أهريمن (أهورامَن) ممثل الشر، وهذا يُعد انحرافاً وهرطقة من منظور العقيدة الأزدائية، وتحولاً من مفهوم التوحيد الصرف إلى المفهوم الثنوي الإشراكي.

وعلى ضوء هذه المعطيات يمكن تفسير أمرين:

الأمر الأول: عدم إقبال الكورد على اعتناق المسيحية قبل الإسلام، رغم الجوار الجغرافي مع الدولة البيزنطية غرباً، ورغم الجوار والتداخل الجغرافي والاجتماعي شمالاً مع الأرمن والجورجيين المسيحيين لقرون عديدة قبل الإسلام وفي الإسلام. والأرجح أنهم وجدوا في العقيدة المسيحية القائمة على مفهوم التثليث (الأب– الابن– الروح القدس) تناقضاً مع عقيدة التوحيد الضاربة بجذورها في صميم العقيدة الأزدائية وعقيدة دينكرد.

الأمر الثاني: اختلاق تهمة «عبادة الشيطان» التي تُلصق بالكرد الأيزديين، فالديانة الأيزدية كما نراها اليوم تشتمل على بعض الأصول الزردشتية والتأثيرات المسيحية والإسلامية، لكنها تشتمل في الوقت نفسه على بعض أصول العقيدة الأزدائية، ومن أهمها مفهوم التوحيد، وكون عزازيل (طاؤوس ملك) هو رئيس الملائكة القائمين على العمل لعبادة الله ضمن مفهوم «الكار»، وهو من ثم شخصية مقدّسة ومبجلة إلى درجة كبيرة، لذا يغضب الأيزدي حينما ينتقص أحد ما من شخصية عَزازيل، ولا يقبل أن يقال عنه إبليس (شيطان)، وإنه ملعون ورجيم، وقد يقاتل من يصرّ على أن يُسمعه ذلك، حتى ظنّ الناس– جهلاً او تحاملاً– أن الأيزديين هم عبدة الشيطان. (المصدر نفسه، ص ٧٩)

الحقيقة أن ثمة فرقاً بين التبجيل والتقديس من ناحية، والعبادة من ناحية أخرى، فالمسلمون يبجلون النبي محمداً، ويبجّلون الملاك جبريل، والكعبة عندهم مقدّسة، لكنهم لا يعبدون محمداً ولا جبريلاً ولا الكعبة، وليس ثمة مسلم صحيح يقبل التهجم على النبي محمد أو على جبريل أو على الكعبة، ولا يتردد في معارضة ومقاتلة من يصرّ على الإساءة إلى المقدسات، بل إنّ الخُميني، مرشد الثورة الإسلامية في إيران، أصدر فتوى أباح بموجبها دم الكاتب الهندي الأصل البريطاني الجنسية سلمان رشدي، لأنه أورد في كتاب «آيات شيطانية» عبارات ساخرة تنال من مكانة النبي محمد وبعض زوجاته وصحابته.

كذلك الأمر بالنسبة إلى الأيزديين والملاك عزازيل، فقد تحول هذا الملاك في الديانات السماوية (اليهودية، النصرانية، والإسلام)، لأسباب سياسية لا مجال الآن للبحث فيها، إلى رمز لعصيان الله، باعتبار أنه رفض السجود لآدم، فاستحق اللعنة، وسُمي الشيطان تارة وإبليس تارة أخر.

الكرد في الكتاب المقدس

براذوست ميتاني

المصور (٥) - الامبراطورية الميدية

بالرغم من سعي العديد من العنصريين في الأنظمة الحاكمة المسيطرة على وطننا كردستان ومن يدور في فلكهم من أمثالهم، إلى طمس وجودنا القومي الكردي وخاصة بتزييف تاريخنا، فقد فشلوا في ذلك لأنه يكاد لا يخلو كتاب قديم أو وثيقة قديمة من الوقوف عند دور الكرد في صناعة الحضارة وجغرافية الكرد التي عاشوا عليها والتي هي كردستان.

أخواتي وإخوتي: إن ما هو الآن بين أيدينا هو نقطة من بحر تلك الوثائق والأدلة التي تؤكد غنى تاريخ الكرد ودورهم، وذلك بتصفح الكتاب المقدس بأقسامه المتعددة الذي نراه يقف بقوة عند الوجود الكردي وأهمية دوره في بناء الإنسانية، سواء بالإشارة إلى شخصياته أو مدنه القديمة أو بعض من دوله بالإضافة إلى دوره في نشر الأديان.

مثال على ذلك فإن إنجيل متى الإصحاح الثاني يقول: إن المجوس بشّروا بميلاد اليسوع. والقصة في ذلك عندما طلب النبي دانيال من المجوس الميديين في نهاية دعوته، بأن يسيروا مع نجم يمر من الشرق ويتجه نحو الغرب، حيث يهبط في مكان سيكون هو مكان وجود ولادة طفل هو السيد المسيح، فكان ذلك في بيت لحم.

إذن بذلك يكون الكرد أول من بشّروا بميلاد السيد المسيح والديانة المسيحية والفضل في ذلك يعود إلى الكرد المجوس.

بهذه المناسبة نقول إن كلمة مجوس ليست سيئة كما تم تداولها مع الأسف من قبل بعض المسلمين الذين ألبسوها ثوبًا أسود و سموها الزندقة، إذ أن المجوس هم قبيلة كردية عريقة اسمها الموغ، وكانوا مرتبطين بشدة بالديانات السماوية بين الآريين، سواء أكانت الميترائية أو الزرادشتية أو المسيحية، واليونانيون كالعادة يضيفون الواو والسين على الاسم، فتحّول الموغ إلى الموغوس، وهكذا عند العرب والمسلمين إلى المجوس.

والآية التي تؤكد أن الكرد هم أول من بشّروا بميلاد السيد المسيح هذه هي: ولما وُلد يسوع في بيت لحم اليهودية في أيام هيرودس الملك، إذا مجوس من المشرق قد جاؤوا إلى أورشليم قائلين: أين هو المولود ملك اليهود؟ فإننا رأينا نجمة

في المشرق وأتينا لنسجد له. فلما سمع هيرودوس الملك اضطرب وجميع أورشليم معه، فجمع كل رؤساء الكهنة وكتبة الشعب وسألهم: أين يُولد المسيح؟ فقالوا له: في بيت لحم اليهودية.لأنه هكذا مكتوب بالنبي. متى٢:١-٥

إن العديد من الباحثين يقولون إن الإخمينيين الفرس عندما احتلوا ميديا الكردية عام ٥٤٨ ق.م، لم يتمكنوا من فرض ثقافتهم عليها، بل أخذوا منها اللغة والأخلاق، واستخدموا هيكلية الدولة الميدية، بل حتى أن اسم ميديا ظل متداولًا، والآية القادمة تؤكد ذلك والتي تجعل من الملك داريوس ميديًا:

في تلك الليلة قتل بيلشاصر ملك الكلدانيين، فأخذ المملكة داريوس المادي وهو ابن اثنتين وستين سنة. (دانيال ٥:٣١-٣٢)

تذكر الآية التالية مدينة شوشن التي هي مدينة سوسا أو شوشا التي كانت عاصمة أحد أجدادنا الكرد الإيلاميين، وهذه المدينة تقع في شرق كردستان أي أن المدينة كردستانية. وكذلك أرض الكوش المقصود بها أرض دجلة والفرات ريما تكون أرض أجدادنا الكاشيين. بالإضافة إلى أن هذه الآية أيضًا تذكر دولة ميديا:

وحدث في أيام اخشويروش ـ هو اخشويروش الذي ملك من الهند إلى كوش على مئة وسبع وعشرين كورة ـ أنه في تلك الأيام حين جلس الملك اخشويروش على كرسي ملكه الذي في شوشن القصر في السنة الثالثة من ملكه، عمل وليمة لجميع رؤسائه وعبيده وجيش فارس ومادي وأمامه شرفاء البلدان والرؤساء. أستير ١:١-٣

بعد أن تعرض اليهود إلى السبي لثلاث فترات تاريخية على يد البابليين والآشوريين والكلدانيين بتهجيرهم إلى مناطق كردستان وميزوبوتاميا، حررهم الملك الميدي كي أخسار ٦١٢ ق.م بأن منحهم الحرية في أن يظلوا في مناطق تواجدهم في كردستان والمنطقة أو أن يعودوا وطنه إسرائيل .

الوثائق اليهودية تقول إن الملك الميدي حرر اليهود من السبي، فكانت مكافأته الزواج من اليهودية ستيرا ذات الفستان الأزرق في ليلة زفافها، وتخليدًا لها جعل اليهود علمهم الإسرائيلي الحالي يحمل اللون الأزرق:

في السنة التاسعة لهوشع أخذ ملك آشور السامرة وسبى إسرائيل إلى آشور، فأسكنهم في حلح وخابور نهر جوزان وفي مدن مادي. الملوك الثاني ١٧:١-٦

الآية التالية تؤكد أن السيد المسيح (ع) من نسل النبي إبراهيم الخليل (بالطبع من جهة والدته مريم العذراء)، والمعروف أن إبراهيم خليل (ع) السلام ذو منشأ كردستاني قديم .أن قول د.سيد القمني يؤكد صلة النبي إبراهيم بأجدادنا الكرد، إذ يقول: أن اسم مدينة أور له صلة وعلاقة بأسلاف الكرد الكاشيين الذين كانوا يحكمون حينذاك سومر وبابل..

إذن ذلك يمنح لأرض كردستان قدسية دينية كبيرة :

كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود ابن ابراهيم، إبراهيم ولد إسحاق وإسحاق ولد يعقوب ولد يهوذا وإخوته. متى ١:١-٢

لقد أصبح الدين الإبراهيمي الحنيف جزءاً من ثقافتنا الكردستانية، فثمة معالم تاريخية وجغرافية واجتماعية عديدة تحمل اسم النبي إبراهيم (ع) أو لها علاقة وثيقة به، فقد يوجد الآن في شمال كردستان أسماء مثل جبل نمرود وكذلك بحيرة كهنيا (عين) زليخة في مدينة رها، تلك الفتاة التي آمنت بالنبي إبراهيم فرماها أبوها الملك نمرود في النار، فتحولت النيران إلى ماء ولا يزال حتى يومنا هذا تعد هذه البحيرة مقدسة لدى الكرد وغيرهم، وهي مملوءة بالسمك المبارك، وكذلك ما زالت آثار المنجنيق الذي رمى به الملك نمرود النبي إبراهيم في النار موجودة في منطقة حران، وكذلك بركة إبراهيم وسمك إبراهيم في مدينة أورفا، بالإضافة إلى مرقد النبي إبراهيم. كما يوجد الآن قرية إبراهيم خليل في جنوب كردستان في منطقة زاخو.

كانت مدينة حران في العهد الهوري الخوري مركزًا لعبادة الإلهة شاويشكا (شميشكا) التي أطلق اسمها على الشمس المقدسة، وأن تقديس الشمس كان عادة لدى شعوب موزوبوتاميا. لذلك إن معظم الباحثين يقولون إن قوم إبراهيم كانوا يعبدون النجوم، لذلك نقول إن في ذلك لالتباس لأنهم كانوا يقدسون الشمس كغيرهم من الشعوب في موزوبوتاميا ومصر وأماكن متفرقة من العالم. لذا يُعد الظهور للدين الإبراهيمي في ذلك الزمن فقط تحديث وتجديد في الفكر الديني الآري بشكل عام والكردي

بشكل خاص، والدليل في ذلك هو الانتقال بالأضحية بذبح الحيوان بدلًا من الإنسان، فبهذا يُعد النبي إبراهيم نبيًا ثائرًا في هذا العمل الإنساني.

ما يلفت انتباهنا في ذكر اسم مدينة حران الهورية الخورية، هو أن لعائلة النبي إبراهيم (ع) أربعة أقرباء يحملون اسم هران، وهذا يقوّي قولنا في كون اسم حران(هران) في حقيقته هوران وخوران، وأن أصل النبي إبراهيم هوري – خوري، ويلتقي في ذلك مع اللغة الكردية خور أي الشمس.

تحمل معنى المدينة هور و شار وار أي المكان، وقد استعملها العرب بصيغة هور وخور، وهي كردية محضة مأخوذة من اسم خور أي الشمس وقد دخلت في اللغة العبرية، وقد كانت مثلها أورشليم، ويأتي هذا تأكيدًا لقول ابراهام مالمات وحاييم تدمور، عندما قالا في كتابهما «العبرانيون وبنو إسرائيل في العصور القديمة بين الرواية التوراتية والاكتشافات الأثرية»: إن الخوريين أثروا بثقافتهم على العبرانيين.

يقول أ. أحمد محمد خليل مشختي في مقالته التي بعنوان «بين أور الكلدان وأورا كردستان» المنشورة في مجلة لالش عام١٩٨٨م، بالإضافة إلى تأكيده بأن الكلدانيين لم يكونوا موجودين حينذاك، بل ظهروا في النصف الأول قبل الميلاد: أن المقصود بمدينة أور هي مدينة أورا التاريخية في شمال كردستان الواردة في رسالة الملك الهيتي إلى ملك أوغاريت، بضرورة نقل الحبوب من مدينة موكيش إلى مدينة أورا وهي قريبة من حران. وأن اسم أورا ذات معنى كردي صرف بمعنى ماء (آف) وآران (باران - مطر) وتحولت إلى أورفا .

يقول القزويني في كتابه «آثار البلاد وأخبار العباد»: إن مولد النبي إبراهيم كان في قرية اسمها كوثى من سواد العراق، وينطبق هذا على منطقة أور الكاشية، وفي ذلك ثمة قول للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عندما قال: إن قبيلة قريش من نبط (سومر) كوثى ومن يسأل عنا فنحن من تبط كوثى، لذلك يُعد العرب قبيلة قريش من العرب المستعربة، كما أنهم كانوا يسمون السومريين بالنبطيين، ونحن نعلم أن أصل

السومريين هم من جبال زغروس الكردستانية مثلهم مثل الكاشيين الذين كغيرهم من أجداد الكرد الذين يشكلون جزءًا من السومريين.

أما اسم مدينة أور فإنه كردي منذ القدم، والدليل أن عاصمة أجدادنا الكرد الخوريين الهوريين هي أوركيش ٢٥٠٠ ق.م على مقربة من عامودا الحالية في الجزيرة من روجافا (كردستان سوريا). والكتاب المقدس في الآية التالية يؤكد تلك العلاقة بين النبي إبراهيم (ع) ومدينة حران أي أورفا:

وأخذ تارح إبرام ابنه ولوطا بن هاران ابن ابنه وساراي كنته امرأة إبرام إبنه، فخرجوا من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان، فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك، وكانت أيام تارح مئتين وخمس وسنين ومات تارح في حاران التكوين ١١:٣١-٣٢

الآية التالية من الكتاب المقدس تثبت وحدة اللغة الكردية منذ زمن النبي نوح حتى الآن، وذلك بأن أسماء أولاده جومر»جومرد»، مادي «ميدي» ، بادان» باديان وبادينان»، توبال وتيراس «تيريز»:

وهذه مواليد بني نوح: سام وحام ويافث وولد منهم بنون بعد الطوفان، بنو يافث جومر وماجوج ومادي وبادان وتوبال وماشك وتيراس.

التكوين ١٠:١-٢

وكذلك بالعودة إلى الكتاب المقدس والقرآن الكريم نستمد منهما قدسية أرض كردستان، عندما يطلب النبي نوح(ع) من ربه أن ينزله في أرض مباركة، فكانت التلبية بأن ترسو سفينته على جبل جودي فيهلك الكفار وينجي المؤمنين، علمًا أن

الكتاب المقدس يذكر في ذلك جبل آرارات، وبالرغم من الاختلاف بين الكتابين، فإن الدلالة للأسماء أحيانًا بتقادم الزمن تتغير، إذ جاء في الصفحة ٦٩١ من المجلد الأول للموسوعة الأرمنية: «إن لآرارات ثلاثة أسماء هي: الجودي، قردى (علمًا أن اسم قردي هو كردي في لغة بعض الشعوب غير الشعب الكردي)، أرارات».(آر في اللغة الكردية يعني النار، كونه جبل بركاني ناري) وكذلك قال القرطبي: الجودي: اسم لكل الجبال، أي ليس لجبل واحد، وخاصة أنه يشكل في كردستان جزءًا رئيسيًا من سلسلة طوروس... ولجودي قدسية دينية إذ يُقال إنّه من جبال الجنة، فلهذا استوت عليه السفينة واختارته. ومهما كان الاختلاف فإن الجبلين يقعان في كردستان:

واستقر الفلك في الشهر
السابع، في اليوم السابع عشر
من الشهر على جبال آرارات.
التكوين ٨-٤

فقد كان أول وجود للنبي نوح (ع) في قرية هشتي التي أسسها النبي نوح(ع) وأولاده بعد الطوفان والتي ما زالت تحمل ذلك الاسم، وثمة رأيان في هذا العدد: الأول يقول كانوا ثمانية وهم أولاده الثلاثة والنبي نوح وزوجاتهم الأربع فصاروا ثمانية في القرية. الرأي الثاني: يقول ثمانين، أي بعد أن تكاثروا وصاروا ثمانين ومن ثم بنوا القرية. ومن القرى الأخرى التي بناها النبي نوح (ع) وأنصاره في كردستان وما زالت تحافظ على اسمها حتى الآن: بانخ، شرنخ، دورنخ، بالإضافة إلى مسجده الذي بناه في مدينة جزيرة بوتان، وعلاوة على تلك المعالم الهامة وجود قبره في تلك المدينة، أي جزيرة بوتان والتي الآن تسمى بمدينة النبي نوح (ع)، ويجب أن لا ننسى هنا أن نقول: إن معنى اسم نوح في اللغة الكردية هو نوه أي جديد، لأنه جدد البشرية بعد أبينا النبي آدم (ع).

أمام تلك الحقائق التاريخية المتعددة لا بد من القول: طالما أن الجبال التي استقرت عليها السفينة وهي: نيسير ، شنكال، بيخير، آرارات وجودي كلها تقع في كردستان، فالقصة إذن حدثت في كردستان، وبما أن النبي نوح (ع) هو أبو البشرية الثاني بعد اندثار جميع الأمم في الطوفان، فإن البشرية الثانية بعد النبي آدم (ع) لقد خرجت من كردستان، موطن الكرد الأول والحالي، وبذلك تكون كردستان مهد البشرية على وجه الأرض. كما أن كردستان تُعد أرضًا مباركة وذلك تأكيدًا على قوله تعالى: وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (المؤمنون :٢٩)

بما أن هذه البشرية من نسل نوح فتكون هي بذلك إخوة من أولاده الثلاثة: سام (أب العرب والعبريين وآخرين)، حام (أب الحبشيين والأفارقة وآخرين)، ويافث (أب الآريين الآسيويين والأوربيين وآخرين). هؤلاء الذين ظهروا في كردستان من بين أسلاف الكرد الجوديين المعاصرين للنبي نوح (ع) في ٦٠٠٠ ق.م. بل في الألف الأول الذي سبق ذلك في بداية تشكل المدنية الريفية المنحدرة من الجبلية.

لهذا نسأل أين كل أولئك الذين ينكرون صلة القربى بين جميع البشر ويتعالون على الآخرين، ويتشدقون بعنصريتهم المقيتة القاتلة، خاصة مع الشعب الكردي الأصيل بعرقه الموغل في القدم البشري؟ وخاصة يكون النبي نوح عليه السلام أبو البشرية الثاني التي انطلقت من أرض كردستان وانتشرت في أصقاع العالم مع سام وحام ويافث.

والآية التالية من الكتاب المقدس أيضًا تؤكد انتشار البشرية الثانية من كردستان إلى أصقاع العالم:

وكان بنو نوح الذين خرجوا من
الفلك ساما وحاما ويافث، وحام
هو أبو كنعان، هؤلاء الثلاثة هم بنو
نوح ومن أولئك تشعبت كل الأرض.
التكوين ٩:١٨-١٩

أما ما يرد في الكتاب المقدس وكذلك في القرآن الكريم بما هو صلة بأرض كردستان، فإنه مفخرة لنا نحن الكرد، حيث دين النبي إبراهيم الخليل «ع» وقصته مع الملك السومري نمرود، فهو في أرض كردستان وبالذات في سهل حران، وثمة معبد الآن في كري نافوكي التابع لمدينة رها، ويقول عالم الآثار الألماني كلاوس شميدت، إنه أقدم معبد مكتشف حتى الآن، وربما يكون ذلك التل هو الجنة التي ذكرها الإنجيل والبستان الذي كان فيه آدم ونوح، ويسمى باغي أيرمي أو جنة عدن(EDEN)، وخاصة عندما يذكر الإنجيل مكان تلك الجنة الواقعة بين أنهار الفرات وجيحون في كردستان، أي أن ظهور آدم (ع) بعد خروجه مع أمنا حواء من الجنة، كان في كردستان كما في الآية التالية:

وكان نهر يخرج ليسقي الجنة، ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس، اسم الواحد فيشون وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب، وذهب تلك الأرض جيد. هناك المقل وحجر الجزع، واسم النهر الثاني هو جيحون، وهو المحيط بجميع أرض الكوش، واسم النهر الثالث هو حداقل، وهو الجاري شرقي آشور، والنهر الرابع هو الفرات.
التكوين ١:١٠-١٤

وفي الآية التالية ذكر لأجداد الكرد الخوريين بصيغة الحوريين، وأهم قادتهم والمنطقة التي ظهروا فيها وهي منطقة جبل سعير الواقعة جنوب الأردن، وذلك دليل على امتداد حكم الخوريين من روزافا كردستان، خاصة حيث العاصمة أوركيش٢٥٠٠ق.م وكردستان عامة حتى جنوب الأردن، حيث حينها كان وجود الخوريين في فلسطين، وكذلك من خلال الهكسوس في مصر.

والآية هذه هي :

وَفِي السَّنَةِ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ أَتَى كَدَرْلَعَوْمَرُ
وَالْمُلُوكُ الَّذِينَ مَعَهُ وَضَرَبُوا الرَّفَائِيِّينَ
فِي عَشْتَارُوثَ قَرْنَايِمَ، وَالزُّوزِيِّينَ فِي هَامَ،
وَالإِيمِيِّينَ فِي شَوَى قَرْيَتَايِمَ، وَالْحُورِيِّينَ فِي
جَبَلِهِمْ سَعِيرَ إِلَى بُطْمَةِ فَارَانَ الَّتِي عِنْدَ الْبَرِّيَّةِ.
سفر التكوين ١٤:٦

هؤُلاَءِ بَنُو سَعِيرَ الْحُورِيِّ سُكَّانُ الأَرْضِ:
لُوطَانُ وَشُوبَالُ وَصِبْعُونُ وَعَنَى
وَدِيشُونُ وَإِيصَرُ وَدِيشَانُ. هؤُلاَءِ أُمَرَاءُ
الْحُورِيِّينَ بَنُو سَعِيرَ فِي أَرْضِ أَدُومَ.

في الختام:

الأعزاء: ليس هدفنا من مثل هذه الأبحاث هو إظهار التميز قوميًا عن الشعوب الأخرى أو التعالي، إنما إظهار دورنا ككرد في المنطقة، كمساهمين مع بقية إخوتنا من الشعوب الأخرى في بناء الحضارة الإنسانية، وكذلك الرد على الناكرين للإنسانية العنصريين، ولإخراج تاريخنا من بين رحاهم الطاحنة الظالمة بأننا شعب، لا نشك بأحقية وجودنا بل نحن شعب حضاري مبني على كامل المقومات القومية.

الكرد والإسلام

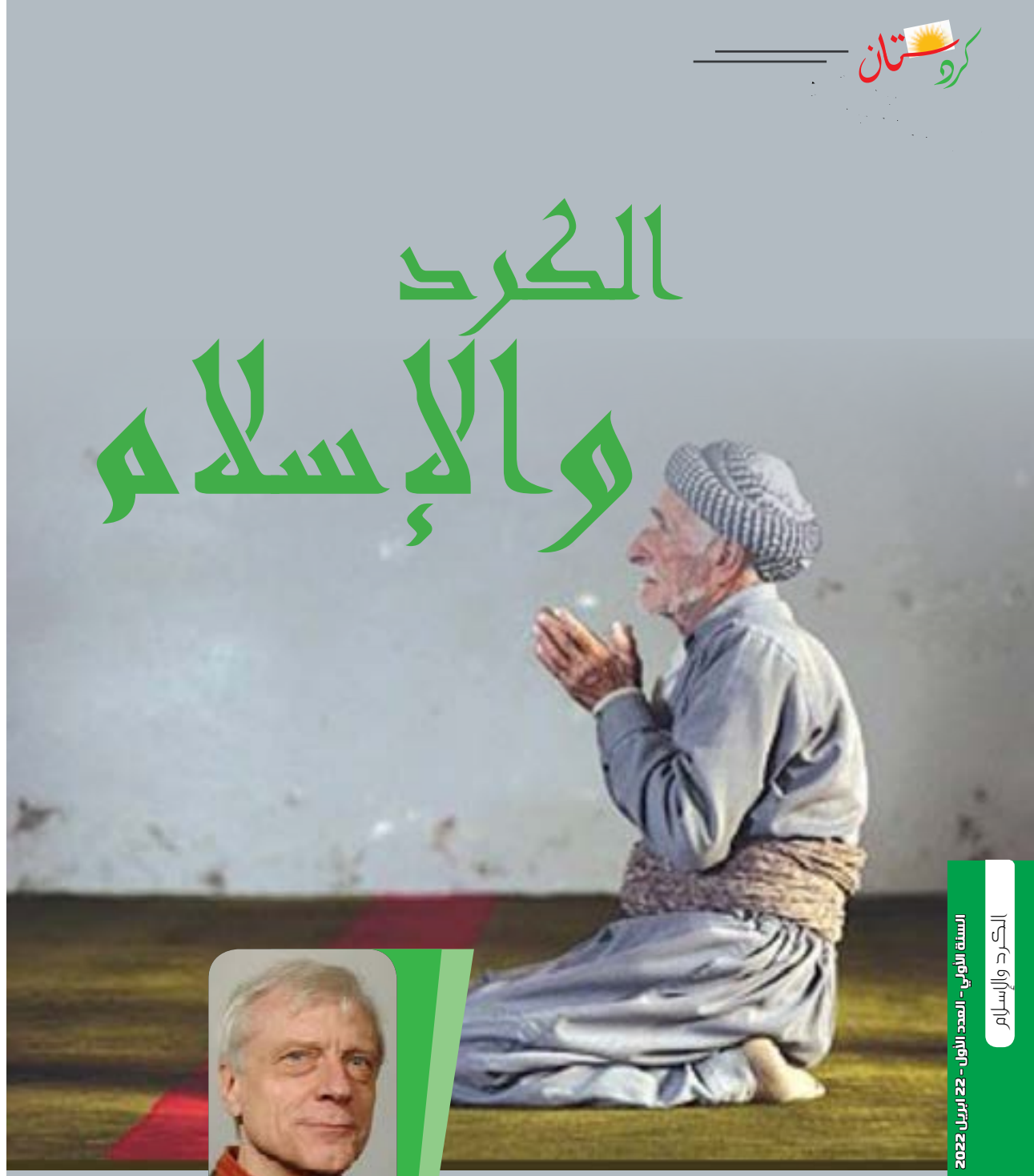

مارتن فان برونسين

الترجمة عن الإنكليزية: راج آل محمد

تُعدُّ اللغة الكردية بعد اللغات العربية والتركية والفارسية اللغة الرابعة في الشرق الأوسط من حيث عدد المتكلمين بها. إذ يتراوح عدد الكرد، وفق أكثر التقديرات تحفظاً، بين ٢٠-٢٥ مليوناً، مما يجعلهم أكبر شعب دون دولة في الشرق الأوسط. لقد لعب عدد من الكرد أدواراً بارزة في تاريخ الإسلام، ولكنهم غالبا لم يثيروا الانتباه لأنهم لم يعّرفوا أنفسهم بأصولهم العرقية بشكل واضح؛ وحينما عبروا عن أنفسهم كتابةً فإنهم فعلوا ذلك بواحدة (أو أكثر) من اللغات المجاورة. إن كردستان، المنطقة الجبلية حيث يعيش معظم الأكراد، اعتُبرت منذ القديم منطقة فاصلة بين المناطق التي تتكلم التركية والعربية والفارسية في العالم الإسلامي. شكلت كردستان، من الناحية السياسية، الحد الخارجي لكل من هذه المناطق الثقافية-السياسية، ولكن كان لها أيضاً دورٌ هامٌ تجسّد في التوسط بينها. إذ كثيراً ما شكّل المثقفون الكرد جسراً بين المأثورات الفكرية في العالم الإسلامي، وقد قدّم العلماء الكرد إسهامات بارزة في الثقافة والأدب الإسلاميين في العربية والتركية إضافة إلى الفارسية.

على عكس ذلك كان للإسلام تأثير عميق على المجتمع الكردي، حتى في النواحي غير الدينية حيث الحياة السياسية والاجتماعية تبدو وكأنها قد اصطبغت به ظاهرياً. فقد لعبت شبكة المدارس الدينية والطرق الصوفية، كما في بقية المجتمعات القبلية، دوراً في التماسك الاجتماعي وتغلبت على الفرقة والانقسام. وليس من الغرابة بالتالي أنه في أجواء تلك المدارس،حيث التقى الطلاب من مختلف بقاع كردستان ودرسوا بالإضافة إلى العربية والفارسية اللغة الكردية، برزت فكرة الهوية «القومية» الكردية. إن الشعراء الأوائل الذين تباهوا بالتراث الكردي كانوا على صلة وثيقة بـ «المدرسة» ومن خلال تلك المدارس بالذات انتشرت أعمالهم وباتت معروفة. لقد أثمرت الطرق الصوفية عن أنواع من التضامن والتكافل أثرت في التقسيمات القبلية والإقليمية القدر نفسه. فالانتفاضات الكردية الأولى ذات البعد القومي كانت من دون استثناء تقريباً بقيادة شيوخ طرق صوفية.

كان للإسلام في كردستان طابع مميز نتيجة صِدام المجتمع الكردي مع التعاليم والممارسات الإسلامية ومع الدول المسلمة التي ضمت أجزاءً من كردستان إليها. إن الصراع بين الهرطقة والأصولية (الذي يوجد في أماكن أخرى من العالم) واضح بشكل خاص في كردستان، وسوف نقوم بتحليل لهذا الصراع كمدخل لدراسة الإسلام بشكله الموجود بين الأكراد.

الهرطقة والأصولية:

وصل الإسلام إلى الكرد في المراحل المبكرة من توسعه، وسرعان ما اندمجت المراكز المدنية القليلة في كردستان- كـ جزيرة [ابن عمر] وأربيل وآمد (ديار بكر)- في عالم المعرفة والحضارة الإسلاميتين. ولكن وبسبب طبيعتها الجبلية، بقيت معظم مناطق كردستان على طرف هذا العالم وأبقت على علاقة متأرجحة مع الإسلام التقليدي المكتسب بالتعلم. من ناحية أخرى برزت بعض مراكز تعلم الإسلام الأصولي في أكثر المناطق عزلة. ولكن، من جهة أخرى، في هذه البيئة الطبيعية بالذات استطاعت الجماعات الدينية المهرطقة أن تعيش أطول إذ التجأت إليها الجماعات والأشخاص الذين اضطُهِدوا لأسباب سياسية ودينية. (وكما في أماكنَ أخرى، فإن الانشقاق السياسي والهرطقة الدينية يسيران جنباً إلى جنب).

وهكذا باتت كردستان في حالة تناقض ظاهري؛ فمن جهة أصبحت مركزاً من مراكز الإسلام السني المتشدد (من خلال اعتناق الكرد للمذهب الشافعي المتشدد وليس المذهب الحنفي الأكثر مرونة الذي اعتنقه محيطهم العربي والتركي) ومن جهة أخرى باتت موطناً لإحدى أكثر الجماعات الدينية هرطقة

في الشرق الأوسط. فقد ظهر الدينان اليزيدي وأهل الحق في وسط وجنوب كردستان على التوالي. في الوقت الذي لم يكن للدين الأول مشايعين غير الكرد، وجد الدين الثاني قبولاً كبيراً بين الجماعات الإثنية في إيران، ولكن في كردستان وحدها يقاوم الجهود الرامية إلى أسلمَته. إن إيمان وممارسات القزلباش أو العلويين في تركيا اليوم تُظهر نقاط تشابه كثيرة مع معتقدات اليزيديين وأهل الحق. وحتى بين العلويين أيضا فإن الجماعات الكردية على العموم تكون الأكثر بعداً عن الإسلام التقليدي من الجماعات التركية.

إن التناقض الظاهري الذي ذُكِر الآن يتجلى في وجود نوعين متناقضين من الإجحاف بحق الكرد. الإجحاف الأول يتمثل في اعتبار الكرد مسلمين سنة متزمتين ومتدينين متعصبين، والآخر بالكاد يعترف بإسلامهم. والمثل القائل «مقارنة مع الكافر –وفي رواية أخرى مع الجمل– يُعتبر الكردي مسلماً» يمكن سماعه في اللغات المختلفة للمنطقة. أنواع الإجحاف هذه لا بد وأنها تشير إلى طبقات الكرد المختلفة، أي المدنيين وفي أوقات سابقة إلى الكرد الريفيين عموماً.

ربما يكون مؤشراً ذا دلالة هامة أن أول عالم مسلم ذي أصول كردية تم ذكره في المصادر العربية وهو شخص يُدعى مهدي ب. ميمون عاش في القرن الثاني للهجرة /الثامن للميلاد لا يُوصف بأنه كردي بل ابن لكردي . في القرن الثالث الهجري /التاسع الميلادي نجد حالة مشابهة مع جامع أحاديث نبوية في بغداد الذي عُرف بـ «ابن الكردي» . وهذا يُظهر نوعاً من التناقض بين كون المرء كردياً وكونه

عالماً مدينياً– في المصادر العربية المبكرة يبدو أن مصطلح «الكردي» يشير إلى البداوة. ولكن بعد وقت ليس بطويل نجد عدة علماء يُعرّفون صراحة كأكراد . ولكن بعد ذلك نسمع عن مراكز دينية في كردستان تجذب الطلاب من أماكن أخرى. من أوائل المعلمين الكرد الذين حازوا شهرة عالمية هو الصوفي عمار بن ياسر البدليسي (توفي حوالي عام ٦٠٠/١٢٠٠) الذي يُعتبر المعلم الأول لـ (نجم الدين كبرى)، مؤسس طريقة الكبراوية الصوفية .عمار كان جزءً من شبكة صوفية شملت كل من بغداد والقاهرة وبلدات أخرى في إيران ولكنه عاش وعلّم في بدليس.

ويدعي الكثير من الكرد أن الشيخ ذا الشعبية الكبيرة «عبد القادر الكيلاني» (توفي ٥٦١/١١٦٦) صاحب الطريقة القادرية كان كردياً أيضاً، وأنه ليس من جيلان الواقعة في شمالي إيران (كما يُعتقد) بل هو من منطقة تحمل الاسم نفسه في جنوبي كردستان، إلى الغرب من كرمنشاه. لكنه قضى معظم حياته في بغداد ويبدو أن لا أحد من معاصريه اعتبره كردياً.مع ذلك، هناك صلات كردية به فمعلمه معلمه كان شخصاً يدعى علي هكاري (توفي سنة٤٨٦/١٠٩٣) نسبة إلى هكاري في قلب كردستان ، وقد استقرت عائلة ذات نفوذ من الشيوخ والعلماء الكرد وترجع نسبها إلى عبدالقادر في منطقة شمدينان قرب هكاري . إن للطريقة القادرية أتباعاً كثراً.

ويمثل الشيخ عدي بن مسافر (توفي سنة ٥٥٧/١١٦٢) بخاصة حالة مثيرة إذ أنه يشكل صلة الوصل بين الأصولية والهرطقة في كردستان. وُلد عدي في لبنان ودرس في بغداد

حيث يبدو أنه تعرف على الشيخ عبدالقادر الكيلاني. بعد ذلك اختار العزلة في وادي لالش وسط كردستان حيث أسس طريقة صوفية. ويبدو من كتاباته الباقية أنه كان مسلماً سنياً تقليدياً. ولكن بمرور الوقت،أصبح ضريحه المكان المقدس الأول لدي اليزيديين، وبات الشيخ عدي نفسه تجسيداً للروح الأكثر قدسية من بين آلهتهم. إن يزيدي اليوم يشعرون بإحباط شديد حينما يسمعون المستشرقين وهم يصرحون بأن الشيخ عدياً لم يبشر سوى للإسلام السني، الدين الذي عانوا منه الأمرّين.

والشيخ عدي ليس حالة نادرة في هذا المجال. فالضريح الذي يعتبر الأكثر قدسية لدى أهل الحق هو للوليّ بابا يادكار في قرية سرنه في جبال دالِهو غرب كرمنشاه. إن بابا يادكار تجسيد لما يسمى بـ haft tan أي الملائكة السبعة التي تُظهر نفسها في كل دور من أدوار تاريخ أهل الحق المقدس. وبابا يادكار، بحسب أساطير أهل الحق، يعتبر ابناً روحياً وخليفةً (سلطان ساهاك)، مؤسس الدين والذي يُعتبر بدوره تجسيداً لله. ولكن ثمة مؤشر على أن بابا يادكار كان خلال حياته شيخاً متصوفاً. فهناك وثيقة «وقف» تشير إلى أن قطعة أرض قد مُنحت له من قبل كردي مسلم في ١٥٢٦/٩٣٣ تمت صياغتها في محكمة شرعية وبحضور شهود مسلمين . أما بالنسبة لـ (سلطان ساهاك) فإن أساطير أهل الحق تعتبره ابناً لشخص يسمى سيد عيسى جاء مع أخيه موسى من همدان واستقرا في منطقة هورامان. والمثير في الموضوع أن عائلة البرزنجي، أكثر عائلات السنة من الشيوخ والعلماء نفوذا في جنوبي كردستان، تُرجِع نسبها إلى السيد عيسى نفسه .

وهكذا يبدو أن كلاً من الديانتين اليزيدية والعلي إلهية (أهل الحق) قد ظهرت في جماعة من المتصوفين غير الأصوليين تماماً ممن عاشوا وسط سكان كانوا يؤمنون بأديان ومعتقدات ما قبل إسلامية (إيرانية على الأغلب). هذه الجماعات الصوفية ربما مارست تأثيراً في أسلَمة محيط أوسع، ولكن الأجيال اللاحقة أدخلت عناصر محلية أكثر (وربما عناصر أجنبية أيضاً) في منظومة المعتقدات والطقوس مما أدى إلى التشكيلات الدينية الحالية المميزة.

وقد سُجِلت حالات ردة مشابهة من الأصولية إلى الهرطقة في وقت قريب ترجع إلى القرن الحالي. حيث حصل ذلك في العديد من الفروع المحلية للطريقة الصوفية النقشبندية، التي تتصف بشكل عام أنها تكّيف الشريعة وفقاً للظروف. إن الميل لأن يكون منصب الشيخ وراثياً لدى كثير من الفروع الكردية للطريقة، قد عزلها عن شبكة الطريقة النقشبندية الكبيرة والتي

يبدو أنها سهلّت مثل هذه «الردات». فقد أعلن الكثير من شيوخ برزان عن أنفسهم على أنهم «المهدي» وقادوا ثورات مناوئة للحكومة، ففي العشرينيات [من القرن الماضي] وصف الشيخ أحمد (الذي وصفته المصادر المعادية بـ «نصف مجنون») نفسه بالإله وحلل أكل لحم الخنزير. ربما يجب اعتبار هذا التصرف الأخير على أنه انقلاب على السلوك العادي الذي يلازم الحركات المسيحية. وقد ظهرت نزعات تتناقض مع المبادئ الأخلاقية [الإسلامية] عند أتباع شيخ نقشبندي آخر هو عبد الكريم من سركلو في منطقة السليمانية حيث شوهد الرجال والنساء يستحمون سوية في بركة الجامع، بل حتى سُمِح للكلاب بالدخول فيها (وهو مناقض تماما للمفهوم الإسلامي عن الطهارة)، وكان الرجال يرتدون كالنساء، واعتُبرت النساء والبضائع ملكيات مشتركة داخل الجَماعة. وقد تطور هذا الفرع إلى فِرقة مهرطقة عُرِفت باسم (حقا) التي لا تزال موجودة حتى الوقت الحاضر.

في أوائل القرن السادس عشر وقعت معظم مناطق كردستان تحت الحكم العثماني في أعقاب فترة مضطربة انتقلت خلالها من يد إمبراطورية بدوية إلى أخرى بدءاً بـ (قره قوينليه) و(آق قوينليه) وانتهاءً بالدولة الصفوية الناشئة بقيادة الشيخ إسماعيل ذي الشخصية الكريزماتية.أثناء المواجهة التي وقعت بين الإمبراطورية العثمانية (السنية) بقيادة السلطان سليم الأول والمهرطقين القزلباش (كما سُمي أتباع الشيخ إسماعيل بسبب القبعة الحمراء التي وضعوها على رؤوسهم)، وقف معظم حكام الإمارات المحلية مع العثمانيين. ومقابل درجة عالية من الحكم الذاتي قبلوا السيادة الرسمية للسلطان العثماني وانضموا إلى العمل العسكري ضد القزلباش.

إن المؤرخين العثمانيين مجمِعون على أن الكرد تحالفوا مع العثمانيين لأنهم مسلمون سنة مخلصين ولذلك كانوا مناوئين بقوة للصفويين المهرطقين. ولكن هذا الادعاء، كما أعتقد، غير صحيح لأسباب كثيرة.إن أغلب الروايات التالية للأحداث تعتمد إلى حد كبير على تلك التي أعطاها شخص توسط في الاتفاقات بين الأسر الكردية الحاكمة والإمبراطورية العثمانية، ألا وهو العالم والدبلوماسي إدريس البدليسي. ربما أكد البدليسي، وهو كردي، كثيراً على أصولية الكرد الدينية لكي يُقنع السلطان بولاءاتهم السياسية. ونرى التوكيد ذاته على كون الكرد مسلمين سنة مخلصين في كتاب (الشرفنامه)، الذي كتبه بعد قرن تقريباً الأمير الكردي شرف خان البدليسي. لقد أمضى شرف خان قسماً من حياته في إيران في خدمة الصفويين، قبل أن يسلم نفسه للسلطان ويُسمح له بالعودة إلى بدليس، وقد كانت له أسباب وجيهة في أن يؤكد على أن الولاءات الدينية تربط الكرد بالأتراك. ولكن في الواقع هناك مؤشرات على أنه لم يكن هناك فقط أعداد كبيرة من اليزيديين بين أكراد القرن السادس عشر، ولكن أيضاً أتباع لفرق مهرطقة أخرى، بما فيها القزلباش .

في الوقت الحاضر هناك نسبة كبيرة من أكراد تركية من القزلباش-العلويين. وفي الوقت الحاضر أيضا هناك هوة اجتماعية سحيقة تفصل بين الكرد العلويين والكرد السنة، ولكن يبدو أن الحدود بين العلويين والسنة قد حُددت بشكل أقل حدةً بكثير في الماضي ومناطق التقاطع للحدود مألوفة نسبياً. يتألف العلويون الأكراد، مثل العلويين الأتراك الأكثر عدداً، من عدد من الطوائف الثانوية المتميزة من حيث طقوسها ومعتقداتها ودرجة تأقلمها مع الإسلام الرسمي. وهناك فروع أخرى للقزلباش في جزء آخر من كردستان، ونعني بهم جماعة «الشبك» المحيّرة وقزلباش كركوك. على الرغم من انعزالهم عن علويي الأناضول وتفاعلهم الاجتماعي الشديد مع أهل الحق واليزيديين، لا يزال الشبك يحتفظون بهويتهم القزلباشية وينطبق الشيء ذاته على جماعة كركوك باعتبار أنها لا تزال تحمل الاسم ذاته.

ثمة نقاط تشابه كثيرة وجديرة بالملاحظة في المعتقدات والطقوس بين الدين العلوي-القزلباشي (وخاصة بشكله الموجود بين الكرد)

من جهة وديانتا أهل الحق واليزيدية من جهة أخرى.ففي الأديان الثلاثة هناك طقوس لا يمكن أن يقوم بها أحد سوى أناس معينين ذوو أنساب مقدسة يدعون تحدّرهم من قديسين ارتبط اسمهم بإيجاد أساطير هذه الأديان. لقد كان أهل الحق في جنوبي كردستان على اتصال مع اليزيديين والعلويين وقد أخذوا عنهم عناصر وأضافوها إلى معتقداتهم وأساطيرهم. ويبدو أن بعض الجماعات العلوية قد أخذت الكثير عن اليزيدية. ويبدو أن الديانات الثلاثة قد اعتمدت على مأثورات عدد من الديانات الأقدم.

الكرد والأقليات غير المسلمة في كردستان

إن كردستان، مثل معظم مناطق الشرق الأوسط، موزاييك ديني، حيث عاش البدو، والفلاحين وسكان المدينة الذين يتكلمون لغات ولهجات مختلفة من أتباع الإسلام والمسيحية واليهودية ومجموعة كبيرة من الجماعات الدينية التوفيقية جنباً إلى جنب. شكّل المسلمون السنة من متكلمي الكردية الأغلبية، ولكن كان لهم في كل مكان جيران من عقائد ولغات أخرى. في شمالي كردستان، كان الأرمن هم الأبرز، وفي بعض المناطق يشكلون الأغلبية. كانت العلاقة بين الكرد من مربيي الماشية والأرمن غير متساوية لكنها تكافلية .في وسط وغربي كردستان كانت هناك جماعات كبيرة من المسيحيين الذين يتكلمون الآرامية ينتمون إلى الكنائس السورية الشرقية والغربية (والذين يُعرفون في أوربة باسم الآشوريين أو النسطوريين أو اليعاقبة على التوالي) . هذه الجماعات كانت أنداداً لجيرانها من المسلمين. فتلك التي في وسط كردستان كانت ذات تنظيم قبلي وشكلت،حتى أوائل القرن التاسع عشر، قوة هامة وهو ما شكل عاملاً حاسماً في السياسة الكردية. وقد كان في أغلب المدن الكردية أيضا أعداد صغيرة من اليهود وكانت بعض الأماكن الأخرى، كزاخو وبكلا Ba-kale وبارزان موطناً لعدد كبير من السكان اليهود.

ربما كانت الجماعات المسيحية على نفس القدر من عدم التجانس مثل المسلمين، وربما كانت البدع منتشرة بينهم على نفس القدر أيضا.(وبدعة البوالصة التي ظهرت بين الأرمن فيما يسمى حالياً شمال غربي كردستان في القرن الثامن والتي سحقها البيزنطيون في القرن التاسع هي أكثرها شهرة.) . إن العناصر المسيحية واليهودية التي ادعى المراقبون ملاحظتها في الدينين العلوي وأهل الحق، من المحتمل ألا تكون قد استُمدت من الأشكال «العليا» للدينين بل من اختلافاتها الشعبية. ربما كانت «الاعتناقات [لأديان جديدة]» متكررة في فترات قصيرة نسبياً، إذ افترضنا أن قسماً صغيراً منها فقط قد دوِّن. لقد أشار كارستن نيبور Carsten Neibuhr في القرن الثامن عشر أن أعداداً كبيرة من طائفة الشمسية (التي يُعرف عنها القليل جداً) قد ارتدت إلى الكنيسة اليعقوبية، كما فعل عدد كبير من اليزيديين فيما بعد . إن وجود أعداداً كبيرة من الأرمن واليعاقبة ممن تعتبر الكردية لغتهم الأم تشير أيضا إلى وجود تاريخ من الاعتناق لأديان جديدة. ففي ديرسم ارتد كثير من الأرمن إلى العلوية، ولكن كانت هناك أيضا فترة قصيرة من الانتقال من العلوية إلى المسيحية حينما ظهر أن البعثات التبشيرية الأجنبية توفر الحماية.

إن وصول البعثات التبشيرية إلى كردستان- الروم الكاثوليك أولاً، ثم اتبعهم في القرن التاسع عشر البروتستانت من طوائف مختلفة- جعل الموزاييك الديني أكثر تعقيداً وذلك ببروز جماعات اثنو-دينية. فالجاليات السورية الشرقية التي ربطت نفسها بكنيسة الروم الكاثوليك وباتوا يُعرفون بالكلدانيين فيما بعد بتنا نرى الأرمن البروتستانت والكاثوليك جنباً إلى جنب مع الكنيسة الغريغورية، والبروتستانت السوريين الغربيين إلى جانب اليعاقبة. إن النشاط المتزايد للبعثات التبشيرية كان مظهراً من مظاهر تزايد نفوذ القوى الأوربية في المنطقة، وقد فهمها على هذا النحو المسيحيون والمسلمون على حد سواء. كان المسيحيون المحليون غير ميالين كثيراً لقبول مكانتهم الثانوية التقليدية، وبالنتيجة، أصبحت العلاقات بين المسيحيين والمسلمين تتسم بمزيد من العداء. وكانت الدولة والمسلمين في المدينة متوجسين من أن المسيحيين ربما يتعاونون مع الأعداء الأجانب.

وقد أدى ذلك إلى سلسلة من الصدامات المسلحة والتي وصلت إلى أوجها في مجازر الأرمن لعام ١٩١٥ والتي أدت في النهاية إلى تطهير عرقي كامل تقريباً (أو ردّة) المسيحيين. إن مجازر الأرمن بين ١٨٩٤-١٨٩٦، والتي شكلت طوراً حاسماً في هذه العملية، غالباً ما تُعزى إلى قوات الفرق الحميدية الكردية التي أسسها السلطان عبدالحميد الثاني. ولكن الأبحاث الجديدة تؤكد على دور المسلمين المدنيين من أبناء المنطقة في المجازر، حيث مجموعة منها ذات هوية إثنية غامضة. إن التهجير الجماعي وعمليات الإبادة الجماعية لعام ١٩١٥ طردت عمليا الجاليات الأرمنية من كردستان. وقد ترك نسطوريو وآشوريو وسط كردستان معاقلهم الجبلية لصالح إيران في تلك السنة أيضا. وقد جندهم البريطانيون كقوة لمحاربة العثمانيين أولاً ومن ثم وطّنوهم في شمالي العراق، وجعلوهم قوة شرطة واستعملوهم، من بين أشياء أخرى، ضد التمردات الكردية المسلحة. ولكن مجازر ١٩٣٣ (من قبل الكرد المحليين وضباط الجيش الوطني العراقي) حطمت أعداداً كبيرة منهم، وقضت عليهم كقوة عسكرية.عانى السوريون الغربيون كثيراً أيضا في الحرب العالمية، وبعد تشكيل الدولة السورية عبرها كثيرون من تركيا واستقروا هناك. والجماعة المتبقية في جبال طور عابدين فقدوا أكثر أفرادها فعالية بسبب هجرة العمل إلى ألمانيا وبالتالي أصبحوا عرضة للاضطهاد من قبل جيرانهم المسلمين، والذي تسبب في هجرة جماعية من المنطقة.

بخلاف المسيحيين فإن يهوديي كردستان كانوا (حتى قيام دولة إسرائيل) لا يُعتبرون متعاونين مع القوى الأجنبية، ولم تكن أعدادهم كبيرة بحيث يشكلون قوة ذات أهمية. كانت علاقتهم مع الكرد على العموم ودية وإن لم تكن متكافئة، وهجرتهم إلى إسرائيل حوالي عام ١٩٥٠ لم تكن بسبب المعاملة التي لاقوها من جيرانهم الكرد. وفي دلالة ذات مغزى فإن

الجالية الكردستانية اليهودية في إسرائيل لديها مشاعر قوية تجاه الكرد .

لقد أعادت الجاليات السورية الشرقية والغربية تنظيم نفسها بشكل جيد في الشتات في أوربا وأمريكا الشمالية. لقد انبثقت حركة آشورية علمانية موحدة في أوربا تسعى إلى توحيد الجاليتين في أمة واحدة وتشجع العودة إلى بلاد ما بين النهرين ودخلت في نقاش مع الحركة الكردية حول قضايا التعددية السياسية والدينية والإثنية .وقد قامت الحركة الكردية بعدة خطوات تعبيراً عن ودهم: ففي برلمان كردستان العراق المستقل والبرلمان الكردي في المنفى هناك ممثلون آشوريون، كما أضافت محطة تلفزيون Med-TV الفضائية الكردية نشرات إخبارية باللغة الآرامية إلى برامجها.

لقد جعلت الجغرافيا من كردستان منطقة حاجزة سياسياً بين الإمبراطوريات المجاورة –اعتبارا من عام ١٥٠٠ تقريباً بين المناطق الداخلية للإمبراطوريتين العثمانية والصفوية، إيران القاجارية فيما بعد. كما كانت منطقة تنقل بين المناطق حيث اللغات الثلاث الرئيسية للإسلام العربية والتركية والفارسية تُحكى وتُكتب. مثل شيوخ القبائل والأمراء الصغار من الكرد، كيّف العلماء الكرد أنفسهم مع جيرانهم الأقوياء. فقد كان الكثير منهم يعرفون إضافة إلى الكردية والعربية والفارسية و/أو التركية، وهو ما مكّنهم من لعب دور الوسطاء بين المناطق الثقافية التي حددتها تلك اللغات. وقد أخذتهم مهنهم إلى أكثر من منطقة من تلك المناطق.

ولعل خير مثال على مهنة «دولية» لعالم كردي هو الملا الشهير كوراني (توفي سنة ١٤٨٨). وكان الملا قد وُلد في شهرزور في جنوبي كردستان وتلقى تعليمه الأولي من المعلمين المحليين. مع بلوغه سن الرشد، ذهب لطلب العلم إلى بغداد وديار بكر وحصن كيفا ودمشق والقدس والقاهرة– وهي مدن كانت تسيطر عليها قوى سياسية مختلفة. بعد مغادرته للقاهرة دُعي للدخول في خدمة الدولة العثمانية حيث أصبح المدرس الخاص للأمير محمد، الذي سيصبح في المستقبل السلطان محمد الفاتح، حيث وصل الملا كوراني أخير إلى أعلى منصب ديني في الإمبراطورية فأصبح أول مفتي لاستانبول. كما تم تعيين عدد آخر من العلماء الكرد كمدرسين في المدينتين المقدستين مكة والمدينة حيث استطاعوا أن يقوموا بفعالية بدور وسطاء ثقافيين بين المناطق التي تتكلم الفارسية والتركية والعربية. وقد ناقشتُ في إحدى مقالاتي السابقة تأثير العلماء الكرد على جزء بعيد من العالم الإسلامي: جنوب شرق آسيا.

في مدن كردستان أو المدن القريبة منها مثل ديار بكر، وحصن كيفا، وميافارقين (سيلفان)، وماردين، والموصل، وأربيل نجد مدارس مهيبة حيث يعود تاريخ بناء بعضها إلى أوائل القرن الثاني عشر أو القرن الرابع عشر. بُنيت هذه المدارس في أغلب الأحيان من قبل سلالات غير كردية حكمت تلك المدن والمنطقة. وهكذا أنشأ أفراد من سلالة آرتوكيد (التركية) المدرسة الخاتونية (القرن الثاني عشر) والزنجيرية (القرن الرابع عشر) إضافة إلى عدد من المدارس في ماردين والمدرسة المسعودية (القرن الثاني عشر أو الثالث عشر) في ديار بكر. تُنسب المدرسة الزنجيرية في ديار بكر وبشكل متباين أحياناً إلى سلالة آرتوكيد التركية الحاكمة في القرن الثاني عشر أو إلى حاكم كردي من السلالة الأيوبية في القرن الثالث عشر. وأنشأت السلالات الحاكمة فيما بعد مدارسها الخاصة. ومثل هذه المدارس جذبت طلاباً مثل الملا كوراني، وبصرف النظر عن خلفياتهم العرقية، نجدهم مذكورين في سير العرب والأتراك والفرس إضافة إلى علماء الكرد. هذه المدارس كانت مُعدّة أساساً لتثقيف العلماء الذين سوف يدخلون في مرحلة ما في خدمة الدولة كقضاة أو رجال إفتاء أو مدرسين. في ظل الحكم العثماني دُمِجت هذه المدارس تحت تنظيم مُدار مركزياً بمناهج ووظائف ثابتة تقريباً تضمن انتقال الطلاب والمدرسين من قسم إلى قسم آخر في الإمبراطورية. ورغم تمركزها في كردستان، فإنه لم يكن هناك كثير من الخصوصية الكردية فيها.

وقد أقام الحكام الذين احتفظوا بالحكم الذاتي داخل الإمبراطورية العثمانية مدارسهم الخاصة، التي يبدو أنها بقيت خارج نظام التعليم العثماني، ولاسيما في بدليس والجزيرة والعمادية التي كانت مراكز رئيسية للتعلم، وخرّجت علماء مشهورين. ولأن الكرد يتبعون المذهب الشافعي بينما المذهب الرسمي للإمبراطورية العثمانية هو المذهب الحنفي، فلابد أن المناهج في المدارس الكردية كانت مختلفة كثيراً عن المدارس العثمانية، على الأقل فيما يتعلق بالفقه.

الفرق الآخر بين المدارس العثمانية والمدارس الكردية يكمن في المكانة التي أُعطيت للغة الكردية–على الأقل في القرن السابع عشر حيث ارتبط اسم بعض المؤلفين مع تلك المدارس التي قدمت أدباً كردياً مزدهراً. (الأجيال السابقة كانت تكتب حصراً إما بالعربية أو الفارسية.) ملا أحمدي جزيري الذي علّم في المدرسة الحمراء في جزيرة [ابن عمر] هو مؤلف ديوان مشهور في الشعر الكردي العرفاني والذي يُقارن غالباً مع حافظ [الشيرازي]. أحمد خاني (توفي في ١٧٠٦ أو ١٧٠٧) أخذ قصة حب « مم و زين» الشعبية،وصاغها في قالب قصيدة طويلة مع الحفاظ على اسمها، وهو عمل أدبي عظيم متعدد المعاني و اعتبرته الأجيال اللاحقة ملحمة وطنية كردية. إضافة إلى هذا العمل الأدبي، كتب خاني عملين آخرين موجهين للتعليم الابتدائي وهما: قاموس عربي–كردي مكتوب في قالب شعري عنوانه نوبهار وكتاب آخر بسيط بالكردية حول العقيدة عنوانه (عقيدة الإيمان). يعتبر خاني وجزيري أشهر مؤلفين كرديين في تلك الفترة، ولكنهما ليسا الوحيدين بأي حال من الأحوال. فالرحالة التركي المعروف (أوليا جلبي)الذي زار الكثير من هذه الإمارات في أواسط القرن السابع عشر، يعطي وصفاً حياً عن الحياة الدينية والثقافية في بدليس والجزيرة والعمادية ويتكلم عن علماء يكتبون الشعر بالكردية .

بالإضافة إلى المدارس الحكومية وتلك

التي رعتها الأسر الكردية الحاكمة، كان هناك منذ وقت طويل نوع آخر من المدارس في كردستان، أكثر تواضعاً ولكن أكثر استقلالية، أي تلك المدارس الملحقة بجوامع القرى والتي كان يديرها ملالي حازوا شهرة واسعة في التعلم. هذه المدارس لم تكن تعلم طلابها من أجل مناصب رسمية ولكن لكي يصبحوا رجال دين (ملالي) لخدمة سكان القرية وربما البلدات الصغيرة. وقد لعب هؤلاء دوراً رئيسياً في نشوء الوعي القومي الكردي وفي تكامل أجزاء مختلفة من كردستان، فطلاب كل مدرسة كانوا من مناطق وخلفيات اجتماعية مختلفة، والوشائج القبلية لم تكن ذات أهمية كبيرة، إضافة إلى ذلك تم تشذيب اللغة الكردية فيها.

فترة الازدهار الثانية للأدب الكردي، والتي بدأت في القرن التاسع عشر في جنوبي كردستان هذه المرة، كانت وثيقة الصلة أيضا بعالم هذه المدارس. فأول شاعر قومي في اللهجة الكردية السورانية، حاج قادر كوي، وأكبر شاعرين دينيين، مولوي ومهوي، برزوا من هذه البيئة ووجدوا هناك أيضاً أول قراء لهم. فقصائد مولوي التي كُتبت باللهجة الكورانية لا تزال إلى يومنا هذا تلقى رواجاً بين الملالي الكرد. ومن الجدير بالملاحظة أنه، رغم كونه مسلماً أصولياً، يعبر عن أفكار تُذّكر بأهل الحق كالإيمان بالتقمص، مثلاً.

كما برز رجل آخر من عالم المدارس الكردية في كردستان الشمالية ألا وهو الشيخ سعيد نورسي (١٨٧٦-١٩٦٠) الذي بات معروفاً كمؤلف لكتابات دينية أصلية ومؤثرة ويعتبر الجد الأعلى لحركة النورسية في تركيا. هناك جانب غير معروف كثيراً من شخصية سعيد النورسي ألا وهو التزامه الصارم ككردي لإنهاض شعبه الكردي وتخليصه من حالة التخلف العامة. إن الفترة الأولى من حياته المهنية، والتي كان من خلالها مجادلاً شديداً وناشطاً عُرف باسم سعيد الكردي و منهمكاً في الجمعيات القومية الكردية وفي مدرسة كردية في استانبول في ١٩٠٠-١٩١٠، هي التي أُبقيت طي الكتمان بشدة من قبل قيادة النورسية لدرجة أنها وضعت رقابة على كل كتابات سعيد النورسي وحذفت النشاطات الرئيسية من سيرته الذاتية. كان سعيد النورسي شخصية غير عادية وفريدة، ولكن بدمج الالتزام الشديد بالإسلام مع تعلق عميق بالشعب الكردي فإنه يعكس موقفاً كان منتشراً إلى حد ما بين رجال الدين الكرد.

بعد إقامة الجمهورية التركية بوقت قصير في عام ١٩٢٣ أمرت الحكومة بإغلاق المدارس التقليدية كافة. ويبدو أن الحظر قد كان فعّالاً تماماً في غربي تركيا ولكن أخف وطأة من ذلك في الشرق الكردي حيث استمرت الكثير من المدارس بالعمل سراً حتى السبعينيات. لقد قوِّي الحظر في الواقع العلاقة بين المدارس والهوية الكردية، والتي قُمعت في الوقت نفسه. لقد كان الملالي الكرد مميزين بين أولئك الذين أبقوا الشعور بالهوية القومية الكردية حياً خلال تلك السنوات التي فرضت فيها الدولة انصهاراً ثقافياً.

الطرق الصوفية وأدوارها الاجتماعية والسياسية

لقد كانت الطرق الصوفية حاضرة وبقوة في كردستان، والشيخ المتصوف ربما يكون أكثر تمثيلاً للإسلام الكردي من الخبير الشرعي. إن أكثر العلماء شهرة في التاريخ الكردي كانوا متصوفة، والكثير من هؤلاء المتصوفين كسبوا تأثيراً سياسيا كبيراً. كانت طرق صوفية مختلفة حاضرة في كردستان في فترة أو أخرى، ولكن في القرون القليلة الماضية سيطر على المشهد الطريقتان القادرية والنقشبندية. لقد لعبت الطرق في مراحل معينة أدواراً سياسية واجتماعية هامة لأنها تمثل نوعاً من التنظيم الاجتماعي المستقل عن القبائل (وعن الدولة أيضاً).

إن الطرق الصوفية تشبه، إلى حد ما، مدرسة غير رسمية حيث تعرض مجموعة من الممارسات الروحية المعايرة والطرق الباطنية التي يمارسها المبتدئ في الصوفية تحت

إشراف شخص خبير. وقد طوّر هذه الطرق مؤسسو هذه الطرق ولكن يُعتقد أنها تعتمد على تعليمات أوصاها الرسول نفسه شفوياً. يُسمح للصوفيين البارعين فقط أن يعلموا هذه الممارسات، وهم ما يُطلق عليهم اسم «المرشد» أو شيخ في كردستان. وهذا ليس لقباً غير رسمي إذ أن المرء يصبح شيخاً بإجازة مكتوبة من معلمه شخصياً، وواحد من شروطها هو البقاء لفترة طويلة من التعلم تحت إشراف مدرس، والإجازة لا تُعطى بشكل أوتوماتيكي.

في كردستان نلاحظ حول الشيخ الواحد تنوعاً في المريدين. فأكثرهم إخلاصاً يعيش مع الشيخ، في منزله، في «زاوية» أو على الأقل بالقرب منه قدر الإمكان وهم يشاركون في تلاوة الخطب والتأمل اليومي. هناك حلقة أوسع من المريدين الذين أُدخِلوا أيضا إلى الطريقة والذين يجتمعون دورياً تقريبا من أجل صلوات جماعية بإمامة الشيخ أو خليفته. إن الشيوخ الذين لهم مريدون ويعيشون في مناطق نائية عادة ما يعينون خليفة أو أكثر من بين أكثر «طلابه» تقدماً في التحصيل العلمي. إن مجموعة كبيرة من المريدين لا تشارك بشكل فعّال في الممارسات الباطنية ويمكن ألا يُقبلوا في الطريقة ولكنهم ينجذبون إلى شخصية الشيخ الكاريزماتية. على عكس العلماء يمكن أن يقوم الشيخ بأعمال الرعي والسحر لإنجاز أعمال من المعجزات. حيث تتم استشارتهم في الأمور الأخلاقية والسياسية، ويتصرفون على أساس أنهم يشفون من الأمراض الجسدية والعقلية، ويهدئون من روع الأقرباء المتخاصمين. ويُعتقد أن مجرد حضورهم يجلب البركة كما يُعتقد أن لهم قوة الشفاعة عند الله.

في كردستان هناك ميل لأن يكون منصب الشيخ متوارثاً. فكل شيوخ الطريقة القادرية في كردستان الجنوبية ينتمون إلى عائلتين فقط، البرزنجية والطالبانية. لقد اتسع مدى الطريقة النقشبندية بشكل سريع في القرن التاسع عشر، جزئياً على حساب الطريقة القادرية وبالتحديد لأن الكثير ممن مُنِحوا الإجازات لم يكونوا من أبناء الشيوخ. فقد درّب مولانا خالد ذي الشخصية الكاريزماتية، وهو كردي من منطقة السليمانية، والذي درس مع واحد من أعظم أساتذة الطريقة النقشبندية الهنود، عدد كبيراً من الفقهاء وعيّن أكثر من ثلاثين شيخاً في مناطق مختلفة من كردستان (إضافة إلى عدد أكبر من الخلفاء الذين تم تعيينهم في أجزاء مختلفة من الإمبراطورية العثمانية). ولكن في الأجيال اللاحقة، أصبحت هناك نزعة بين الكرد النقشبنديين لأن يكون منصب الشيخ وراثياً أيضاً. وبالنتيجة تطورت الكثير من فروع الطريقة إلى عشائر مستقلة تقريباً .وربما يمثل البرزانيون أبرز مثال في هذا السياق. لقد جذب شيوخ بارزان مريدين من أصول مختلفة، البعض منهم من أصول قبلية ولكن الأغلبية منهم فلاحون غير قبليين ممن عاشوا من قبل في أو قرب شيوخ قرية بارزان أو استوطنوا هناك فيما بعد. لقد تميزت الجماعة بشعور قوي بالمساواتية والرغبة في قبول الغرباء كأعضاء، ولكن في أثناء النزاعات مع القبائل المجاورة كانت تتصرف كقبيلة. وجماعة «حقا» التي ذُكرت أعلاه مثال آخر في هذا المجال.

إن الطريقة النقشبندية لم تتسع بسرعة في النصف الأول من القرن التاسع عشر، بل زادت أهميتها السياسية أيضاً. فبحلول نهاية ذلك القرن نجد أن شيوخا من الطريقة النقشبندية قد شغلوا مناصب هامة في بقاع كثيرة من كردستان. وهذا الشيء مرتبط بتطورات سياسية رئيسية أخرى في تلك الفترة. ففي العقود الأولى من القرن ألغت الإصلاحات الإدارية آخر الإمارات الكردية المتمتعة بالحكم الذاتي وأخضعت كل كردستان لحكام يتم تعيينهم مركزياً. لقد افتقر هؤلاء الحكام إلى السلطة الأخلاقية التي كانت لدى الأمراء الكرد، ولم يستطيعوا أن يبقوا النزاعات القبلية تحت السيطرة، كما فعل الأمراء الكرد. وقد تميزت العقود التالية بتزايد متواصل في العنف والنزاع، وتفاقمت حالة اللاستقرار نتيجة سلسلة هزائم ألحقتها القوى الأوربية بالإمبراطورية العثمانية

والنشاطات الواضحة للبعثات التبشيرية بين الجاليات المسيحية المحلية. وهذا الموقف تحديداً هو الذي أقحم الشيوخ كوسطاء في تلك النزاعات. وبحكم سلطتهم المستقلة عن الانتماء القبلي وتجاوز مريديهم للحدود القبلية، فإن الشيوخ كانوا في موقع جيد لحل النزاعات إما من خلال التوسط بين الأطراف المتنازعة أو ببساطة من خلال فرض حل عليها. وقد أصبح البعض من هؤلاء الشيوخ دهاة سياسيين تمكنوا من فرض سلطتهم على شيوخ قبائل أكبر في مناطقهم. وقد أصبحوا في النهاية أكثر الناس قبولاً للتحدث باسم الكرد قاطبة .

لذلك فإنه ليس من باب الصدفة أن تكون أولى الانتفاضات الكردية ذات البعد القومي بقيادة متصوفة أو شيوخ: مثل الانتفاضات الكبرى بقيادة الشيخ عبيد الله (١٨٨٠) وشيوخ بارزان في وسط كردستان، والشيخ سعيد (١٩٢٥) في الشمال، والشيخ محمود برزنجي (١٩١٩، ١٩٢٢ و١٩٣١) في كردستان الجنوبية إضافة إلى انتفاضات ثانوية أخرى. وكان ينبغي على القوميين العلمانيين أن يدخلوا في تحالفات لمدة طويلة مع هؤلاء الشيوخ لأن هؤلاء فقط كانوا قادرين على تعبئة وحشد الجماهير. وهذا الشيء لم يكن فقط في أوقات الثورات. فالشيخ عبيدالله، ابن الشيخ عبدالقادر، الذي استقر في استانبول بعد ثورة تركيا الفتاة لعام ١٩٠٨، لعب دوراً قيادياً في الجمعيات الكردية التي تأسست هناك، وقد كان هو القائد الوحيد الذي تستمع إليه الطبقة العاملة في استانبول، في حين كان المثقفون العلمانيون ذوي الثقافة الحديثة مقطوعي الصلة مع تلك الدائرة الانتخابية.

في القرن الحالي تم توجيه نقد لاذع للطرق الصوفية من جهات مختلفة: من قبل المصلحين المسلمين، من قبل الساسة ذوي الميول التحديثية ومن قبل المثقفين القوميين الكرد أيضا. رفض الشيخ سعيد النورسي، الذي كان مدرسوه يشتملون على شيخ من الطريقة النقشبندية والذي تعبّر كتاباته عن روح صوفية، الفرق الصوفية حينما عملت في كردستان بما في ذلك الممارسات السحرية والخرافية التي ارتبطت بهم والتبجيل اللاعقلاني للشيوخ الوراثيين. (تسمى الحركة النورسية، التي انتظم فيها مريدوه، غالباً ما يسمون في تركيا باسم tarikat أو الطريقة الصوفية، ولكن ليس لها قيادة وراثية ولا تنغمس في أعمال «الذكر» أو التلاوة الجماعية.)

اعتبرت تركيا الفتاة وخلفاؤها الكماليون أن الطرق الصوفية مرتع للخرافة والرجعية، وعقبة في طريق التقدم. وكانت جمعيات بعض الشيوخ ذوي الميول القومية الكردية موضع شك أكبر. وقد كانت ثورة الشيخ سعيد القشة التي قصمت ظهر البعير. فقد حظّرت الحكومة التركية في غضون أشهر جميع الطرق الصوفية. لقد أضر الحظر بشكل خاص بالطرق المدينية التي كان ينبغي عليها أن تعلق جميع نشاطاتها. ومن المفارقة بمكان أن بعض الشيوخ الكرد،وخاصة أولئك الذين تعاونوا مع الحكومة، قد حافظوا على مكانتهم الاجتماعية.إن الانتقال إلى ديمقراطية تشارك فيها عدة أحزاب والانتخابات العامة في أعقاب الحرب العالمية الثانية جعلت من الشيوخ مصدراً أساسياً لكسب الأصوات للأحزاب المحافظة حيث أصبح الكثير من الشيوخ الكرد أعضاء في البرلمان. في فترة ما بعد الحرب، كان بعض أشد المنتقدين للشيوخ الكرد هم المثقفون العلمانيون الكرد الذين ألقوا اللوم على الشيوخ في إبقاء سكان القرى جهلاء واستغلالهم اقتصادياً وبيعهم للدولة مقابل مزيد من النفوذ والمال .

إن الحظر على الطرق الصوفية في تركيا كان يصبح أقل حدة بشكل تدريجي وبحلول الثمانينيات كان بإمكان الطرق الصوفية أن تمارس نشاطها علانيةً مرة أخرى. لقد خفّ ارتباط الطريقة النقشبندية بالقومية الكردية وخاصة في المناطق التي يلتقي فيها السكان الأتراك والأكراد، والعلويين والسنة. والواقع أن الكثير من الشيوخ في هذه المناطق انتسبوا، ابتداء من أواسط السبعينيات، إلى حزب العمل القومي التركي الفاشي رغم أن أغلبية مريديهم في بعض الحالات لا يزالون من الأكراد. في حين جذب بعض الشيوخ الكرد الآخرين أعداداً كبيرة من التلاميذ غير الكرد. ويوجد الآن في استانبول عدة فروع كردية من الطريقة النقشبندية إما لأن الشيخ نفسه انتقل إلى هناك أو لأن مجموعة من مريديه نظموا أنفسهم هناك.

حينما حظّرت الطرق الصوفية في تركيا، هاجر قسم من الشيوخ الكرد إلى سورية التي اتبعت في ظل الانتداب الفرنسي إسلاماً وسياسات كردية أكثر ليبرالية من جارتها تركيا. إن في شمال شرق سورية التي استقر فيها أكراد آخرون اضطروا إلى مغادرة تركيا لسبب أو لآخر، نسبة عالية من الشيوخ لكل مجموعة من السكان. ولا يزال يحتفظ الكثير منهم بأعداد كبيرة من المريدين في القسم التركي من كردستان، ويقومون،منذ أن أصبح ذلك ممكناً مرة أخرى، بزيارات سنوية إلى المقاطعات الشمالية للحدود.

القومية الإثنية مقابل الدينية

يُعد الإسلام بالنسبة لكثير من الكرد المسلمين السنة الورعين عنصراً أساسيا من الهوية الكردية. إنهم لا يعتبرون اليزيديين كأكراد خلّص حتى وإن كان معظم اليزيديين لا يعرفون سوى الكردية. وفي بعض الأحيان لا يُعترف بالعلويين الذين يتكلمون الكردية أو الزازية كأكراد. إن هذا الرأي ليس هو الغالب دائماً فقد تحدث المؤلفون الكرد والترك من القرن السادس عشر- القرن التاسع عشر بحرية عن اليزيديين أو القزلباش الأكراد.وقد عاملت الإدارة العثمانية عرضياً كلتا الجماعتين على أنهما مسلمون من أجل الضرائب والأغراض القانونية الأخرى-والتي لم تمنع من عمليات اضطهاد من حين لآخر. إن الحدود الاجتماعية الفاصلة بين الجماعات الدينية المختلفة كانت موجودة على الدوام، ولكن الأهمية التي نُسبت إليها تغير من وقت لآخر وبشكل كبير. وقد ازدادت في العقدين الأخيرين لدرجة أن بعض الجماعات اليزيدية والعلوية أعلنت عن نفسها كقوميات مميزة، ومختلفة عن الكرد السنة.

لقد لوحظ وبشكل متكرر بأن أول انتفاضة كردية كبيرة في تركيا بقيادة شيخ سعيد في عام ١٩٢٥ كانت انتفاضة للمسلمين السنة من متكلمي اللهجة الزازية والتي عارضها بشكل فعّال بعض القبائل العلوية المجاورة التي تتكلم الزازية أيضاً، وأن ثورة ١٩٣٧ في منطقة ديرسم شملت العلويين فقط ولم تلق دعماً من لدن الكرد السنة. وقد وُضعت الهوية القومية الكردية لكلتا الثورتين موضع التساؤل من قبل الباحثين والسياسيين من مشارب مختلفة. ألم تكن هذه انتفاضات سنية مسلمة أو علوية أكثر من كونها ثورات قومية كردية؟ في كلتا الحالتين نجد أن القيادة على الأقل مؤلفة من عدة شخصيات مدنية مثقفة تحمل مثل القومية الكردية العليا، ولكن محاولاتهم لتجاوز حدود الجماعة من أجل تعبئة الجماهير قد أخفقت.بالنسبة لمعظم المشتركين لم تكن الثورتان مختلفتان كثيراً عن سابقاتها والتي مثلت مقاومة ضد تدخل الحكومة المركزية في الشؤون المحلية. وكان الدفاع عن الإسلام دافعاً قوياً آخر في ثورة شيخ سعيد. من ناحية أخرى، ربما كانت ثورة ديرسم قد استعملت رموزاً علوية ولكنها لم تكن أبداً انتفاضة باسم العلوية. لقد تصادف أن كانت الانتفاضة للعلويين ولذلك لم تلق الكثير من التضامن من قبل الكرد السنة.

إن مواقف العلويين من متكلمي الكردية والزازية من الهوية الكردية، التي ارتبطت في نظر الكثيرين بالإسلام السني، بقيت متناقضة في العقود التالية. لقد كان لدى العلويين أسبابهم لأن يكونوا علمانيين، حيث دعم الكثير من المثقفين الكرد العلويين ساندوا الكمالية لأن الأصولية الإسلامية في نظرهم شكلت تهديداً أكبر لجماعتهم. وكان الشبان العلويون في الستينيات والسبعينيات [من القرن الماضي] من الأتراك والكرد يفضلون السياسات اليسارية أكثر من القومية-ولكن في معظم التنظيمات الكردية التي برزت في ذلك الحين، نجد العلويين من القياديين البارزين أيضاً. بعد ثورة

شيخ سعيد فقدت القومية الكردية علاقتها الواضحة مع الإسلام حتى الثمانينيات. ورغم أن الشعور القومي على العموم أقوى بين الكرد السنة منه لدى العلويين وأهل الحق واليزيديين والشيعة، ورغم أن الأغلبية من الكرد السنة من الأتقياء، فإن كل الجمعيات الثقافية والأحزاب السياسية التي نشأت كانت علمانية وبإصرار. من ناحية أخرى، لم يؤكد الكرد النشيطين كمسلمين ملتزمين بهويتهم العرقية الكردية ودخلوا في أغلب الأحيان في صراع مع الحركة الكردية، التي كانت، وخاصة في التسعينيات، متأثرة وبقوة بالماركسية. وبزوال الماركسية كقوة سياسية عاد الإسلام إلى السياسة الكردية كعامل هام في سياسة الهوية الكردية تجاه الإسلام.

وقد لعبت الثورة الإيرانية دون شك دوراً كبيراً في هذه العملية، رغم أن تأثيرها لم يكن مباشراً. في غضون الأشهر الأولى من عمر الثورة، لم يكن أكراد إيران معترف بهم وبرز من بينهم عدد من رجال الدين كناطقين باسمهم ولاسيما الملا عزالدين الحسيني في مهاباد والمتدرب في جامع الأزهر العالم أحمد مفتي زاده في سنندج. ولكن سرعان ما انتقلت السيطرة على الأحداث والقيادة من رجال الدين هؤلاء إلى ساسة كرد علمانيين الذين كانوا قد عادوا للتو من السجن أو من المنفى والذين نجحوا في إعادة تنظيم الأحزاب الكردية (العلمانية واليسارية) التي كانت في حالة سبات. وكان الحسيني في مرحلة مبكرة قد تحالف مع اليسار الراديكالي وتبنى نهجاً إسلامياً شعبياً اشتراكياً مع التأكيد القوي على حق تقرير المصير لكل الجماعات الاثنو-لغوية في إيران. وحينما أرسلت الحكومة المركزية جيشها وقوات الشيعة غير النظامية للاستيلاء على كردستان كانت هناك حركات مقاومة كردية سنية لمدة قصيرة بقيادة شقيق عزالدين الحسيني في «بانه» والشيخ النقشبنديّ أوصمان في منطقة هورامان، ولكن حينما بدأت حرب العصابات بشكل جدي فقط بقيت القوات العلمانية في الميدان.

خلال الحرب العراقية-الإيرانية أعطت إيران الدعم لبعض الأحزاب الكردية العلمانية العراقية (حدك أولاً ومن ثم أوك أيضاً) ولكنها بذلت جهودها من أجل نشوء حركة إسلامية بين أكراد العراق. وقد بذلت العربية السعودية، التي شعرت بأنها مهددة بالثورة الإيرانية، جهوداً مماثلة وإن كان الهدف منها هو إعاقة الجهود الإيرانية.لقد برزت الحركة الإسلامية في كردستان بقيادة الملا أوصمان بن عبدالعزيز من حلبجة في حوالي عام ١٩٥٧ وأصبح عاملا سياسياً هاماً في أوائل عام ١٩٩٠. ويبدو أنها أرادت أن توازن الجماعات الدينية الإيرانية والسعودية، رغم أن الملا أوصمان نفسه كانت له علاقات سابقة مع حركة الإخوان المسلمين في مصر الموجهة نحو السعوديين كما هو واضح.دعمت إيران أيضاً الشيخ النقشبنديّ محمد خالد بارزاني، ابن عم مسعود البارزاني، في إنشاء قوة مسلحة وأُطلق عليه اسم «حزب الله الكردي» وهو من طرد أنصار الحزب الشيوعي العراقي والحزب الاشتراكي الكردستاني من منطقة بادينان. وفي التسعينيات برز حزب الله الثوري بقيادة أدهم البارزاني المدعوم من إيران أيضا، ويبدو أنه قد انشق عن الحركة السابقة. لحد الآن يبدو أن الحركة الإسلامية قد أوجدت قاعدة ثابتة من الدعم الشعبي وأصبحت منافساً حقيقياً للأحزاب العلمانية.

وفي تركيا بدأ تنظيم حزب الله السري، مع ارتباطات بإيران، بالظهور في الثمانينيات. وقد وقف جناح من الحركة بقوة ضد القومية العلمانية ودخل في التسعينيات في صراع عنيف مع PKK حيث تعاونت في أثنائها مع التنظيمات التركية المناوئة للعصيان. ولكن جناح آخر لـ» حزب الله» طوّر نوعاً من الإسلام يوّفق بين الإسلام والقومية الكردية.

في المقابل تبنى الـPKK موقفاً أكثر احتراماً للإسلام. مثل كل الحركات اليسارية في تركيا، لم يكن PKK في البداية علمانياً

فحسب، بل كان ضد الدين تماماً. ولكن عندما وجد مدى ارتباط الكثير من القرويين الكرد بالدين، تخلى عن موقفه السابق وأوجد فرعيين إسلاميين هما اتحاد المتدينين واتحاد الأئمة الوطنيين. وحتى لا يستبعد الكرد العلويين واليزيديين بسبب هذا الاقتراح الإسلامي السني، أنشأ PKK جمعية يزيدية وأخرى علوية.

من بين الحركات الدينية المختلفة في كردستان تركيا، ربما يكون لدى الحركة النورسية [نسبة إلى سعيد النورسي-م] أكبر عدد من الأتباع. ربما تكون الحركة النورسية هي الأهم في كل تركيا، ولكن ظهرت عدد من الانشقاقات فيها مؤخراً وبنتيجتها عادت القومية إلى قلب الحركة. إن التيار السائد في الحركة (الذي ارتبط بصحيفة Yeni Asya) كان على الدوام بمعزل عن السياسات العملية، وبسبب نظرته أن الإسلام يتجاوز كل الانقسامات العرقية والقومية قلل من أهمية الجانب الكردي في مؤسس الحركة. في حين اختار جناح آخر من الحركة النورسية بقيادة فتح الله كولن Fethullah Gülen ولسان حاله صحيفة «الزمان» التكيّف مع النخبة التركية العسكرية العلمانية والبيروقراطية وتبني موقف تركي قومي واضح. رداً على ذلك بدأت جماعات كردية من النورسية تؤكد على هوياتها القومية وأظهرت الجانب الكردي في سيرة سعيد النورسي الذي كان قد بقي طي الكتمان حتى ذلك الوقت. أكثر هذه الجماعات راديكالية هي جماعة تُلقّب بـ«مد-زهرا» (نسبة إلى مدرسة الزهراء التي أراد سعيد النورسي إقامتها في كردستان مع إشارة إلى أجداد الكرد المفترضين: الميديين.)وصحيفتها Dava مثال واضح على اعتناق القومية الكردية، فقد اختارت زعيم أول انتفاضة كبيرة في تركيا، الشيخ سعيد، كسلف لسعيد النورسي، وقد كتبت تقارير متعاطفة مع الحركة الإسلامية في كردستان العراق. وصحيفة نوبهار، الأقل تسيّساً والأكثر فكرية في المضمون، دعامة أساسية في إحياء الثقافة الكردية. فالمساهمون فيها قريبون من الحركة النورسية، ولكنهم في الوقت نفسه مثقفون أكراد. تركّز الصحيفة كثيرا على الحوار طالبة شركاء ليس من بين الجماعات الإسلامية الأخرى بالدرجة الأولى، بل بين الجماعات الكردية العلمانية.

إن بروز هذه الجماعات الكردية ضمن الحركة النورسية، بمطالبها التي تتصل بالشعب الكردي كان جزء من فكر وعمل الشيخ سعيد النورسي مثلما كان حماية الإسلام وإحيائه، تبدو وكأنها إشارة إلى اتجاه عام. لقد كانت النظرة السائدة لدى الحركة الإسلامية هي أن استبعاد الإثنية (ولهذا السبب كان ينبغي رفض كل أشكال التمييز الإثني والإثنو-قومي أيضا.) ولكن في الثمانينيات فرضت الهويات القومية والإثنية نفسها على الحركة الإسلامية، على الأقل في تركيا. فمن ناحية حاولت القومية التركية أن تكّيف الإسلام على شكل «تركيب تركي-إسلامي»، والذي أصبح تقريباً الإيديولوجية الجديدة للدولة. فأشخاص من أصول تركية أصبحوا أعضاء بارزين في حزب الرفاه الإسلامي، الجناح المؤثر في الحركة النورسية بقيادة فتح الله كولن لم يتبن خطاباً تركياً قومياً فحسب، بل أيضاً وسع نشاطاته في مناطق وسط آسيا التي تتكلم التركية. هذا، من ناحية أخرى، أجبر الإسلاميين الكرد على أن يطالبوا بهوية مميزة خاصة بهم في الحركة الإسلامية.لقد أصبحت السياسة والمجتمع الكرديين أكثر إسلاماً بالنظر لبروز تنظيمات إسلامية-سياسية أكثر وحقيقة الأمر هو أن حتى الحركات السياسية العلمانية باتت ملزمة أن تعترف وتُظهر احتراماً للإسلام. من ناحية أخرى أصبحت الحركات الإسلامية في كردستان أكثر كرديةً مما كانت عليه في الماضي.

اللغة الكردية

اللغة مظهر من أهم مظاهر استقلال الشخصية القومية لأي مجموعة بشرية كانت، فإذا كانت اللغة العربية المقوم الرئيس للوجود العربي، وإذا كانت الفرنسية المقوم الرئيس للوجود الفرنسي.. وإلى ما هنالك، فالكردية هي المقوم الرئيسي للوجود الكردي. فالمجموعات البشرية على اختلافها عندما تستخدم لغة بديلة عن لغتها الأصلية، يخلق بذلك في المجتمع الواحد جماعات ذوات ثقافات مختلفة، وقد تزول بذلك اللغة الأصلية.

مروان بركات

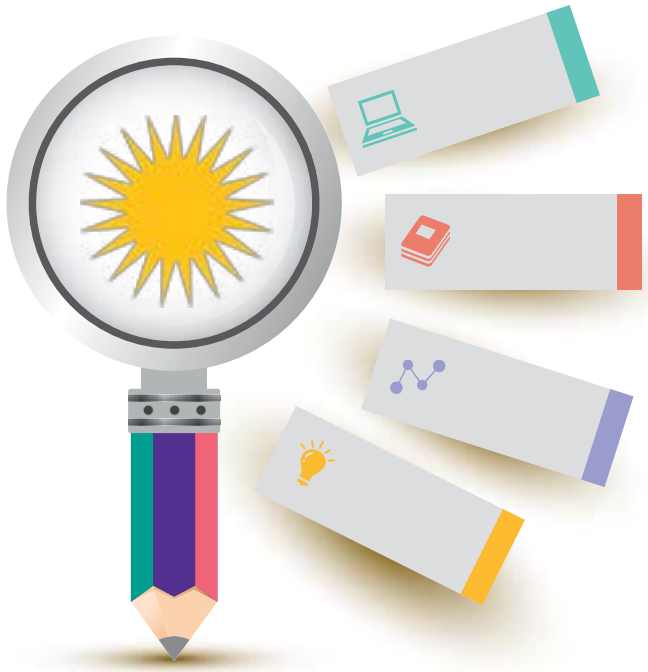

تعتبر اللغة الكردية إحدى اللغات العالمية، على أي مقياس اتخذه الإنسان. فإن أراد كثرة المتحدثين بها، فالكردية اللسان القومي لما يزيد عن ثلاثين مليون كردي، وهي اللسان المقدس لكتاب الزرادشتية المقدس (أفستا)، وهي لسان الكتب والأقوال الأزداهية المقدسة، يتخذون منه أداة لصلواتهم وشعائرهم الدينية. وإن قاسها الإنسان على التاريخ، وجدها قد رسخت قروناً قبل الميلاد، وكانت لغة الإمبراطوريات، وقروناً أخرى بعد الميلاد لبعض الدول والإمارات الكردية التي أقيمت على أرض كردستان، وهي أنتجت أدباً متعدد الأجناس الفنية، وهي غير قاصرة عن الإسهام في إنتاج الثقافة الحديثة إن أهتم بها.

ويجحف من يصف اللغة الكردية بالقصور التام والتخلف، أو أنها غير قادرة بالنهوض في عصر العولمة والإنترنت، وسيطرة اللغات الأجنبية على مختلف فروع العلوم العصرية. مخطئ وجاهل من يحاول تشويه صورة اللغة الكردية، أو يخشى أن يُقْدِمَ على تعلمها واستخدامها. ولن أعتمد فيما أقول على أوهام أو أماني، بل أرتكز فيما أقول على ما يُقَدم بها من نتاجات بمختلف العلوم، وبخاصة في العقدين الأخيرين.

فاللغة الكردية بحكم نشأتها الفطرية وأصالة الإنسان الذي أبدعها في بيئة مؤهلة لإقامة مختلف الحضارات الإنسانية، ولغيره من الأسباب حافظت حتى الآن على أصالتها وفطرتها. وهي قادرة بأن تقوم بسد الحاجة من أبنية الكلام على أتم وجه، فترى المعنى الواحد قد وضعت له ألفاظ متعددة. فالمخاطب بها إذا غاب عنه لفظ يأتي بمرادفه، وإذا تعسر عليه النطق بكلمة عدل عنها إلى غيرها، وهذا دليل على غزارة مفرداتها.

اللغة الكردية الحالية حسب الدراسات التاريخية واللغوية هي امتداد من اللغة الميدية التي كانت لغة المؤسسات للإمبراطورية الميدية، ولغة الدين الأزداهي والزرادشتي في المجتمع الميدي بعد تأسيس إمبراطوريتهم في ٦١٢ ق.م. وقبل ذلك كانت لغة الحوريين والميتانيين، وكانت لغة راقية يتكلم بها قسم كبير من سكان بلاد ما بين النهرين وصولاً إلى البحر الأبيض المتوسط، وكانت لغة التدوين والمؤسسات في تلك الفترة، وخلفت آثاراً كتابية تتسع لوضع معجم كبير.

فقد بلغت في المرحلة الميدية مساحة البلدان الناطقة بالكردية نحو/ ٦٥٠ / ألف كيلو متر مربع. وكان فوق ذلك منزلة اللغة الدولية

في كثير من المناطق المجاورة لبلادها. يقول مينورسكي: ((لو لم يكن الأكراد أحفاد الميديين فماذا حل بشعب عريق جبار، ومن أين انبثقت هذه الشبكة الواسعة من القبائل الكردية التي تتكلم لغة موحدة ومتميزة عن اللغات الإيرانية الأخرى)). احتفظت الكردية بكثير من أصولها الميدية القديمة وخاصة في مفرداتها، وأنه لا تكاد تعادلها في ذلك أي لغة من اللغات الهندو – أوروبية، ويرجع السبب في هذا إلى نشأتها في أقدم موطن للأكراد ميزوبوتاميا (كردستان) الذي كان منذ القدم كثيف السكان، خصب الأرض، موفور الخيرات ويخترقه نهران كبيران وهما دجلة والفرات.

ومن ناحية أخرى بقيت لغة سكان المناطق الجبلية التي كانت شبه منعزلة ومستقلة بعيدة عن عوامل التأثير المختلفة بعد سقوط الإمبراطورية الميدية، والعامل الثالث الأساسي الذي جعلت الكردية تحتفظ بأصولها القديمة كونها كانت لغة الدين الأزداهي والزرادشتي. وفيما يلي مقارنة بعض الكلمات الميدية القديمة بالمفردات الكردية الحديثة:

المفردات الكردية الحديثة. المفردات الميدية

Beg	Baga
Zor	Zore
Birêz	Bireyzemen

ان الكتاب الزرادشتي المقدس (أفستا) كتب باللغة الكردية أيام الإمبراطورية الميدية، حتى أن المترجمين الفرس كان يصعب عليهم ترجمة (أفستا) إلى الفارسية.

وفيما يلي الجدول رقم (١) يبين مطابقة الكلمات الكردية والأفستية. والجدول رقم (٢) يبين الفرق البسيط بين الأفستية والكردية الحالية.

الجدول رقم (١)
الجدول رقم (٢)

الكردية	الأفستية
Deşt	hesp
	yezdan
	zemîn
	hesp
	yezdan
	zemîn

الكردية	الأفستية
Ewr	ewre
genî	
beraz	
berf	
gen	
weraz	
werf	

أما العلامة محمد أمين زكي صاحب كتاب خلاصة كرد وكردستان يبين العلاقة بين اللغة الأفستية واللغة الكردية المعاصرة كما في الجدول الأتي:

Mezin, berz, masî, tûj, hêştir, mêş zanîn, ez	للكبير
Maz, bereza, masya, tûj, hoştar, mexşe, zan, ez	فلأنثية

اللغة الكردية تحتاج إلى حياة وقوة

اللغة الكردية كغيرها من اللغات لها حرمتها وقدسيتها لدى الناطقين بها من حيث تاريخها، ولها حكمة وضرورة في الحاضر. بقيت مع الزمن تعلو حيناً وتهبط حيناً آخر. أدت ألواناً من ضروب العلم والمعرفة خلال أزمنة مختلفة. فلها قديمها الخالد، ولكن حاضرها موهن أصابها الكثير من الأمراض وهي تحتاج إلى وسائل لشفائها كي تزدهر أكثر... تحتاج إلى حياة وقوة... شمول وكفاية... كي تتمكن من مواجهة حاجات العصر ومقتضيات النهوض والتقدم، وأن تكون لغة العلم والثقافة.

فإذا نهضت الكردية كما يجب ستكون أكثر عذوبة وسهولة في اللفظ والأسلوب، وستسير مع الزمن، وستساهم في مجمل مناحي التطور. وليس هذا بالأمر اليسير والهين، وذلك بسبب تأخرها في مواكبة العلوم وما تعانيها من أمراض في مجمل مناحي حياتها، وأرى أن الجمود والبطء والتردد في نهضتها يزيدها مرضاً.

وقد يسأل سائل: ماذا تعني بتطور حياة اللغة الكردية؟.

أقول حين تصبح اللغة الكردية حياة في البيت والحقل، في السوق والملعب، وتدخل في حياة جميع الحرف والمهن، في المنشرة والمصنع حينها تحيا وتتطور وتسير مع الزمن.

نعم.. حين تصبح اللغة الكردية حياة الأدب من الشعر والقصة وغيرها من فنون الأدب، وحياة الموسيقى والطرب، وحياة شتى أنواع العلوم والمعارف أكثر مما هي عليها اليوم، حينها تحيا وتتطور، تخلق وتبتكر وتسد مقتضيات الحضارة. أما إذا بقيت بعيدة عما ذكرناه فلن تحيا ولن تتطور، بل ستنتهي إلى الاندثار والضياع الكامل. فاللغة حين تكون في حالة الوهن والانكماش تعيش في دائرة ضيقة وتكون أغلب نتاجاتها ثقيلة، وتبقى ألفاظها قديمة بعيدة عن لغة العصر، وعباراتها ركيكة بسبب قلة الألفاظ الجديدة، وتعاني العجز والقصور في مختلف المجالات، وتسير عكس تيار الحياة وأمواج التطور، وبالتالي لا تصلح لمسايرة الزمن، وتكون النتيجة الأخيرة لها هي إحلال لغة أخرى محلها.أما حين تكون اللغة أداة للفهم والتفاهم بين مختلف فئات وطبقات الشعب، وتكون لغة المؤسسات في مختلف المجالات، حينها يعلو شأنها وتحيا.

وهنا لابد لي من أن أنوه بأن للمجددين والمصلحين والنهضويين دورهم الفاعل في إبقاء اللغة حية، لأنهم يمدّونها بالمفردات والألفاظ والمصطلحات، أنهم يجددونها بتجدد الحياة، حيث لا حياة للغة بدون ابتكار الجديد للمتجدد، وبدون ذلك لا يمكن للغة أن تواجه مستحدثات التقدم والتطور.

الإعلام

الكُردي لا يتحدث بلغة غيره..

تكمن أهمية الإعلام الكُردي في أهمية القضية الكُردية، القضية بصورتها الحالية رافقت منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية التي وضعت خارطة جغرافية جديدة في المنطقة، ولم تمنح تلك الخارطة أية حقوق للشعب الكردي (ما يقارب أربعين مليون إنسان) وزعت الخارطة الكُرد بين دول جديدة التكوين (تركيا، إيران، العراق، سوريا) إضافة لمن هاجر إلى دول العالم المختلفة. منذئذ بدأت الثورات الكردية تطالب بالحقوق،

أحمد الزاويتي

كثورة الشيخ سعيد بيران، والشيخ محمود الحفيد، وثورات شيوخ بارزان، والقاضي محمد ومن ثم ثورة ملا مصطفى البارزاني التي أوصلت الوضع الكردي في العراق إلى ما نحن نعيشه حاليًا في إطار كيان سياسي يسمى بإقليم كردستان العراق.

أي قضية تفتقد لإعلام مناسب لها ستكون بالتالي قضية منسية ومظلومة وقد تتأخر في الوصول إلى حقوقها، لأننا نعيش في عالم يصور وكأننا في قرية صغيرة، لا يمكن لقضية أن تنجح ولا تكون لها متعاطفون معها سواء إنسانيًا أو سياسيًا، أصبحنا نعيش عصرًا فيه قوى عظمى دولية لا بد أن تدعم قضايا حتى تنجح.

القضية الكُردية كانت من أعدل القضايا في القرن العشرين التي افتقدت لإعلام مناسب لها في القرن العشرين، وهذا ما يجعل أحد أهم السلبيات التي رافقت القضية الكُردية منذ بداية القرن العشرين وحتى الآن، ونحن نعيش عصرًا جديدًا في بدايات القرن الواحد والعشرين، هذا ما يجعلني أعتبر القضية الكُردية خلال قرن كامل أعدل قضية وأكثرها مظلومية، وأحد أسباب ذلك كما قلت افتقادها للإعلام المناسب.

الإعلام الكُردي منذ بدايته كان إعلامًا متواضعًا، لم يستطع أن يواكب القضية، حتى عند وجوده لم يستطع فعل أكثر من تسجيل الحضور، لم يوصل القضية إلى خارج نطاق حدود القضية نفسها، فلم يصل الصوت الكردي إلى خارج كردستان، يمكن القول بأن الإعلام الكردي لا يزال كذلك! لأنه لم يبحث عن لغة غير لغته ليتحدث بها، فهو الإعلام الناطق بلغته فقط، هذا ما يجعله يتحدث لنفسه لا لغيره، ما تحتاجه القضية الكُردية هو أن يسمعها غير الكُردي من محيطه العربي والتركي والفارسي ناهيك عن محيطه العالمي الغربي.

بالنسبة للإعلام الكُردي في جنوب كردستان (إقليم كردستان العراق) باعتباره النموذج الإعلامي الكُردي الأكثر تطورًا نتيجة التجربة، كقضية فهي الأكثر خبرة وتطورًا من شمال كُردستان وشرقها وغربها، الإعلام الكُردي في العراق سبق حتى الإعلام العراقي لو اعتبرنا أن أول صحيفة كُردية صدرت في القاهرة عام ١٨٩٨ في الوقت الذي لم يكن هناك بعد وجود للدولة العراقية، أو رافق الإعلام العراقي بعد تشكيل الدولة العراقية، عندما كان بعض الكُرد من رواد هذا الإعلام وشكلوا إذاعة كُردية في بغداد وكذلك تلفزيون كُردي في كركوك، أما ثورة الإعلام بالنسبة للكُرد فكانت بعد الانتفاضة عام ١٩٩١ وتشكيل المنطقة

الآمنة في جنوب كردستان (شمال العراق)، حيث تحول فيما بعد إلى ما نسميه الآن بإقليم كُردستان العراق.

الإعلام الكُردي في الإقليم ما بعد التغيير في العراق عام ٢٠٠٣، سبق في توسعه وتنوعه وتعدده وانتشاره وثورته الكمية، بأكثر من عشر سنوات من ثورة الإعلام العراقي بعد ألفين وثلاثة، إلا أنه لم يستطع كسر طوقه الكُردي المحلي كي يستطيع بالفعل أن يخاطب العراق الجديد ليفهم العراقي المطالب الكُردية وحقيقة قضيته، لهذا ففي الوقت الذي كان الإعلام الكُردي إعلامًا مؤثرًا في الوسط الكُردي العراقي، لم يستطع أن يكون مؤثرًا في الوسط العراقي غير الكُردي، وهذا أحد أسباب تأخر وصول القضية الكُردية في عراق ما بعد ٢٠٠٣ إلى حقوقه، في ذلك العراق الذي مثل في حكمه الكُرد جزءًا رئيسيًا.

فعمل السياسيون الكُرد العراقيين والقيادات الكُردية على المستوى العراقي كان في وادٍ والإعلام الكُردي في وادٍ آخر، فبالرغم من أن هؤلاء السياسيين كانوا يخاطبون مقابلهم العربي باللغة العربية لا الكُردية، ظل الإعلام الكُردي يصرخ صباحًا ومساءً باللغة الكُردية، دون أن يلفت المواطن العربي في العراق له بالًا! فالعربي لم يكن يفهم الخطاب الإعلامي الكُردي، كونه لا يعرف اللغة التي يتحدث بها، إضافة إلى أن الطابع الاحتفالي والمناسبي والإلهائي لم يكن خافيًا في هذا الإعلام في ذهن المشاهد العربي، ففي الوقت الذي كان الدم يجري في بغداد والمدن العراقية الأخرى، كانت ساعات وساعات من البث الإعلامي الفضائي الكُردي يقضى بالموسيقى والغناء والاحتفال، وقد يفسر البعض أن هذا التوجه الإعلامي كان متعمدًا ومخططًا له، ذلك من منطلق الأريحية بما يجري في العراق دون كُردستان! هذا طبعًا من منطلق سوء الظن، إلا أن الأمر لم يكن كذلك، بل كان ضعفًا وقلة وعي، لأنه عندما بدأت الطائرات التركية والمدفعية الإيرانية تقصف القرى الكُردية، بقى الإعلام الكردي على حاله لم يتغير، وعندما دخل الجيش التركي كردستان العراق وأصبح إقليم كردستان وتجربته أمام خطر داهم، كان هذا الإعلام على حاله. أتحدث عن العقد الأول في الألفية الثانية. فكتبت جريدة كردية وقتها: «من المعيب أن نعرف ما يحصل من اعتداءات تركية وإيرانية على قرانا الحدودية على شاشة الجزيرة لا على الشاشات الكُردية!»

بنظري أن الإعلام الكُردي يتحمل جزءًا كبيرًا من التقصير في محاولة فهم غير الكُردي

لقضيته ومطالبه، فلم يتمكن أن يوضح له عدالة قضيته، وأريد أن أشخص أبرز الحالات السلبية في الإعلام الكُردي وهي:

- الافتقاد إلى لغات غير لغته.
- الضعف المهني.
- ثورة في الكم، وفقر في النوع.
- سيطرة الطابع الحزبي.
- إعلام تابع وليس إعلام متبوع.
- إعلام مشغول بداخله أكثر من خارجه.
- إعلام محرّض على الخلافات الداخلية.
- إعلام مقلّد وليس إعلام مبدع.
- إعلام الهائي احتفالي أكثر منه كإعلام خبري.

مساهمة في استقصاء معضلات

الثقافة الكردية

انظر إلى الأمس؛ حتى ترى الغد

هاكوب بارونيان

تكمن أهمية الإعلام الكُردي في أهمية القضية الكُردية، القضية بصورتها الحالية رافقت منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية التي وضعت خارطة جغرافية جديدة في المنطقة، ولم تمنح تلك الخارطة أية حقوق للشعب الكردي (ما يقارب أربعين مليون إنسان) وزعت الخارطة الكُرد بين دول جديدة التكوين (تركيا، إيران، العراق، سوريا) إضافة لمن هاجر إلى دول العالم المختلفة. منذئذ بدأت الثورات الكردية تطالب بالحقوق،

جلال زنكبادى

لم يقم الكُرد طوال تاريخهم المديد بعمل سياسي قومي موحّد؛ من شأنه توحيد أجزاء كردستان في إطار دولة واحدة؛ ممّا أدّى إلى تشرذمهم سياسياً، وغياب كيانهم الموحّد الإقتصادي والثقافي إلى حدّ بعيد. وممّا زاد الطين بلّة هو دوام الهيمنات والإحتلالات الأجنبية المتعاقبة...أجل، لم تقم للكرد دولة بالمفهوم السياسي المتكامل ماعدا الدولة الدوستكية/ المروانية (٩٨٢-١٠٨٦م) والمحاولتين المجهضتين في النصف الأول من القرن العشرين: حكمدارية الشيخ محمود وجمهورية مهاباد، على مساحتين صغيرتين من كردستان، التي تزيد مساحتها عن نصف مليون كيلومتر مربع. إذنْ فالمسألة الكردية الراهنة ليست وليدة أحداث التاريخ الحديث والمعاصر، بل تتوغّل جذورها في غابر الأزمنة، ويمكننا اختزال أسباب تجزئة كردستان كما يلي:

١.موقع كردستان الجيوبوليتيكي الاستراتيجي؛ حيث أصبحت مسرحاً دائميّاً لصراعات الإمبراطوريات والدول الكبرى المحتربة فيما بينها، والمتنافسة على ضمها إليها كمجال حيوي عسكري واقتصادي، بل كدرع حماية، منذ عهود الآشوريين والميديين والفرس الأخمينيين واليونانيين والرومان حتى عصرنا الراهن مروراً بالدولتين العثمانية والصفوية، والدول الكولونيالية الأوربية، ناهيكم عن الدول الاقليمية، المستحدثة عقب الحرب العالمية لأولى بمؤازرة قوى الإمبريالية العالمية، أي (تركيا، سوريا، إيران والعراق) المتقاسمة لكعكة كردستان الكبرى اللذيذة والمجبولة بالبترول!

٢. التأثيرات السلبية لتضاريسها الجغرافية، لاسيما الجبلية، على المواصلات والتواصل بين الكرد، في عهود وسائط النقل القديمة، أيّ عزلة الكرد وكردستان داخلياً وخارجيّاً في غيتو بيئي إلى حدّ ملحوظ.

٣. النزاعات والإحترابات الدموية بين الإمارات الكردية شبه العسكرية ذات التشكيلات الإقطاعية الاقتصاداجتماعية، وخصوصاً تلك المنشطرة والمتضادة الولاء لكلتا الدولتين الصفوية والسلطنة العثمانية... ومازلنا نشهد صورتها المعاصرة في احترابات الحزبين الكبيرين(الديموقراطي الكردستاني)و(الإتحاد الوطني الكردستاني) بل وكانت النزاعات والإحترابات سارية بين أمراء وشيوخ الإمارة الواحدة والقبيلة الواحدة، حتى المشيخة الواحدة، ناهيكم عن شيوع شتى صنوف العمالة للأجانب والخيانة الناشئة عن الإنحرافات والإنسلاخات القومية، أو الطبقية، وكذلك

تفضيل المصالح الأنانية والأهواءالفردية المرضية، ومنها آفة الزعامة.

٤. هجرة واستنزاف العقول والكفاءات، وهي ظاهرة مستديمة منذ غابر العهود، عانى ومازال يعاني الشعب الكردي من عواقبها الوخيمة، إذ خسر مواهب وطاقات وقدرات المئات من عباقرته الأفذاذ على شتى الصعد السياسية، الثقافية والإجتماعية، لأسباب ذاتية وموضوعية، أو متواشجة. وطالما تضاعفت الخسارة مادام أولئك قد خدموا بكل مؤهلاتهم وكفاءاتهم محتلي كردستان ومضطهدي شعبها، وكانوا لهم سنداً وعوناً كبيرين في أحرج الظروف التاريخية، لاعبين دور المنقذين للأعداء بالضد من مصالح أمتهم الكردية المستضعفة المغدورة في أغلب الأحيان! وتدخل ظاهرة(الجحشية الكردية) الخطيرة جداً على حاضر ومستقبل الأمة الكردية، ضمن هذا المجال، وهي تتطلّب أبحاثاً شاملة ومعمّقة.

ولذا فقد ظلت ومازالت كردستان الممزقة مستعمرة حلوب قيد النهب والسلب حتى في العصر الراهن، تحت نير الغلاة من الأوتوقراطيات الشوفينية- الفاشية (التركية، العربية والإيرانية)؛ فلاعجب إن ظلت ظروفها وأوضاعها استثنائية، ولم تنعم بنظام سياسي طبيعي ولم تشهد استقراراً ذا أمد ملحوظ ، إذ ما انفكّت الحروب والإضطرابات والقلاقل ذات العواقب الوخيمة تلحق الكوارث والويلات والإبادات الجماعية، ومنها أفدح الأضرار بالبيئتين الطبيعية والبشرية، بما فيها من قوى الإنتاج ووسائله، ناهيكم عن البنى الثقافية؛ بحيث أدى ذلك كله إلى تخلخل وتيرة سير وتطوّر تاريخ كردستان، فتخلّفت عن جاراتها على جميع الصّعد، أمّا أيّ استثناء، إن وجد؛ فهو يؤكّد القاعدة بالضرورة، كظهور معظم الشعراء الكرد الكبار في كنف الإمارات: اللرستانية، الأردلانية، البوتانية، البهدينانية، السورانية والبابانية..والتي تمتعت بما يشبه الحكم الذاتي في إطار الدول والسلطنات كالدولة الصفوية والسلطنة العثمانية.

يبدو أن الدكتور جمال أتاسي لم ير غير جانب واحد من واقع القضية الكردية؛ حين أكّد على أن « قضية الشعب الكردي محاصرة بواقعه، كشعب شاءت الظروف التاريخية والتحالفات الدولية أن تضعه هكذا موزعاً بين عدد من أقطار الدنيا، التي تطغى على علاقاتها، التحديات القومية والإقليمية، بل تؤثر فيها الترتيبات الدولية؛ لتظل القضية الكردية أسيرة

للتوازنات والنزاعات الإقليمية» حقاً لايخلو هذا الطرح من قسط من الصواب، لكنه يفتقر إلى فهم جدلية حركة التاريخ؛ مادام يرسم للكرد (قدراً مؤبداً لا فكاك منه!) جاهلاً أو متجاهلاً قوانين تحوّلات الأضداد، ناهيكم عن عدم وجود ثوابت أبديّة مقدسة في خضم المتغيرات التاريخية ؛ فمثلاً أفرزت السنوات القليلة الماضية، العجب العجاب في سوح السياسة العالمية، حيث ظهرت (٢١دولة جديدة) على صفحات الأطلس السياسي العالمي، خلال (١٨ شهراً) فقط (من منتصف ١٩٩١ حتى نهاية ١٩٩٢) لكنما الكرد قوم يفتقرون دوماً إلى إرادة المبادرة في استغلال واستثمار المتغيرات والمعطيات التاريخية على الوجه الصحيح والأكمل، وطالما تنطبق عليهم المقولة البليغة للمربي والمفكرالأمريكولاتيني الكبير باولو فرايري: « إن الذي لا يستطيع أن يحرر نفسه بنفسه؛ لن يستطيع سواه أن يحرره» علماً أن المسألة الكردية، شأنها شأن نظيراتها، لم تعد من أعقد المسائل في العالم، في القرن العشرين، كما كان يشاع! فمن المؤكد أن الدول الضامة لأجزاء كردستان والقوى الإمبريالية المساندة لها دائماً، غالباً ما تروّج، بصورة ساطعة المفارقة، لعدم وجود هذه المسألة، أو لوجودها مع استحالة حلّها! ماحية من قواميسها كل ما يتعلق بحق تقرير الشعوب لمصيرها وما شابه ذلك! ولقد تفاقمت ظاهرة الكيل بأكثر من مكيال إقليميّاً ودوليّاً في التعامل مع الأمة الكردية وقضيتها العادلة!

لقد بات جليّاً كيف تداخل وتقاطع تاريخنا القديم والحديث مع تواريخ اخوتنا الفرس، العرب، الآثوريين، التركمان، الترك، الأرمن، الأفغان والبلوج...واليوم لم يعد الأمس، وسيختلف الغد عن أمسه بالتأكيد، ولئن استحال كوكب الأرض قرية كبيرة فعلاً؛ إثر التطورات التكنولوجية الهائلة؛ فلا مناص من تماس مصيرنا مع مصائر شعوب وأقوام قد تكون في أقصى الأقاصي،

وقد لمسنا ذلك خلال الهجرة المليونية، التي أعقبت الإنتفاضة الربيعية العظمى في١٩٩١.

تزامناً مع اضمحلال الكيان العثماني (الإقطاعي/ العسكري) وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر، شهدت كردستان، رغم سقوط آخر إماراتها شبه الأوتونومية، نهوض حركة تحررها الوطني؛ إثر انبعاث ونمو وتبلور الوعي الثقافي/ السياسي، حيث راحت الأفكار القومية الديموقراطية تشيع هنا وهناك؛ والتي ابتغى دعاتها معالجة وتجاوز الأوضاع المزرية والراكدة. وطبعاً حفزهم هبوب رياح الثورات والحركات القومية والوطنية النهضوية والإصلاحية من الغرب والشرق، ولقد أوشك الكرد على تحقيق وحدتهم السياسية الكاملة؛ لولا العلل المنوّه عنها سابقاً، فما أحوجنا الآن أيضاً إلى استذكار الدروس والعبر من تاريخنا الزاخر بها؛ بقراءة موضوعيّة؛ مادام «الشعب الذي لايعرف التاريخ؛ سيكتب له أن يعيده بنفسه!» على حد قول الفيلسوف جورج سانتيانا. فلنلتفت إذنْ إلى الماضي ولو التفاتة خاطفة، لعلّنا نرى غدنا، حسب التعبير الحكيم لهاكوب بارونيان.

ظل الكرد طوال عصور ومازالوا يعانون من شتى صنوف الغزو والقهر والإستلاب الثقافي والقومي والطبقي والإحتواء والتذويب، ورغم كل ذلك ظل كيانهم الإثني صامداً يقاوم الغزاة والمحتلين، حتى في أحلك حالات التعرض للإبادات الجماعية، رغم الإمتثال السياسي الصوري/ الظاهري لحكم الإمبراطوريات و حكومات-الدول- المتعاقبة، وما أكثر الشواهد الساطعة في تاريخنا الحافل بالنضالات المريرة، التي لم يخمد أوارها طوال قرون وأمجادنا البطولية.

بما أن كردستان كانت منذ عصور ومازالت تشكّل (المجال الحيوي) للأغيارالغزاة والمحتلين؛ فقد حاولوا وسعوا إلى تسخير الكرد في سبيل تحقيق مآربهم ومراميهم العنصرية؛ ولذا أصبح شأن الثقافة الكردية شأن أيّة ثقافة مغزوة ومنهوبة في كنف ثقافات الغزاة. ولئن استهدف الغزاة والمحتلون بغزوهم الثقافي الكينونةَ الكردية بالتدمير والتدجين والتشويه والتلويث والإستلاب؛ فقد قصدوا بطبيعتهم العدوانية فرض الوعي الزائف على الكرد بنماذجهم الغازية وممارساتهم التشويهية، بالإضافة إلى قمع تحركات الغزو الثقافية الناهضة باغتيال وتعويق وتعطيل المواهب والقدرات الإبداعية الكردية، أو تحريفها لخدمة مقاصدهم الدنيئة تكريساً لطمس وتضييع أصالة الكرد المغزووين؛ ليظلوا مجرد أدوات لتحقيق مآربهم وديمومة هيمناتهم ومصالحهم

على الصّعد كلّها؛ وعليه فقد ذاق الكرد الأمرّين دوماً من أفانين التفريس والتعريب والتتريك، على أيدي الحكام الشوفينيين من (الإيرانيين والعرب والترك) الذين مابرحوا يسعون إلى اقتلاع هويتهم القومية الأصيلة العريقة من الجذور ومسخها ومحو وطمس ماضيهم الثقاحضاري،

إلاّ أن شعبنا الأبيّ ، رغم غياب السبل الموحدة: السياسية والإقتصادية والثقافية، ورغم شتى صنوف القهر والعسف والعقبات والعراقيل وحواجز التجزئة الطبيعية والمصطنعة، ظل يقاوم معبّراً عبر فولكلوره(على وجه الخصوص) عن عراقة وأصالة ثقافته القومية ووحدته الإثنية.. وهنا لايجوز غض النظر عن العجز الملحوظ للمثقفين الكرد أنفسهم، شأنهم شأن الساسة الكرد، أمام حل المشكلات والمعضلات الثقافية المتراكمة منذ قرون؛ لعدم ارتقائهم

إلى مستوى حركة التاريخ بإدراك واستيعاب ضروراته الجوهرية ونبض ديناميكيته؛ لجملة من الأسباب الذاتية والموضوعية، بحيث نجد أنفسنا الآن شبه حيارى أمام موروث ثقيل من المشكلات والمعضلات ، لا بل مخاطر كبرى تحيق بثقافتنا مستقبلاً، ويتمثّل أبرزها في:

* غياب الوحدة الثقافية لكردستان:

وهو يتجلى جداً في الإفتقار إلى اللغة الأدبية الموحّدة(خمس لهجات رئيسة) وفي تعددية الأبجديات(وهي ثلاث: العربية المكرّدة/ اللاتينية المعدّلة/ و الكيريلية المحوّرة) لكن طالما تأججت الرغبة القومية لتوحيد اللغة الأدبية، وقد تجسّدت إرهاصاتها الملحوظة عقب الحرب العالمية الأولى، إلاّ أن المعوّقات والعراقيل والحواجز حالت دون تحقيقها؛ شأنها شأن غياب الكيان السياسي/ القومي الموحّد، المسبب الرئيس لديمومة الشتات اللهجوي، حيث تحول بضعة حيطان (برلينية) دون تواصل الثقافة الكردية المتوزعة لهجوياً وجيوبوليتيكياً في الوقت نفسه، تحت وطأة كوابيس الأنظمة الحاكمة للدول المتقاسمة لأشلاء كردستان، حيث يُمارَس حتى إنكار وجود الكرد القومي وتُحظر ثقافتهم (كما في تركيا وسوريا) أو لا يُكترث بها(كما

في إيران) وطبعاً تختلف الحالة في العراق إلى حد ملحوظ ، حيث قطع الكرد أشواطاً نضالية كبيرة؛ لأسباب ذاتية وموضوعية عدّة...

* التطوّر الثقافي اللا متكافيء في كردستان:

ونقصد في أجزائها الأربعة الرئيسة، وهو إفراز حتمي، وظاهرة متداخلة أصلاً مع غياب الوحدة الثقافية للأمة الكردية، التي مابرحت تمزقها الحدود المصطنعة قديماً وحديثاً.

لقد أثّرت مستويات التطوّرات الخاصة للدول المتقاسمة لكردستان، بمواقفها المختلفة والمتباينة حيال الكرد وهويتهم الثقافية، وكذلك مستوى النضال الكردي في كل دولة من هذه الدول، أثرت في مسيرة وتطوّر الثقافة الكردية في كل جزء من أجزاء كردستان؛ بحيث يشهد المراقب اللاتكافؤ الملحوظ في التفاوت والتباين

بين أوضاع الثقافة الكردية هنا وهناك،؛ عند المقارنة مع بعضها البعض، فثمة تقدم مشهود في كردستان العراق، وتخلّف ملحوظ في كردستان إيران، وتغييب وشبه غياب في كردستان تركيا، و شيء ما من التطور عند كرد الإتحاد السوفياتي البائد(في أرمينيا بالأخص) أمّا كردستان سوريا، فهي بين بين، علماً بأن الرعيل الأول من المثقفين الكرد (وجلّهم من النازحين من تركيا) قد لعبوا لأكثر من ربع قرن(منذ عشرينات القرن العشرين) دوراً طليعياً مشهوداً على الصعيد الثقافي، عقب إنتكاسات الثورات والإنتفاضات في شمال كردستان. وهنا تجدر الإشارة أيضاً إلى الثقافة الكردية المغتربة في المهاجر الأوربية خاصة، والتي تمتعت بأجواء الحرية وبتعضيد لابأس به خلال ثمانينات وتسعينات القرن العشرين؛ لتحقق رغم تبعثرها في الدياسبورا(الشتات) بعض النجاحات الملحوظة كالمعهد الكردي في باريس وإصدار بضع مجلات جيدة: ماموستاى كورد، وان، نودم وجرا ..بالإضافة إلى عدد من الكتب باللغة الكردية واللغات الأخرى، فضلاً عن حضور الفنون التشكيلية.

* التطوّر الثقافي البطيء لعموم كردستان:

والأصح هو (التخلّف الثقافي) الذي يتجلّى حتى في الجزء المتطوّر والمتقدم من كردستان، حيث لايمكن نكران تخلف الثقافة الكردية في كردستان العراق مقارنة بشقيقتها الثقافة العربية. لقد استحال التخلف الثقافي الكردي بالمقارنة مع الثقافات الحاكمة العربية، التركية والفارسية،

ناهيكم عن الثقافات العالمية المتقدمة، استحال معضلة تتوسّع أفقيّاً وتتعمّق جوهريّاً بمضيّ الوقت، وما أكثر شواهد التخلّف ومظاهره! فمثلاً: مارست المؤسسات والأجهزة على صعيد البنى والسياسة الثقافية دوراً بيروقراطيّاً مقيتاً، ورغم المزيد من اللافتات التقدمية والبهرجة الثورية الزائفة ،سادت أساليب (محاكم التفتيش) و(المكارثية) بحيث استحالت حرية الفكر

والإبداع من أكبر الكبائر وأخطر الجرائم، ولايخفى على ذوي الألباب تكريس النظام الدكتاتوري لسياسته الثقافية الشوفينية الرامية إلى تمسيخ الثقافة الكردية وصهر الكرد حد الإمكان، معتمداً على الإرهاب المبطّن، الذي مارسه المثقفون الكرد المتعفلقون فضلاً عن شراء ذمم المثقفين المهزوزين، وما أكثرالنمطين من هؤلاء المرتزقة جحوش القلم، المدجنين حسب لعبة المقايضة والعرض والطلب؛ بحيث ساد نمط (المثقف الذيلي) الرافل بنعم (العبوديّة

المقنّعة والمبطّنة) ليحتكر الواجهات والأضواء مستحوذاً على كل شيء حتى بعد انتفاضة ١٩٩١العظمى؛ فاستحفلت ظاهرة الاحتكار الثقافي حتى استحالت الساحة الثقافية مرتعاً للنزعات الاستبدادية والمشغلات الأنانية الوضيعة، وأفرزت الكثير من الدسائس والمكائد والاحترابات، بل مورس تزييف الوجدان الاجتماعي العام من قبل الأقزام المتعملقين والغوغاء المتثاقفين، المتسلّطين على مقدرات الثقافة ورقاب المثقفين المبدعين الأصلاء بإقصائهم وإلغائهم ، فتشوّه وجه الثقافة الحقيقية المكبوتة والمقموعة ، وتفاقم تكريس الثقافة كمطيّة للأهواء والمآرب الأنانية الضيقة، وممارسة حجب حقيقة الوضع الثقافي المزري والتعتيم الكثيف على المبدعين الحقيقيين.

وهكذا لمّا تزل الثقافة الزائفة والملفقة هي السائدة عموماً وإلى حد ملحوظ، والتي تتمثل سماتها في الامتثال، الخنوع، التحذلق، الشعارات البراقة الجوفاء، العبارات الطنّانة، تغليب الصوري والشكلي على الجوهري والأساسي، تغليب الكم على الكيف والمطابقة القسرية على التنوع والاختلاف، شيوع الاستهلاك الاستسلامي والتزمت والجمود الفكري بدل الحوار المتكافيء الخلاق في التلقي....وكل ما سلف يعني غياب سلطة الثقافة الحقيقية، بل وسيادة ثقافة السلطة، التي تنزع بطبيعتها نحو التزيينية، وتمرير مصالح الطغمة الحاكمة؛ وبالطبع لاحول ولاقوّة لها في عملية التغيير الجذري للمجتمع ومجمل مناحي الحياة.

أجل؛ كيف يمكن لمثقف كردي (أو أيّ مثقف آخر) أن يبدع ويخدم قوميته فعلاً؛ إذا كان ممسوخ الوعي والضمير، بل ذيلاً ذليلاً لمحتلّي وطنه؟!

لاشكّ في أن المشهد الثقافي الكردستاني العام يظل ناقصاً بدون الإشارة إلى (الثقافة الرافضة) أي ثقافة المقاومة، التي لم تتقهقر حتى خلال الصراع اللامتكافيء، حيث تباين جداً مستوى الأسلحة المتاحة لكلتا الكفتين (ثقافة المقاومة وثقافة السلطة) وقد مثّلت ثقافة المقاومة الكردستانية بصيصة الضوء في نفق الانحطاط السائد؛ بصفتها ثقافة بديلة تواصلت مسيرتها

عبر قناتين: (ثقافة المنفى الداخلي، بما فيها ثقافة الجبل/ الكفاح المسلّح) و(ثقافة المنفى الخارجي/ الشتات) والتي جسّدت إلى حد بعيد ثقافة المستضعفين المضطهدين (ثقافة المقهورين) الناهضة والمناوئة للثقافة التطبيعية. ولقد كانت هذه الثقافة المحجوبة قسراً في الظل (ثقافة الصمت المتفجّر) هي الاستثناء الإيجابي، بل إرهاصة لثقافة المستقبل المتحرر ضمن القاعدة السائدة في العصر الذهبي للانحطاط.

إن هذا الموضوع يتطلب المزيد من البحث والدراسة والحديث فيه ذو شجون، ولا يمكننا الآن سوى القول الجازم بأن(الإغتراب الثقافي) هو الطاغي على أجزاء كردستان إلى حد كبير؛ ممّا يثير هذا التساؤل:

-هل يمكن إنقاذ ثقافتنا المستقبلية ، او مستقبلنا الثقافي؟

-أجل؛ يمكن ذلك؛ مادامت النتائج تزول بزوال الأسباب. ولكن ما أسهل الجواب على الورق! بينما يواجهنا الواقع بأعقد معطى تاريخي ينطوي على ركام هائل موروث منذ قرون مديدة من الغزو والاحتلال والتخلّف...وحسب مثل هذه المساهمة الصغيرة المتواضعة أن تدق ناقوسيّ

التشخيص والخطر؛ لعلّ بعض المثقفين الكرد الغيارى يهبّون هنا وهناك لتعميق وتوسيع ما طرحناه واقتراح الحلول الناجعة لإنقاذ ثقافتنا المستقبلية من العلل المزمنة، وحسبي « ان منيرفا لاتظهر إلاّ عند الغسق»

* كما يقول الفيلسوف الكبير هيكَل **

---

* **منيرفا: إلاهة الحكمة عند اليونانيين، والتي تصوّروها وصوّروها في هيئة البومة.**

** **جريدة(خه بات) ع(٦٧١) الأربعاء ١٩٩٣/٤/١٤ وهو أصلاً مبحث مبلور من مشروعي (رسالة المستقبل) المنجز في صيف١٩٩١**

السينما الكردية

بين الواقع والطموح

دخلت السينما أو الصور المتحركةMotion Pictures حياة البشر لأول مرة على يد الأخوين الفرنسيين أوغست ولويس لومبير المهندسين الصناعيين عام ١٨٩٥ في باريس، ثم انتقلت كانتقال النار في الهشيم من بلد لآخر ومن مدينة لأخرى، واكتسبت شعبية كبيرة وأصبحت محببة لدى كل الشرائح الاجتماعية، بعد أن ظلت لفترة ما حكراً على الأغنياء فقط. واستطاعت السينما أن تكون النافذة المتاحة دائماً ولمعظم الناس كي يشاهدوا الآخر البعيد عنهم، وليكتشفوا العالم والجمال والحب والإبداع، والاطلاع على تجارب الآخرين وحياتهم وهم جالسون على الكراسي في غرف مغلقة جميلة وآمنة، مقابل مبلغ مالي بسيط متوفر لديهم دون عناء السفر، ليطلعوا على أحداث مهمة وتجارب رائدة لشعوب أخرى متعددة وحياتها عبر العصور، التي ستكون ماده أرشيفية متاحة للأجيال القادمة.

محمد حنيف محمد

منتج - مخرج سينمائي - كندا

انتقلت السينما إلى بلاد العرب والترك والفرس، حيث يتواجد الكرد، ويعيشون معاً، وصار لها عشاقها ومهتمون بها وعاملون في مجالها، منهم الكرد الذين بدأوا يعملون في هذا المجال، ويبدعون، ولكن ليست بالهوية والبصمة الكردية إلا ما ندر، بل كمواطنين يعيشون في البلاد التي يحملون جنسيتها، وقدموا الكثير سواء ممثلين أم فنيين ومخرجين، والأمثلة كثيرة منها مثلاً عائلة بدرخان وعائلة خورشيد في مصر، والممثلون خالد تاجا وعبد الرحمن آلَ رشي وطلحت حمدي ومنى واصف في سوريا.

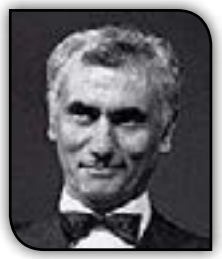
يلماز غوني

هونر سليمان

بهمان غوبادي

أما في تركيا فهناك العديد من الممثلين والممثلات والمخرجين الكرد، ولكنهم يقدمون أنفسهم أتراكاً وباللغة التركية، لأن اللغة والفنون الكردية ممنوعة في تركيا، منهم الممثلة بيرين سات Beren Saat والممثلة جَيْلان آفجي Ceylan Avci والممثلة ومقدمة البرامج كولبين أرغن Gulben Ergen وآخرين.

وعند الحديث عن السينمائيين الكرد الرواد والعظماء الذين قدموا نتاجاً كردياً صرفاً، لا بد من الحديث عن يلماز غوني الممثل والمخرج والكاتب الكردي، التركي الجنسية، الحائز على السعفة الذهبية لمهرجان»كان» عام ١٩٨٢عن فيلمه الشهير»الطريق»، بالإضافة إلى ستَّ عشرة جائزة سينمائية في التمثيل والإخراج والتأليف، كل هذه الجوائز لم تجعله ألّا يكون مطارَداً من الأجهزة الأمنية التركية، وعن السجون التركية التي حكمت عليه بالسجن المؤبَّد، فقط لأنه كردي وينتج أفلاماً تتعلق بالمجتمع الكردي، ولكنه تمكَّن من الهرب من السجن، ولجأ إلى أوربا، ليموت في منفاه في باريس عام ١٩٨٤.

وهناك أسماء أخرى ممن قدَّموا الكثير للسينما العربية والكردية مثل هونَر سليم، الذي قدَّم أفلاماً كرديه بنكهة عراقية لاقت الرواج والإقبال من النقاد ومحبي السينما، وحازت جوائز، منها فيلم «أرض الفلفل الحلو»، وفيلم «فودكا ليمون» الذي حاز على جائزة سان ماركو في مهرجان البندقية عام ٢٠٠٣، وفيلم «الحرية لكردستان» عام ١٩٩٢، وهناك العديد من المبدعين لا يسعنا الحديث عنهم في مقال واحد.

أما في كردستان إيران، فثمة المخرج المبدع باهمان غوبادي الحائز على جائزة فيلم السلام في مهرجان برلين عام ٢٠٠٥ عن»فيلم السلاحف تستطيع أن تطير»، بالإضافة إلى حوالي أربعين جائزة من مهرجانات دولية مختلفة حول العالم. وله أفلام أخرى مثل فيلم»نصف قمر» وفيلم «الحصان السكير»، ورغم ما يمكنني أن أسجِّل عليه من ملاحظات، إلّا أن أسلوبه السينمائي الجيد يُلفت الانتباه.

ما زالت السينما الكردية في بداياتها، وهي متأخرة عن السينما العالمية لأسباب عديدة، منها أن الغالبية العظمى منهم يُحسبون على الدول التي يحملون جنسياتها، مما يجعل إبداعاتهم السينمائية تُسجَّل ضمن ثقافات تلك الدول، وهذا ما يجعلهم غير معروفين في الأوساط الثقافية الكردية. كما أن غياب مؤسسة كردية تعمل على تمويل الصناعة السينمائية يلعب دوراً

كبيراً في تأخر السينما الكردية.

أعتقد أن هذا الأمر لا يعود إلى قلة الإمكانات المادية، فإقليم كردستان مثلاً قادر على أن يلعب دوراً ملحوظاً في الصناعة السينمائية، لكونه يمتلك إمكانات مادية كبيرة، وكذلك الأحزاب الكردستانية والجمعيات الثقافية في أجزاء كردستان الأربعة وفي دول الشتات الكردي في أوربا وأمريكا لا تنقصها تلك الإمكانات. يُضاف إلى ذلك أن رجال الأعمال الكرد لا يستثمرون أموالهم في الصناعة السينمائية، وعدم وجود صالات كردية تُعرض فيها الأفلام للجمهور الكردي وغيره، ثم تُجمع إيراداتها لدعم إنتاج أفلام أخرى، وعدم اهتمام قنوات التلفزيون الكردية، وهي كثيرة، بالفيلم الكردي من حيث المساهمة في إنتاجه أو ترويجه على نطاق واسع.

هذا كله يمكن حصره في غياب الثقافة السينمائية في المجتمع الكردي، وغياب الدولة الكردستانية الراعية لمجمل النشاط الثقافي.

قصيدتانِ لِرجُلٍ واحدٍ

جُنونياتٌ

مَروان خُورشيد

لأيِّ شعبٍ تُروِّضُ هذا الإلهَ
وتبتَكِرُ لهُ سماءً لا أرضَ لها
أرضاً لا نحلةَ فيها تَعُضُّ أرواحَنا
لنا هذا الابتهالُ، لكَ هذهِ المقابرُ
لنا حشودُ الغِيابِ، لكَ الموتى المُترَفونَ
أيُّها الصَّابغُ جنونَهُ
بمودَّاتِ الأعداءِ
هلْ كُنتُ سواكَ؟
حينَ صعدْتَ في شَغَبٍ
نحوَ انتفاضةِ الشَّهوةِ
كانَ العذابُ سَليلَ الدِّماءِ
يُعيدُ حُضورَهُ في الإصبعِ المقتولِ
ويلُفُّني عُشْبةٌ زَرْقاءُ حولَ الجبلِ العَجوزِ
أيُّها الصَّابغُ جُنونَهُ
بثَرْثَراتِ الأصدقاءِ
لماذا تُرقِّمُ عُصفوري بالقُبَلِ
ثُمَّ تنتهكُ سِرَّاً شَفَّ اللَّومَ
بحُضورٍ جارحٍ
بالبردِ حينَ استهلَّ غيابَكَ بالسُّؤالِ :
هلْ كُنْتَ سوايَ ؟
حينَ خاصَرَكَ الخَرْدَلُ في الشَّمالِ
حتَّى تسمَّرَتْ يداكَ في الأرضِ المُقدَّسةِ
وانتفضَ وجهُكَ بالوطنِ المشلوحِ
على الجِدارِ ..
أذكُرُ ...
كانَتْ أُمِّي مُصابةً بالمطرِ وزعفرانِ اللَّهفةِ
وأنتَ تُفتِّشُ بينَ أزهارِ الدَّمِ عنْ دواءٍ
لِسُمْرَتِها
صَعَدْتَ نَحْوي
موتاً ... موتاً
ثُمَّ هبطَتْ نحوَ الجبلِ العَجوزِ
تُفتِّشُ في زُرْقتي عنْ ماءٍ أسوَدَ
لهُ سَمْتُ الطَّريقِ
وحينَ جَفَّتْ خُطاكَ منْ آثارِ الخُصوبةِ
باركْتَ يديَّ بالثَّورةِ البِكْرِ
يديَّ اللَّتَيْنِ هَدْهَدَتا رُمْحاً
وعطشاً خائفاً منَ الارتواءِ
ثُمَّ عُدْتُ وَحدي
إلى طريقٍ لا سَمْتَ لهُ
سوى الذُّهولِ
جِئْتَني لِشعبٍ يُروِّضُ فُقَراءَهُ
ويتهاطَلُ مثلَ الرُّوحِ

نحوَ الأعلى
شعبٌ يُعيدُ ثمَّةَ أُموراً إلى أسمائي
يعيدُ ثمَّةَ أسماءً
إلى يَدَيَّ المسكونَتَينِ
بالشُّهداءِ
والمَجازرِ ... !

في صخْرةِ النورِ

هوَ أنا
رجلٌ يقعُدُ في الحُطامِ
لهُ النِّساءُ المُكتظَّةُ بالكَسْتناءِ
رجلٌ يغرزُ ضُعفَهُ في صخرةِ النُّورِ
ويَجُرُّ فراشةً منْ زركشتِها
لِضَوْءٍ ساقطٍ على الجُثَثِ
وبأسماءِ الإلهِ
يُعلِنُ لِلماءِ سيادتَهُ على حُشودِ الموتى
المُترَفينَ
ويُتوِّجُ الأرضَ لي أرضاً
لا سماءَ لها
سوى يَدَيْهِ المَحْشُوَّتَيْنِ بالارتواءِ
ينسفُ سِرْبَ الكَسْتناءِ المُكتظِّ بالنِّساءِ
هوَ أنا
رجلٌ ينامُ في ظِلِّي
يُقلِّدُ حُلْماً لخاصِرَتي
يدخُلُ ولا يدخُلُ
هذا الرجلُ الماردُ
لنْ يستغفرَ لِلغتي «تغتغتَها»
سوى أنَّهُ يُباركُ هَيْئَتي في النَّهارِ
ويَدُقُّني مسماراً في الفرحِ
لهُ وحدَهُ أنا
و باسمهِ أُهَدْهِدُ السَّماءَ وأهُزُّها
كيْ تتساقطَ الآلهةُ
إلهاً ... إلهاً !

استغاثة

علي عبد الله كولو

أنا طفلُ عارٍ
أبحثُ عن الدِفء
في ليلٍ مظلم
عنوانه البرد
العاصفةُ آلمتني
حدّ الموت
كدتُ
أموتُ برداً
يا أمي
انتظرتكِ
حتى الصباح
كانت الذئاب
تنتظرُ
أن تنهش لحمي
صراخي
لم يسمعه أحد
أين كنتِ؟
أضلعي
كانت تناديك
وحدي كنتُ
أرتجف
برداً وخوفاً
لماذا لم يخفق قلبك ؟
السنون يا أمي
تركت جروحاً
عميقة في قلبي
أين كنتِ؟
وحدي في وسط
الظلمة والبرد
صوتي
كان مبحوحاً
ويداي
كانتا مشلولتين
وأنت البعيدة كالنجوم
فقط جاوبيني
أين كنتِ؟
حينما كنت أصرخ
مُستغيثاً
وحده غطاء رأسك
كان يكفيني
أين كنت يا أمي
أين؟

بوح من تلال الذاكرة

جيان مراد

تائهة خلف جنح الظلام
أغلي الحواس في ركن الخيبة
على جمرة تجلس القرفصاء
تلال انكسارات تنهمر
ساعة بكماء على حافة القاع
خيال مصلوب بمحراب ذاكرتي
والبوح خناجر رجاء
كيف الصبر
وزقزقة اللقاءات المدانة بالشوق
إلى هاوية اللذة
يمد الليل أصابعه المبتورة
ليفك أزرار حزني
أصعد فوق ظلي
إلى مئذنة التنهيد
وغصة
لأستفرغ ذاكرة السنين
في غربة الروح وحشة لقاء
تتأرجح بين جنة ونار
تذوب على مقصلة الليل
حبر جاف
وجمرات شوق باسطة ذراعيها
تشاكسني، تركض بدمي
تسابق كرياتي بشغف
أبحث في فراديس اللغة
لأنسج شالاً بعزف أناملي
والحروف تعتصر الحبر
قطرة .... قطرة.
ربما تروي ظمأي
ثم أتذكر شتاء قلبك
ورسالتي معاطف.

صرخة الزيتون

نهرى غورانى

عندما زرنا حقل الزيتون
الشمس تفرش جدائلها
الصبايا يرتدين قوس قزح
ويلهَوْن على البيادر.
على طرف آخر
فراشات تنشد للنجوم
صبايا كُنَّ يمسدن خصلاتها
وخصلات الزيتون
يكحِّلن عيونهن بحباتها.
في عيونهن تستيقظ الجبال والنجوم.
في مدية الزيتون
عشاق في ذروة عنفوانهم
يسيرون على ضفاف «ميدانكي»*
يرنو إلى دموع الثكالى
إلى سماء تهطل قصائد مفعمة بأريج
الشهداء يتنفسون
يصغون لأناشيد
عندما زرنا حقل الزيتون
نحن وأرواح الشهداء
أخذنا بعض الخصلات
علقنا بأغصان الزيتون
كلما تلهو بها النسمات
تعزف أناشيد اللقاء
الجراح تندمل
الأرواح ترفرف.
في الحقول عشاق يرقصون شوقاً
يذرفون دموعاً.
سنوات عشقهم طويلة
لم ييأسوا، يزدادون عنفواناً.

أشجار عمرهم قبل الفجر
كل الفصول تزداد اخضراراً
تتفتح أزهارها مع رقصات وابتسامات
والشمس والقمر يتناوبان عليهم
رحيق أزهارهم يخيم كالضباب
مع الفجر تنثر شهوتها.
في هذه الأيام
مدينتي
حقولي
قريتي
تغفو على الجمر
تنهض من بين الأدخنة
وأنفاس الغراب.
عند الشروق
أجنحة نوافذها تتأرجح
تراقب الدروب.
حينما يتساوى الليل والنهار
ليلة النَّوْروز
أمام الأبواب
تعلو زقزقة العصافير
عند الساقية يلتقي العشاق.
الأمهات ينسجن السجاد
يسيل الماء المعتق من عبق أيديهنَّ
تدندنَّ للشمس
للجبال.
الأمهات يمسحن النوافذ بصمت
الرياح المحمَّلة بعبقهن تسير
إلى كل البقاع
من أعماقهن يعلو الصراخ.

فوق جغرافية المكان

أحمد مصطفى

الماءُ يبكي فوقَ النَّرجسِ والأقحوان
والقَدَرُ سيمفونيَّةٌ مُهمَّشةٌ فوقَ السَّرَابِ
ربيعُنا غائبٌ ..
فوقَ جنازةِ السَّنابلِ البائسة
وأنا كما أنا .. خيباتٌ منَ الأملِ
مَركونةٌ في زوايا الكَونِ
أنسى ولا أتذكَّرُ شيئًا ..
بلْ أتذكَّرُ ولا أنسى شيئًا ..
مُعافىً أنا منْ مديحِ الانتصاراتِ
أحلامي هادئةٌ في اللَّيلِ
لا أراها مثلَهُ في النَّهارِ
بينَ شظايا الأقدارِ ..
نبني الماضي والحاضرَ فوقَ الأنقاضِ
طيِّبونَ جدًّا مثلَ الزَّيتونِ
وطنيُّونَ في الأغاني
عاطفيُّونَ جدًّا
وعاديُّونَ جدًّا
نتذكَّرُ ولا ننسى
أحياءٌ أمْ نحنُ أمواتٌ ؟
نسيرُ في المكانِ
فوقَ تضاريسِنا القديمةِ
يُؤلِمُني غَدي البعيدُ ..
وعودةُ الرُّوحِ الشَّريدة
ووجعُ الخاسرينَ للقضيَّةِ
بلادي وَشْمٌ في الهُويَّةِ
وتاريخُنا سُخريَّةُ الأقدارِ
أنا المَرئيُّ .. أجنحتي مكسورةٌ
فوقَ صلابةِ جغرافيَّتِنا اللا زورديَّةِ
أحياءٌ نحنُ أو محكومونَ بالقضيَّةِ
انتصرَ الأعداءُ ولم تهتزَّ القضيَّةُ يومًا

قصيدتان من أدب المهجر

قال الوطن..سأسافر معكم

بدل رفو
غراتس/ النمسا

دهاليز خريف العمر
دمعة خجولة أوتارها حفر خدود
روح تواري السنوات العجاف
رحيق يداهم رحلة المشيبِ!!
دمعك، أيها الإنسان، لغاتٌ صمت
تتنبأ، بذرة ترتوي من أحاديث الخوف
تجرعت الشطآن كؤوس حزن
الأمواج حزينة!
أين سحر عينيك..أين هي الذكريات
التي تضيء العشق
كيف أصبح صهيل الماضي
تاه الفارس ولم يعد يعرف دربه
لم يعد يجمعه الصدر الدافئ
من سيجبر الخاطر
لقد هاجرت الطيور!
أيا شاعرًا..
رغم الأغصان الملتحفة بالخوف..
رغم الرهانات الخاسرة في الشرق..
ستولد بزهو قصائدك المثمرة بالحزن
حتى يسقط قناع العالم البائس
ربما ترسوا قوارب النجاة بأمان
على شطآن تطلّ على نوافذ العشاق
متى ستنطلق قصائد الحرية
متى يستنشق المرء الهواء الطلق
يا لهذه الدهاليز
اغتصبت العمر والسنوات
وبقي الشاعر وحيدًا!
يتمشى فوق شظايا الغربة
في زحمة اللاعودة
طالعةُ
فنجان قهوة، وقارئة فنجان كاذبة
قلبت أفكاره وأحلامه
من الرأس إلى أخمص القدم !
لكن شاعر، لا يجيد الاستسلام والخضوع
رغم الصراعات والتصدعات في روحه!!
أمطرته الغربة، وجرفه سيل من الأوجاع
ومزقه الشوق والحنين.
في الدهاليز
زمن أسود، يؤدي إلى طرقات الوطن
يطحنة خفقان الزمن، ببلادة ولذة
تتناثر أشعاره مثل قوس قزح
طار الحنين، رسالة داخل قمقم، وصلت بلاده
الخجولة !
نقش حكاية هيامه الأزلي، فأضحى الشوق نجومًا
سابحة، تحاكي سموات الأشعار
وشموسًا تشرق على وطن في البعيد
علّها تصل أيادي الرعاة في الجبال
تسير معهم في رحلة الناي
وعازفو الليل!
يئن الشاعر وجعًا، يمتلئ حنينًا للبدايات
لنقاط قصائده الأولى، تحت سماء مدينته
لخبز التنور في حوش داره العتيقة
لأولى أغاني الأم، وذكريات الطفولة
لمهد الحرية، وتراتيل الصبا في ربوع الكورد!
يمضي الشاعر تحت المطر
يرسم حكايات أطفال البؤساء
في مخيلته!
ينسى قبلته حيث دمعه والمطر
يقبلان بعضهما البعض ثم يفترقان!
وأصبح شاعرًا، أدمن على دروب السفر
هطلت قصائده مطرًا وخُشافًا*
تحت المطر ترسو مراكبه
أكمل رحلته الخرافية
صوب العنان، فهطلت تعويذة السماء
اكتملت رحلته إلى الوطن
بقارب مكسور، ودعاء، أوّله لهاث
وآخره تباشير على باب الله!

رحلة إلى الوطن بقارب مكسور

دهاليز خريف العمر
دمعة خجولة أوتارها حفر خدود
روح تواري السنوات العجاف
رحيق يداهم رحلة المشيبِ!!
دمعك، أيها الإنسان، لغاتٌ صمت
تتنبأ، بذرة ترتوي من أحاديث الخوف
تجرعت الشطآن كؤوس حزن
الأمواج حزينة!
أين سحر عينيك..أين هي الذكريات
التي تضيء العشق
كيف أصبح صهيل الماضي
تاه الفارس ولم يعد يعرف دربه
لم يعد يجمعه الصدر الدافئ
من سيجبر الخاطر
لقد هاجرت الطيور!
* *
أيا شاعرًا..
رغم الأغصان الملتحفة بالخوف..
رغم الرهانات الخاسرة في الشرق..
ستولد بزهو قصائدك المثمرة بالحزن
حتى يسقط قناع العالم البائس
ربما ترسوا قوارب النجاة بأمان
على شطآن تطلّ على نوافذ العشاق
متى ستنطلق قصائد الحرية
متى يستنشق المرء الهواء الطلق
يا لهذه الدهاليز
اغتصبت العمر والسنوات
وبقي الشاعر وحيدًا!
يتمشى فوق شظايا الغربة
في زحمة اللاعودة
طالعةُ
فنجان قهوة، وقارئة فنجان كاذبة
قلبت أفكاره وأحلامه
من الرأس إلى أخمص القدم !
لكن شاعر، لا يجيد الاستسلام والخضوع
رغم الصراعات والتصدعات في روحه!!
*
أمطرته الغربة، وجرفه سيل من الأوجاع
ومزقه الشوق والحنين.
في الدهاليز
زمن أسود، يؤدي إلى طرقات الوطن
يطحنة خفقان الزمن، ببلادة ولذة
تتناثر أشعاره مثل قوس قزح
طار الحنين، رسالة داخل قمقم، وصلت
بلاده الخجولة !
نقش حكاية هيامه الأزلي، فأضحى الشوق
نجومًا
سابحة، تحاكي سموات الأشعار
وشموسًا تشرق على وطن في البعيد
علّها تصل أيادي الرعاة في الجبال
تسير معهم في رحلة الناي
وعازفو الليل!
* *
يئن الشاعر وجعًا، يمتلئ حنينًا للبدايات
لنقاط قصائده الأولى، تحت سماء مدينته
لخبز التنور في حوش داره العتيقة
لأولى أغاني الأم، وذكريات الطفولة
لمهد الحرية، وتراتيل الصبا في ربوع
الكورد!
*
يمضي الشاعر تحت المطر
يرسم حكايات أطفال البؤساء
في مخيلته!
ينسى قبلته حيث دمعه والمطر
يقبلان بعضهما البعض ثم يفترقان!
وأصبح شاعرًا، أدمن على دروب السفر
هطلت قصائده مطرًا وخُشافًا*
تحت المطر ترسو مراكبه
أكمل رحلته الخرافية
صوب العنان، فهطلت تعويذة السماء
اكتملت رحلته إلى الوطن
بقارب مكسور، ودعاء، أوّله لهاث
وآخره تباشير على باب الله!

شُموخُ الكُرْدِي

محمود بريمجة

أنا الكُرْدِيُّ ابنُ الشَّمس
صديقُ الجِبال، صُلْبِ المراسِ
شامِخٌ شُموخَ الذُّرا والصُّقورِ
سامٍ سُمُوَّ الآفاق والنُّجومِ
عَشِيقُ السَّلامِ، مُرِيْدُ الحَياةِ
منْ صَميمِ العَراقةَ وَلَجْتُ
أنا المُتأصِّلُ في أرضي و نَسَبي
آبى الزَّوالَ، آبى الانسلاخَ
أذودُ عنْ حِمى وَطَني
منهُ نَبَعْتُ وَفيهِ حَيِيْتُ
وفي ثَراهُ سأرقُدُ هانِئاً
وسيحيا الابنُ منْ بعدي، وكذا الأحفادُ
على خُطايَ صامدينَ مُقارِعينَ
بثَرى الوطنِ مُتشبِّثينَ
لا يُقْصيهم سِوى الشَّهادةِ مُقْصٍ
أنا ابنُ المَيْدِ والمَيْتانِ
منْ جُذورِ التَّاريخ آتٍ
أنا للمجدِ والعَرَاقةِ خيرُ مُهَندسٍ
ابنُ الحاضرِ والغابرِ وما سيكونُ ..
وإلى الغَد أمضي شامخاً
أبني مجداً، أُشَيِّدُ حضارةً
أزَيِّنُ تاريخَ أجدادي، أُعطِّرُ ذِكْراهمْ
على نَهجِهمْ أمضي بالإباءِ مُتحلِّياً
سامقاً كالطَّودِ، هائجاً كالبُركانِ
أُغالِبُ النَّوائِبَ والدَّواهي
أسعى للعَيشِ الهَنيْءِ
أبتغي السَّلامَ لي، ولِكُلِّ البَشَر
فما ابتغَيْنا سوى الوَطَنِ مَعشوقاً
نحيا أعزَّاءَ، ورايةَ السَّلامِ نُعْلِيها
نَرُدُّ مَرابِعَنا جِناناً
نُباهي بها الأُمَمَ والأوطانَ
أنا ما ابتغَيْتُ الحَيْفَ يوماً
ظُلِمْتُ ولمْ أظلُمْ أحداً
ذُقْتُ مَرارةَ الهَجْرِ مِراراً
فما ألفَيْتُ سوى الجَبلِ صَديقاً
ضَمَّني، وعَصَبَ جِراحي
وكشفَ غُمَّةَ الهَمِّ عنِّي
وباتَ لانكساراتي خيرَ آسٍ
ورُغمَ الأسى والمآسي
وما قَدَّرَهُ الدَّهرُ منَ الصُّروفِ
بَقَيْتُ للفَجرِ مُترقِّباً
وما زادَتْني الانتكاساتُ إلَّا ثَباتاً
إلى الحُرِّيَّةِ أسعى، فهيَ ضالَّتي
إلى النُّور، فهوَ الرَّجاءِ لتبديدِ ظَلامي
ولنْ أبتغيَ إلا وَطَناً حُرَّاً عزيزاً نَيِّراً
أنا الكُرديُّ نَسْرٌ، مَوْئِليَ الآفاقُ
أتوِّجُ شُموخَ الجبالِ إباءً
سأبقى ابْنَ الشَّمسَ، رَفيقَ العُلا
ثائراً كُلَّ فَجْرٍ، للحياةِ طالِباً
عاشقاً عُذوبةَ الشُّروق
يُجافيني الضَّيمُ ما حَيِيتُ
أبيَّاً عزيزاً ..
يَهابُني السَّأمُ والسَّوادُ
أُنصِبُ رايَتي على كُلِّ ذروةٍ
على ضَوءِ نارِ النَّوروز أعقُدُ رَقصَتي
أُحَيّي بَراعمَ الرَّبيعِ في أوَّلِه
فهيَ مثلي تعشَقُ النُّورَ، تعشَقُ الحياةَ
لأحيا بلا كَدَر
أشُقُّ دُروبَ الحياة مُستعذِباً
كُلَّ لذيذٍ .. كُلَّ سَلسَبيلٍ

في كل مكان ثمة عائشة تنتظرني

ئاوات حسن أمين

أكتبك ..
لأني منذ سنين أحبك .
أتحدث عنك ..
كأنني للمرة الأولى أراك.
أحفظك ..
كتراتيل طفولتي .
أحملك على أكتاف العمر
كجعبة.
وفي السفر:
أواجهك
مرة ..
كشاعرة سمراء في بيروت.
ومرة ..
كمناضلة فلسطينية في عمان.
ومرة أخرى ..
داخل عوامة ..
في النيل القاهرية.
أراك ..
كمغنية متزنة !
أنت ..
عذريتي وبدايتي .
أنت ..
أول بسمة
في شباك غرفتي.
أنت ..
أول خيالاتي.
في صيف ذاك الزمان
وعلى السطح..
كنا نحاول أن نصطاد النجوم
ولم نفلح!
بعد ذاك..
وداخل ستائر السطوح..
كنا نعانق بعضنا البعض
فأمست القبل..
أسرع من حوارنا .
أنا أعرف ..
في كل مكان، ثمة عائشة
تنتظرني .
وأنا ..شاعر عاشق.
في العتمة .. شمعة
وفي الظمأ .. شفة ماء
وفي أماكن لقاءاتنا ..
عائشة..
تجعلني قطعة من الاحساس.
وتجعلني أكتب حكاية
لذاك الزمان!
لذا الآن ..
أسهر الليالي
وأنتظر دومًا.
أنا أعرف ..
ستأتين !
في طيران عصفور
أو بريق نجمة
أنا أعرف ..
في محطة غربة
أو ساحل بحر...
ستأتين !
في بسمة طفل
أو التفاتة فراشة....
ستأتين !
أعرف..كم رحيمة أنت
لذا ألتصق بك دائمًا.
أعرف في أي مكان
أو زمان..
عائشة تنتظرني .
كي تسكب في قصة حياتي
وتكمل قصيدتي
وتكون أحلى .. أغنية
في مماتي !

عفرين تُستباح

في ذكرى مجزرة حلبچـة

حيدر عمر

تُنحَر عفرين من الخاصرة.
اختلط في سمائها هدير القاذفات وعواء المرتزقة.
تنشر الموت على الأرصفة.
في شوارعها تكدَّست جثامين مئات الورود والفراشات.
ومن خاصرتها تدفَّقت أنهار الدماء.
ويعلو صراخ أطفال أرادوا الحياة.
غابت عنهم دندناتُ الأمهات.
غابت عنهم أفراح نَوْروزَ، لا فرحٌ بثياب العيد زارهم،
ولا ألعاب الأشقياء الصغار.
تجرَّعوا الموت، لا قِطعَ الشوكولاته ولا سكاكر الأعياد.
طفلٌ بين ذراعي أمه في الرمق الأخير:
أماه لِمَ نحن هنا في العراء؟
أماه أين «ليان»؟
أين ابنة الجيران؟
أين الصديقات والأصدقاء؟
أابتلعهم هذا الفضاء الذي يضيق؟!
أين خرافي التي كنت ألعب معها في المراعي؟
أين أطفال القرية؟
لا أسمع ما كان منهم من ضجيج.
لا أسمع ثُغاء خرافي، ولا زقزقات العصافير.
لا أسمع نباح كِلاب القرية، ولا صوت ناي الرعاة.
أسمع هزيز الريح.
أسمع صوت الرعود وتهطال المطر.
أسمع لهاث هذي الجموع وبكاء الحجر.
أسمع سعال الجرارات وأنين المتعبين.
أسمع عواء الذئاب الجائعة.
أماه: ما هذا النداء،
«الله أكبر»؟
وعلى وَقْعِهِ يُدمْدِمُ الرصاص، وتنتشر الأشلاء.
أماه! كم قُلتِ لي: إن الله رحيم بالعباد!.
كم قلتِ لي: إن الله يحب الأطفال والعصافير والفراشات!
كم قلتِ لي: بسملْ يا ولدي، ففي ذاك رِفقٌ ورحمةٌ وسلامٌ يسعُ كلَّ الجهات.
وفي ذاك طمأنينة لقلبك الصغير.
كم قلتِ لي: حمدلْ يا ولدي، ففي ذاك طوق النجاة!
كم قلتِ لي: حوقلْ يا ولدي، ففي ذاك دِفْءُ الحياة!
ألم تقولي: هو الله يرى كل الناس وكل الأشياء؟
هو الله يحمي العباد، يحمي الأبرياء.
هو الله إن دعوناه، فسوف يستجيب الدعاء.
أماه: أين ذاك الإله؟
أين ذاك الإله، لا يستجيب ولا يراني في هذا العراء؟.
أماه: من هذا الإله الذي يُذبَح الأطفال على إيقاع اسمه؟
من هذا الإله الذي يسلبون باسمه آلعابي؟
ينهبون ضيعتي ودجاجاتي؟
ها إني بَسْمَلتُ وحَوْقَلتُ وحَمْدَلتْ،
بعيداً هرولت الرحمة،
واشتدت الكارثة، اشتدت الكارثة.
وكل تكبيرة غدت مقصلة
أكاد أختنق يا أماه! أمَا من جرعة ماء
أطفئ بها لهيبَ الفاجعة؟!
ولدي، يا عينَ أمك!
خذها يا ولدي، هي آخر جرعة في المطرة.
بلِّل بها شفاهك واترك بعضها لأختك الصغيرة.
ولابنة الجيران، التي تكاد تتيه عن القافلة.
والعجوز التي تحبو هناك
تتسلَّق الطريق بين أكوام الحجارة.
وقد أضاعت معيلها بين الجموع الزاحفة.
والمرأة التي تبكي وليدها الذي قضى.
وتلك العروس التي تنتظرعريسها الذي مضى.
لكن يا ولدي! ما هذه الأسئة؟
ألستَ صغيراً على هذه الأسئلة؟
أم كبَّرتْك الكارثةُ رغم سِنِّك العاشرة؟
أم أحمل بين ذراعيَّ رجلاً أرضعته أمه الفلسفة؟
أسئلة تعجز عنها حكمة الرجالْ
وليس لها في جعبتي أيَّةُ أجوبة.
تأبَّطوا أوراقهم، أقلامَهم، راياتهم، وضجيجَهم.
لاذوا بعيداً مَن عندهم أجوبة.
نعم. لاذوا بعيداً من عندهم أجوبة.
سقطوا تحت نعال مقاتل ومقاتلة.

الرؤية الوطنية في شعر فقي تيران

١٦٥٠ - ١٥٦٤

حيدر عمر
المانيا

اسمه ولقبه:

كثيرون من الشعراء الكرد الكلاسيكيون كان يُعرفون بالانتساب إلى أمكنة ولادتهم، أو الأمكنة التي قضوا فيه حياتهم، مثل ملاي جزيري المنتسب إلى جزيرة بوتان في شمال كردستان، وأحمد خاني المنتسب إلى قرية خان في إقليم هكاري في شمال كردستان. ولم يشذَّ فقي تيران عن هذه القاعدة، فهو يقدم نفسه في مواضع متفرقة من شعره منتسباً إلى بلد مُكْس في إقليم هكاري، إذ يقول:

«مُكسيٌّ محترق بنار العشق / يقول الشعر / يعرض ما آلت إليه حاله». (فقي تيران: قصة شيخ صنعان، مخطوطة بقلم خليل ساسوني المحامي، القامشلي.

ويقول أيضاً: «أنا من تكالبت عليه الهموم / أن من جرحه القهر / أنا فقي تيران» (فقي تيران: ديوان فقي تيران، تحقيق سعيد ديرَشي وبيزاني آليخان، ص٦).

أو في قوله مختصراً اسمه بحرفين: «أنا الشهيد م. هـ / أنا من أحرقته نار الهوى». (الديوان، ص ٨٧). أوفي قول ذاكراً اسمه الأول: «أنا من سُمِّت باسم محمد / أنا بلبل في حدائق الورود».(الديوان، ص ١٠٤، ١٠٥)

يقول محمد أمين زكي في تاريخه: «كان يتلقَّب بلقب مستعار (م. هـ)، واسمه الحقيقي محمد».(تاريخ الكرد وكردستان، ص ٣٣٦). ويقول عبد الرقيب يوسف: «اسمه محمد وهو يُعرف في شعره بـ (م. هـ».(الشعراء الكرد الكلاسيكيون، باللغة الكردية، ص ٢٩). أما الدكتور عزالدين مصطفى رسول أستاذ الأدب الكردي، فينتهي إلى أن الاختصار (م. هـ) يعني أن اسمه محمد هكاري. (الديوان، ص ٦). يبدو هذا الترجيح مقبولاً، فالاسم محمد يرد في شعره المُحَقَّق، ونسبته إلى إقليم هكاري مقبولة أيضاً لأنه (مُكْسيٌّ) كما مرَّ، ومُكْس بلدة تابعة للإقليم نفسه. أما لقبه (فقي تيران)، فيُقال إنه لُقِّب به لمعرفته لغة الطيور، وفي ذلك حكايات وقصص لسنا في حاجة إلى ذكرها في هذه الدراسة الموجزة.

خلَّف فقي تيران مجموعة أعمال شعرية منها ديوان شعري، ومجموعة الطنبور والقصة الشعرية شيخ صنعان، وهي تدور حول حبّ الشيخ صنعان فتاة أرمنية أو جورجية في بعض الروايات، بحيث يهيم بها، ويذهب إلى وطنها حيث يرعى خنازير والدها، يعود بعد فترة إلى بلده، فتتبعه الفتاة وقد أسلمت. بلغت هذه القصة الشعرية ثلاثمائة وثلاثة عشر مقطعاً رباعي الأسطر، ويتكون السطر الشعري من سبعة أو ثمانية مقاطع لفظية. وثمَّة له مجموعات شعرية أخرى.

عمره.

عاش فقي تيران في ما بين منتصف القرنين

السادس عشر والسابع عشر، وقد شهد عصره نهضة أدبية كردية تجلّت في ظهور مجموعة من الشعراء غرفوا من معين الثقافة الشرقية متكئين على موروث كردي شفوي متمثّل في القصائد الشعبية والملاحم العاطفية والطولية وكمٍّ هائل من الحِكَم والأمثال الكردية، فكانوا جسرً من جسور التواصل الثقافي والحضاري بين ذلك الموروث الكردي والأدب الكلاسيكي الشرقي عامة، والأدب العربي خاصة.

وكان شهد السادس عشر الذي وُلد الشاعر في منتصفه بداية ابتلاء كردستان بالمحنتين العثمانية والصفوية اللتين أدَّتا إلى تقسيمها بين الدولتين في معركة جالديران سنة ١٥١٤م، واستغلالهما خيراتها ومواردها الاقتصادية. فساد فيه عهد طويل من الاستبداد، عجزت الإقطاعية الكردية عن الاتحاد والدفاع عن حصونها وإماراتها، التي انهارت واحدة تلو أخرى في خضم المعارك المتلاحقة بين تينك الدولتين.

الواقع دائماً يفرز أشكال التعامل معه، ومن هنا ظهرت مجموعة من الشعراء، وفي مقدمتهم علي حريري وملاي جزيري وفقي تيران، أدركوا في ذلك الوقت المبكر أن الشعوب لا تنهض إلا على أرض صلبة من الثقافة والوعي، فراحوا يتحدثون إلى العامة من الناس باللغة التي تفهمها، فكانوا بذلك ممثلين للعودة إلى لغتهم الكردية للمرة الأولى بعد انتشار الإسلام في ديارهم، كلغة كتابة وأدب مدوَّن باللهجة الكرمانجية. ولعل فقي تيران أكثر الثلاثة تمثيلاً لاتجاه معين في الشعر الكردي المدوَّن بهذه اللهجة، وهو اتجاه مناهض - من حيث مضمونه - للاستبداد العثماني والصفوي، وللإقطاع الكردي، وملتصق بالعامة من الفقراء والبسطاء، ومتطلّع من حيث شكله إلى امتلاك أسرار البلاغة الشرقية، العربية منها خاصة، بأدواتها المتعددة من تشبيه واستعارات وكنايات ولعبٍ بالألفاظ، بالإضافة إلى موسيقاها، فكان حقاً ممثِّل ذلك الجسر للتواصل بين الأدبين الكردي والعربي.

الرؤية الوطنية في شعره.

إن منبع الوطنية - كما يقول ساطع الحصري - هو حب الوطن، وهو الحب الذي يشكِّل بحدّ ذاته البذرة الأولى للوطنية. والإنسان أبداً يشعر بتعلُّق عاطفي وبارتباط قلبي بالمكان الذي وُلِد ونشأ وترعرع فيه، كما يشعر بتعلّق باطني نحو أهل ذلك المكان، ونحو جميع الناس الذين عايشهم وعاشرهم وألِفهم في صغره وصباه». وقد تجسَّد موضوع حب الوطن تجسيداً رائعاً في النتاج الفني والأدبي لجميع

صورة متخيَّلة لفقي تيران، بريشة الفنان بهزاد كدرو

الشعوب، وفي كل الأزمنة والعصور. والتراث الكردي المتمثل في نتاج الشعبي الشفاهي حافل بما ينمّي في النفس حب الوطن والاعتزاز به من خلال تعابير تتسم بالصدق والعفوية، مثلما نلمس ذلك في هذه الحِكَم «الوطن أعزُّ من الأم» و«الوطن أبٌ وأمٌّ في آن معاً» و«الوطن كالأمّ لا يُباع ولا يُشترى».(الحِكَم والأمثال الكردية، جمعها د. حاجي جندي وطبعها بالأحرف الروسية في بطرس بورغ (لينينغراد) ص ٧٠٠).

وشعر فقي تيران - كامتداد لهذا التراث - نراه يعبِّر فيه الشاعر تعبيراً واضحاً عن انتمائه إلى المكان، إلى مسقط رأسه من خلال عنوان إحدى مقطوعاته الشعرية. فقد جاء العنوان هكذا «مُكْس الوطن الجميل» معبِّراً عن شحنة عاطفية ينعكس فيها تعلّقه بالوطن. ربما كان قد قالها بعيداً عن مُكْس. فهو بعد أن يصف طبيعتها بحدائقها وجبالها، يعلن العودة إليها:

«أعود إلى القرية، إلى أبي العجوز / إلى الأم الحنون». (فقي تيران: مجموعة الطنبور، ص ٢٩).

ولعلَّ الوطن يظلُّ يجذب أبناءه إليه مهما تباعدوا واغتربوا، ولعل هذا ما يفسِّر حنين الإنسان إلى وطنه، بل قل إن ارتباط الإنسان بوطنه وانتماءه إليه يعبِّران عن نفسيهما من خلال ذلك الحنين. وما إعادة فقي تيران بطل قصته (شيخ صنعان) إلى وطنه، بعد أن غادره سعياً وراء نيل قلب الفتاة الأرمنية أو الجورجية إلا تعبير عن صدق الانتماء إلى الوطن. وعودته إلى مُكْس مسقط رأسه تدخل في هذا الاتجاه.

لا يقف مفهوم الوطنية لديه عند حدود القرية أو مسقط الرأس، بل يتوسَّع ليشمل المدينة، فها هو ينسب شعره إلى الجزيرة، جزيرة بوتان قائلاً:

«تلك القصائد التي كتبتها جزيرية بوتانية». (مجموعة الطنبور، ص ١٤)

ثم نراه يسمو إلى آفاق أرحب وأكثر سعة، فيغدو مفهوم الوطنية لديه واسعاً فضفاضاً، حتى لَتنتفي معه الحدود الفاصلة بين البلدان والأمم، معبِّراً بذلك عن نظرة إنسانية أممية شاملة، داعياً إلى أخوة تمدُّ ظلالها على البشرية كلها:

«لسنا بعيدين عن بعض / بل نحن أخوة / كلانا صادقاً يحيي الآخر / هذه هي الأخوة الصافية». (مجموعة الطنبور، ص ١٤).

في هذه الفترة من التاريخ كانت كردستان مسرحاً للصراع العنيف بين الدولتين العثمانية والصفوية. كانتا تتحاربان على الأرض الكردستانية. وبجنود كردٍ في أغلب الأحيان، وقد وُلِد فقي تيران وعاش وسط هذا الصراع، وكان شاهداً على ما يعانيه شعبه من جرَّاء تلك الحروب والمعارك دون أن يجني منها شيئاً سوى الخراب والدمار وسقوط القتلى بالمئات من أبناء شعبه. وعاصر الشاعر ذلك الحصار الرهيب الذي ضربته القوات الصفوية حول قلعة :«دمدم» سنة (١٦٠٨م) والذي تمخَّض عن القضاء على حامية القلعة بعد أن أبت تسليمها للشاه الصفوي رغم قلة عدد أفرادها، وعاصر الشاعر المذبحة الرهيبة التي أحدثتها القوات الصفوية في العشائر المكرية الكردية سنة (١٦١٠م). ولعل من سخرية القدر أن يتذرَّع الشاه الصفوي برفض الأمير الكردي (قباد خان) الاشتراك مع الفرس في حصار قلعة «دمدم» ومحاربة أخوته من أبناء العشائر المكرية. (تاريخ الكرد وكردستان، ص ١٩٤) . وفي حادثة مشابهة يمنع القائد العثماني محمد باشا والي «وان» الأمراء الكرد المشاركين في حملته الزاحفة على أذربيجان سنة (١٦١٧م) من العودة للدفاع عن إمارتهم في وجه القوات الصفوية القادمة باتجاه تلك الإمارات، فتدور بينه وبين بعضهم رحى معركة طاحنة، ينشغل فيها أولئك الأمراء، فيتأخَّرون في العودة، مما يُسهِّل على القوات الصفوية أن تعمل في أطراف «وان» القتل والتشريد والنهب والسلب. (تاريخ الكرد وكردستان، ١٩٧).

عاصر فقي تيران كل هذه الأحداث وكثيراً غيرها، وأدرك مرامي الدولتين المتحاربتين فوق تراب وطنه، اللتين تسعى كل واحدة منهما إلى ضمِّ الإمارات الكردية إليها، وذلك في سباق عنيف وصراع دموي رهيب دون أن يحظى الشعب الكردي بأي اهتمام من كلتيهما. كل هذا كان سبباً لأن يستيقظ الشاعر من تأثير تلك النظرة الوطنية الأفلاطونية على صوت الواقع المرير الذي يئنُّ شعبه تحت وطأته، ليرى تلك (الأخوة الإنسانية الصافية)، التي جعل نفسه أحد دعاتها وأصواتها، تأبى أن ترخي بعض ظلها على شعبه. ولهذا نراه يقول بكثير من التحرُّق والتألُّم:

«كتبت كثيراً كثيراً ، وتمنيت أن يقول أحد: / ها قد فُتِح للكرد باب». (الطنبور، ص ١١).

إن هذا التعبير المباشر عن أمنية كامنة في النفس لم يكن إلا وليد صدمة كبيرة ناجمة عن اصطدام الشاعر بواقع مرٍّ وأليم، يزيد من مرارته أولئك الذين يمدُّ الشاعر إليهم يد الأخوة الإنسانية، فيستغلونها أبشع استغلال. من هنا راح يسخِّر شعره لخدمة شعبه، ويتغنَّى بوطنه. لقد أدرك الشاعر أن الإنسان مرتبط به، فيه يستقيم وجوده، وفيه تكتمل شخصيته كالأسرة تشكو نقصاً إذا ما فقدت أحد أركانها الثلاثة: «الوطن أبٌ واللغة أمٌّ منهما الأبناء / يتيمٌ هو المرء من غير وطن» (الطنبور، ص١٨).

تردَّد صدى هذا الانقلاب الفكري فيما بعد في كثير من بقاع العالم، وخاصة في ألمانيا وفرنسا. فقد كان المفكر الألماني الشهير فيخته/فيشتة من أشد دعاة النزعة العالمية وتوحيد الأوطان، ولكنه انقلب إلى وطني ألماني بعد أن غزا نابليون ألمانيا، ووقعت الهزيمة في معركة يَنا. وكذلك كان الشاعر الألماني موريس آرْنْت من أنصار هذه النزعة، ثم أصبح - بتأثير النكبات التي حلت بوطنه - وطنياً ألمانياً متشدِّداً، وأشار إلى تأثير الشدائد والمحَن في فكره، إذ قال «عرفت وطني في ثورة الغضب، وأحببته في ساعة النكبة». أما في فرنسا، فقد كان الشاعر الكبير فيكتور هوغو من الدعاة النشيطين جداً في مضمار النزعة العالمية، وكان يدعو إلى إزالة الحدود من العالم، وهاجم الحروب كثيراً مندفعاً إلى ذلك بتأثير فكرة توحيد الأوطان ونشر ألوية السلم على العالم.

لم يكتفِ هوغو بالدعوة النظرية فحسب،

بل أرسل نسخة من بيان أصدره في هذا الشأن إلى مؤتمر السلم الذي انعقد سنة (١٨٦٩م) في لندن داعياً المؤتمرين إلى تطبيق فكرته في توحيد الأوطان. ولما نشبت الحرب بعد ذلك المؤتمر بسنة واحدة بين فرنسا وألمانيا، أدار ظهره لتلك الأفكار، وعاد وطنياً راح يبدع سلسلة من قصائد حماسية تتأجج فيها روح وطنية ثائرة.

إن المصائب والنكبات التي تصيب الشعوب تشد الفرد إلى وطنه وإلى أفراد شعبه، وقد أشار إلى ذلك الشاعر السوري عمر أبو ريشة إذ قال: «لمَّت الآلام منّا شملنا / ونَمت ما بيننا من نسب». من هنا كان ذلك الانقلاب في فكر فقي تيران الوطني نتيجة منطقية للويلات التي كانت تتلاحق على شعبه، مما دفعه إلى التشبُّث بوطنه معبِّراً عن حبه له، وذلك من خلال عرضه جمال طبيعته تارة عن طريق مناجاة أنهاره، وأخرى عن طريق وصْف طبيعة مُكْس مسقط رأسه، إذ كثيراً ما كان يقف على شاطئ دجلة ويناجيه بأحرّ ما تكون النجوى:

«أعاشق أنت أيضاً أيها النهر؟! / لا تستقرُّ ولا تستريح! / حتَّامَ تأتي هكذا وتأتي؟! / أيُّ عشق يدفعك هكذا تجري وتجري؟! / قل لي أيها النهر - تُرى - مَن تحب؟! (الديوان، ص ٣٠، ٣١).

وأحياناً أخرى نراه يلتفت إلى طبيعة مُكْس الجميلة، فيعرض لنا بعض الصور منها، كهذه الصورة التي تبدو فيها قمم الجبال مضيئة كالورود:

«مُكْس ... أيها الوطن الجميل! / الورود في الربيع وفي الصيف / مضيئة في قمم الجبال» (الطنبور، ص ٢٩).

إن الشاعر الذي يصف جمال الوطن، ويعرض صوراً رائعة من محاسنه، يحرِّك في نفوس أبناء وطنه حاسة الجمال والحب، وهي أدقّ حواس الإنسان وأقواها تأثيراً في النفس. ولم يخطئ بعض النقاد الذين ذهبوا إلى أن شعراء الطبيعة والجمال لا يقلّون وطنية عن شعراء الحماسة. إن هؤلاء الشعراء يربون شعور العزّة الوطنية عن طريق إثارة الإحساس الوجداني واللذة الروحية في النفوس.

إن هذه العزة الوطنية جعله يدرك، أنه في ساعات الحزن والشدائد، لا بد له من أن يتوجَّه إلى النفوس مباشرة، فيمسُّ شغاف القلوب مسّاً عنيفاً يزيل ما تراكم عليها من غبار الكسل والخمول، ويحفِّزها إلى التصدي للخطر. ففي مثل هذه الحالات لا يجدي سوى إثارة الهمم وشحذ النفوس والسير في المقدمة ممتشقاً الحسام:

«سأضع القلم والقرطاس جانباً / أمتشق معكم السيف والترس عالياً / أقاتل من أجل وطن الآباء / وأجعل اللغة الأم لي مقصداً وقرار». (الطنبور، ص ٥٢).

يعبِّر الشاعر هنا عن وعي عالٍ لمجمل ما يدور على ساحة وطنه من تطاحن بين الفرس والترك، وللهدف من ذلك الصراع الذي تتجاوز الغاية منه ابتلاع وطنه، إلى محو الثقافة والشخصية القومية عن طريق محاربة اللغة التي ليست إلا سياجاً لحفظهما. لذلك نراه يضع اللغة نصب عينيه «مصداً وقراراً» مكتفياً بهذه الإشارة لتسطع الفكرة فيما بعد لدى الشاعر الكبير أحمد خاني سطوعاً واضحاً ورائعاً.

والشاعر الحقُّ هو من يسمو بعيداً عن اليأس في مثل هذه الأوقات العصيبة التي عاشها فقي تيران الذي وجد نفسه وشعبه محاصراً بعدوين لا يقلُّ أحدهما عن الآخر خطورة. الأول هو التمزُّق الذي ينخر في خاصرة شعبه، والثاني هو الدولتان الصفوية والعثمانية المعتديتان اللتان تغذيان ذلك التمزق ببذر بذور الشقاق بين الأمراء والحكام الكرد. والشاعر يتأمَّل في هذا الأمر بكثير من التألُّم، خاصة

حين لا يرى بوادر الاتحاد في مواجهة الأعداء، فيقول بكثير من الألم:

«إلامَ سأكتب هكذا متسائلاً؟! / ها قد فقدتُ نور البصر». (الطنبور، ص ١١).

ولكن فقدان البصر لا يعني فقدان البصيرة، والشعراء إنما يحسّون قبل أن يَرَوْا، وهذا شأن فقي تيران، فهو يتلمَّس في شعبه قدرة هائلة، ولن تبقى هذه القدرة دائماً في طور الكمون، بل لا بد أن تعبِّر عن نفسها ذات يوم:

«الشعب لن يبقى حزيناً دائماً / سوف يمتشق السلاح / والقوس والنبال / ويكسر القيود / يهدم الجدار». (الطنبور، ص ٥٢).

إن هذه الأفكار ستجد صداها في وقت لاحق لدى أحمد خاني بكثير من النضج الفكري والفني.

من الناحية الفنية، يمتاز شعر فقي تيران بالسهولة، وتمتاز لغته الشعرية بالوضوح على غرار اللغة اليومية التي يتحدث بها الناس، بحيث تنقل أحاسيسه ومعانيه بيسر وسهولة إلى القارئ مع الاحتفاظ بموسيقاها العذبة وذات النكهة الشعبية التي تلتقي مع موسيقا ونكهة الأغنية الشعبية والقصائد الشعبية الكردية.

والحقيقة أننا رأيناه من خلال دراسة شعره قريب الصلة بالفولكلور الكردي ومندمجاً فيه من حيث معانيه وموسيقاه الشعرية. وبالرغم من هذه الصلة بشعر الفولكلور الكردي، فإن شيئاً واحداً يرتفع في شعره، هو صوت فقي تيران وأفكاره الأساسية. فالسمة الإنسانية بارزة أشد البروز في قصته الشعرية «شيخ صنعان» حيث يرتفع فيها صوت الإنسان يدعو بصورة دراميّة إلى الحب وانتصار الإرادة الإنسانية. وإذا كان الشاعر يبرز هذه الدعوة في القصة على لسان بطلها الشيخ صنعان، فإن صوته في سائر شعره الآخر هو صوت الإنسان مدوياً عالياً مُظهراً أفكاره وفهمه لأحداث التاريخ، بحيث نراه يسير مع التقدُّم منادياً بموت القديم والاستغلال وبانتصار الجديد وذلك من خلال صياغة فنية جديدة بالنسبة إلى عصره تسعى إلى نقل البلاغة الشرقية الكلاسيكية بأدواتها الفنية كالتشبيهات والكنايات واللعب بالألفاظ وغيرها إلى الأدب الكردي، متطلِّعاً إلى الموسيقا الكلاسيكية الشرقية متمثِّلة في أوزان الخليل، التي يختار منها ما هو أقرب إلى موسيقا الأوزان الشعبية الكردية المتمثِّلة في الأغاني والقصائد الشعبية.

من هنا نراه لا يمثِّل حلقة بين الأدب الكلاسيكي الشرقي والأدب الكردي فحسب، بل يمثِّل مرحلة انتقال الأدب الكردي من طوره الشعبي الشفاهي إلى طوره الكلاسيكي المدوَّن الذي ظهرت ملامحه على يديه واكتمل نضجها على يدَيِّ الشاعر ملاي جزيري.

إن هذا التمثيل يمنحه صفة الريادة في هذا الميدان، فهو رائد مرحلة من مراحل الوعي الفني للكتابة، تتمثّل في هذا الانتقال الذي أشرنا إليه من الشكل الفولكلوري الشعبي بموسيقاه الشعبية إلى شكل فني جديد بالنسبة إلى عصره، متمثِّل في الموسيقا العروضية، وهو انتقال كان يشكِّل ظاهرة إبداعية في عصره. وبهذا يكون فقي تيران ليس واضع اللبنة الأولى لتجربة فنية جديدة فحسب، بل يغدو محاولة انتاج فني لوعي ووجدان ثقافة ومرحلة كاملتين، تسعيان إلى إحداث تحوُّل اقتصادي اجتماعي بالتمرُّد على الإقطاعية السياسية تمرُّداً يشكِّل جوهر رؤيته التي تبدو في ذلك العصر موقفاً ديمقراطياً - بلغة اليوم - معادياً للفكر التسلُّطي، ومنحازاً إلى عملية التقدم الأدبي والاجتماعي والحضاري والإنساني.

*** هذه الدراسة مستلّة من كتابنا (فقي تيران، حياته، شعره، قيمته الفنية) الصادر عام ١٩٩٣م.**

جكرخوين ..

الشاعر المتمرد

لكل شعبٍ من شعوب المعمورة تراثه الثقافي الذي يتغنى به من شعرٍ وغناء وغيرهما . والشعب الكوردي كغيره من الشعوب غني بتراثه سواء المكتوب منه أم المتوارث من جيلٍ لآخر شفاهاً كالأغاني الكوردية القديمة التي توارثتها الأجيال بدون أن تكون مدونة بعكس الشعر الذي تم تدوينه منذ قرونٍ عديدة . ففي القرن السادس عشر لدينا دواوين شعرية مكتوبة لشيخ المتصوفة الكورد الشاعر الملا الجزيري (١٥٧٠- ١٦٤٠) وأيضاً هنالك ابداعات الأديب الكوردي أحمدي خاني (١٦٥٠- ١٧٠٧) صاحب ملحمة (ممو وزين) الشعرية وغيرهما : مثل فقي طيرا ، أمّا في القرن العشرين (قرن الاحتلال والتحرر) فقد ظهر شاعر استثنائي استقى علمه من المدارس الدينية التي كانت منتشرة في الشرق الأوسط آنذاك، وحصل على لقب (سيدا) وهي كلمة كوردية تُطلق على مَنْ أنهى دراسته الدينية وبعد ذلك ترك العمامة والتدين؛ نتيجة الدور السلبي لرجال الدين ووقوفهم عائقين أمام تطور الشعب وتبعيتهم العمياء للأغوات والمخاتير . تمردَ على العادات والتقاليد السائدة وقتها وبدأ يُحرّض الشعب على التخلص منها والتمسك بقوميتهم الكوردية وأطلق على نفسه اسم (جكرخوين) والذي يعني بالعربية الكبد المُدمى، وهذه التسمية جاءت نتيجة ألمه على شعبه ووطنه وسأتناول في دراستي هذا الشاعر المتمرد .

على كولو

فمن هو جكرخوين ؟

اسمه الحقيقي هو : شيخموس حسن ، والدته عيشانه ، كان له أخ وأخت يكبرانه في العمر .

ولدَ جكرخوين في قرية «هسار» التابعة لمدينة ماردين في تركيا في العام ١٩٠٣ م، كان والده فلاحاً فقير الحال. في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤م هربت عائلته من القرية لأن أخاه «خليل» كان محكوماً من الدولة التركية واستقرت في «برية ماردين» في مدينة «عامودا» القريبة من مدينة «قامشلو» ، حينها حدثت مجاعة كبيرة في المنطقة ومنها «عامودا»، وعند انتهاء المجاعة توفي والده وقد كان جكرخوين في الثالثة عشر من العمر، اضطرت العائلة لترك «عامودا» والتوجه نحو ماردين، وفي الطريق توفيت والدته وكانت وفاتها بعد وفاة أبيه بسنة واحدة، فأصبح يتيم الأبوين ولم يبقَ له سوى أخيه وأخته «آسيا « وهذه(١) الأخيرة كانت متزوجة في»عامودا» وقد تُوفي زوجها في سنة المجاعة، فقام الأخ الكبير بجلب أخته الأرملة وعاش الجميع في بيتٍ واحد . بعد زواج أخيه بقي جكرخوين تحت رحمة الأخت وزوجة الأخ يقوم بخدمة الجميع، تارةً في أعمال الحراثة وتارةً في رعي الأغنام ولم تكن الظروف مواتية لتطوره، ولكن بعد أن عادت العائلة لقريتها الأصلية «هسار» أصبح شاعرنا ونتيجةً لتحسن ظروفه يذهب للمدارس الدينية. وكان يتجول كثيراً في المدن والقرى الكوردية في الأجزاء الأربعة من كوردستان.

الدراسة والزواج

بدأ جكرخوين بالذهاب إلى المدرسة في العشرين من العمر، وتوزعت دراسته في العلوم الدينية بين مدينة «عامودا» وبين «ديركا جاي مازي» التابعة لماردين، وفي جزيرة «بوطان» التي تقع حالياً ضمن الأراضي التركية على الحدود التركية السورية العراقية.

كما درس في منطقة «كلالا وخلان» في إقليم كوردستان العراق، وبعدها ذهب إلى إيران وبقي فترة قصيرة في سهل «لاجان»، لكنه لم يدرس هناك. وفي «عامودا « أنهى تحصيله العلمي قبل زملائه بعشرة أعوام لذكائه الاستثنائي، ونتيجةً لوفاة أستاذه قبل تسليمه الإجازة العلمية قام شقيق الأستاذ المتوفى بتسليم الإجازة لجكرخوين. وقد كانت دراسة العلوم الدينية تستمر من خمسة عشر عاماً إلى عشرين عاماً، أما هو فقد أنهاها في ثماني سنوات.

تزوج قبل الحصول على الإجازة العلمية بسنة واحدة، أي في السابعة والعشرين من العمر، وكان الشاعر قد تحدث عن زواجه بأنه في ذلك الوقت لم يكن المقياس هو جمال الوجه والشَعر، وإنما كان أصل وطيبة العائلة هو المقياس، لذلك انتظر طويلاً حتى ظفر بالفتاة التي أرادها وكان مهرها ثماني أكياس «أكياس بحجم قبضة اليد» من الفضة، وقد اضطر لبيع أرضه حتى يدفع المهر.

كانت دراسة العلوم الدينية تشتمل اللغة العربية والفارسية والفلسفة والمنطق والهندسة، ولم يكن يوجد غير هذه المواد لعدم معرفة رجال الدين بالعلوم الأخرى، وكانوا يتحججون بأنها علوم دنيوية لا فائدة منها .

لم يكن هنالك تدريس باللغة الكوردية، إلا أنه ونتيجة لحبه لقوميته كان جكرخوين يقرأ أشعار الشعراء الكورد مثل «الملا الجزيري وأحمدي خاني»، وكان يأخذ معه دواوين الشعر لهذين الشاعرين أينما ذهب، فقد كان كل طالب علم له حقيبة يضع فيه كتبه وطعامه وتلازمه هذه الحقيبة في ترحاله من قرية لأخرى ومن منطقة لأخرى.

يقول جكرخوين: الشيوخ والملالي كانوا كإعلاميي الأحزاب والحكومات في الوقت الحالي، فقد كان «الأغوات « يُطعمونهم ويكسونهم ويعمرون لهم البيوت، وهم يقومون بمدح هؤلاء «الأغوات» في المجالس وبين العامة ٢.

لم يكن الأساتذة المشرفون على تعليم الطلاب العلوم الدينية يذكرون القومية الكوردية وضرورة العمل لأجلها بل كانوا يقولون: نحن مسلمون وأخوة .لا فرق إن

حكمنا هذا أو ذاك، إلى أن جاء جكرخوين الذي أصبح يحث الجماهير على الاستيقاظ.

استقر جكرخوين في احدى قرى «عامودا» وكان اسم القرية «جيلك» وتعني البقرة، وكان يملك قطعة أرض في القرية، ولكن عندما حدث خلاف بين أهلها على منصب «المختار» وقتلوا من بعضهم البعض عشرة أشخاص، ترك القرية وذهب إلى قامشلو حيث كان في الثامنة والثلاثين من العمر. كان يُطلق على قريته اسم «جهنم « وعندما كان الناس يسألونه عن سبب هذه التسمية؟ كان جوابه بأننا نحن الكورد جميعنا نعيش في جهنم لذلك سميتُ قريتي بهذا الاسم.

الحياة السياسية والشعر

في العام ١٩٣٧ م أسس جكرخوين نادي لشباب عامودا وأطلق عليه اسم «جوان كورد» والذي يعني الشباب الكورد، ولكن سلطات الاحتلال الفرنسي قامت بإغلاقه بعد سنة من تأسيسه، بحجة أنهم رفعوا علم كوردستان فوق النادي.

يقول جكرخوين: سألني الضابط الفرنسي لماذا رفعتم علم كوردستان؟ فجاوبته لأنه علمنا وسنذرف الدماء فوق الجبال في سبيل رفعه عالياً، كما يقول بأن إغلاق النادي لم يكن سببه رفع العلم الكوردي وإنما كبح الشعب الكوردي من التطور.

في العام ١٩٣٢ م أصدر الأمير جلادت بدرخان في دمشق مجلة «هاوار» وتعني الصرخة، وكانت مرخصة من الحكومة السورية وناطقة باللغة الكوردية.

فيما يتعلق بمجلة «هاوار» يقول جكرخوين: أي قصيدة كنت أرسلها للمجلة كانوا ينشرونها بدون تردد، وللأمير جلادت فضل عليَّ وكان يقوم بالدعاية لي، وقد جاء من دمشق إلى قامشلو ثم عامودا ، وسأل عني وأرشده الناس إلى المدرسة التي كنت أُدرّس فيها الطلاب، وكان يملك سيارة في ذاك الوقت وقال بأنه سمع بأنني أكتب الشعر فقلت له نعم وألقيت عليه بعض القصائد وكان راضيا عنها وأعطاني بعض التعليمات فيما يتعلق بالوزن والقافية وكان ذكياً جداً.

انتمى جكرخوين إلى جمعية «خويبون» والتي تعني الاستقلال وتأسست في العام ١٩٢٧ م في لبنان، وكانت جمعية سياسية كوردية ولكن نتيجة للخلافات على رئاسة الجمعية انشقت إلى قسمين، قسم بقيادة عائلة بدرخان والقسم الآخر بقيادة عائلة جميل باشا، وقد وقف جكرخوين في صف عائلة بدرخان، ونتيجة لهذا الانشقاق ولأسباب أخرى انتهت «خويبون» في العام ١٩٤٦ (٢)

قرر الأعضاء من غير العائلتين المذكورتين تشكيل حزب سياسي، وأطلقوا عليه اسم الحزب الديمقراطي الكوردي تحت اسم «توحيد وتحرير كوردستان»، وكان جكرخوين من المؤسسين وتم التواصل مع القاضي محمد رئيس أول جمهورية كوردية في القرن العشرين في مهاباد «إيران» في العام ١٩٤٦ م، حيث طلب منهم القاضي محمد تغيير الاسم إلى الحزب الديمقراطي الكوردي في سوريا، وعدم التواصل معه لبُعد المسافة بينهم، وأن يتم التواصل مع الكورد في العراق وهم سيكونون صلة الوصل بين الحزب والقاضي محمد ، حيث كانت الأحزاب في الأجزاء الثلاثة (سوريا. إيران. العراق) متشابهة في الاسم، وكان ذلك في العام ١٩٤٦ م.

وقد أخبر الحزب (الحزب الديمقراطي الكوردي في سوريا) بقيادة الدكتور«نافذ» القاضي محمد بأنهم سيعلنون ثورة في تركيا من أجل إعادة الحقوق الكوردية وعليه مساعدتهم، فطلب منهم القاضي رسم خريطة للمنطقة التي سيُعلنون فيها الثورة كي يرسل لهم السلاح في حال الحصول عليه، لكنهم لم يرسموا الخريطة نتيجة للظروف والتطورات المتلاحقة في المنطقة.

ترك جكرخوين الحزب نتيجة خلاف بينه وبين القيادة، وأصبح مؤيداً للحزب الشيوعي فيما بعد، لكن الأخير كان متخوفاً منه ويطالبه بألّا يقول بأنه كوردي وهو يقول له : كيف ذلك واسمي جكرخوين وسميت

نفسي بهذا الاسم لأجل الكورداياتي وأنا أؤيدكم كي تطوروا الحركة الكوردية لا أن تعادوها.

تخلى جكرخوين عن تأييده للحزب الشيوعي في سوريا بعد أكثر من ثمان سنوات، وقد كان مسؤولاً عن منظمة «أنصار السلام» في الحزب.

تم اعتقال جكرخوين من قبل السلطات السورية أكثر من عشرين مرة، وفي كل مرة كان الاعتقال لا يدوم سوى بضعة أيام، وأكثر مدة قضاها في السجن كانت في العام ١٩٦٣ م، حيث بقي أربعين يوماً معتقلاً في سجن المزة بدمشق.

العائلة وعلاقته بالناس

لديه ولدان وهما: كسرى ، آزاد. وخمسة بنات وهن: سينم وهي متوفية ، كول بري، روجين، بونيا، سلام.

لم يكن يميز بين الذكور والإناث من أولاده، وكان ديمقراطياً في البيت ويوصي أولاده بحب وطنهم وقوميتهم والاهتمام بالثقافة، إذاً كان شاعرنا يُطبق أشعاره التي تدعو للحرية والمساواة في بيته أيضاً، ولم يكن يُكره أطفاله على شيء في ذلك العهد الذي كانت فيه الحريات حكراً على الرجال بشكلٍ عام.

ولم يكن بيته يخلو من الضيوف نَتيجة علاقاته الواسعة بالناس ومحبتهم له، كان يساعد التلاميذ ضمن حدود إمكاناته المتواضعة، فقد كان هنالك تلميذان سمع جكرخوين عنهما بأن أهلهما عاجزون عن شراء القرطاسية واللباس المدرسي لهما فقام بشراء القرطاسية لهما إضافةً إلى اللباس المدرسي (الصدرية)، وفي زيارته لبيتِ صديقٍ له رأى أن ابنه يدرس ولا يوجد لديهم طاولةً ولا كرسي، فأخذ للطفل طاولة وكرسياً من بيته وكان يقول: إن هذا الطفل سيلزمنا في المستقبل.

كما كان يوصي النساء بالعمل وإنشاء الجمعيات المختلفة لتحصلنَ على حقوقهن، لأن الرجل بحسب قوله لن يلتفت لحقوق المرأة إن لم تطالب هي بحقوقها وتناضل في سبيل هذه الحقوق(٣)

هجرتهُ إلى السويد ووفاته

هاجر إلى السويد في العام ١٩٨٠ م والسبب الرئيسي لهجرته كان طباعة دواوينه بعد أن أقنعه الأصدقاء بذلك، وقد طبع خمس دواوين شعرية في السويد وكان قد طبع عدة دواوين قبل ذلك في دمشق وبيروت.

ومن أروع أشعاره قصيدة «كيما أز» التي تعني» مَنْ أنا؟» حيث يقول في مقطعٍ منها :

أنا إنسانٌ طيب
لستُ متوحشاً ولا غبياً
ليس أمامي سوى القتال
لأن العدو لا يخرج من بلادي
آبائي وأجدادي كانوا أحراراً
ولا أريد أن أبقى مُحتَلا للأبد

ويقصد بالضمير» أنا « الشعب الكوردي، وقد لحن هذه القصيدة وغناها الفنان الكوردي العالمي»شفان برور»، وقد انتشرت هذه الأغنية بين أبناء الشعب الكوردي في الأجزاء الأربعة من كوردستان بشكل كبير. وكما كان الشاعر المخضرم جكرخوين يكتب عن الوطن كان يكتب عن الحب أيضاً وقصيدته «عشق القلب» مليئة بالعواطف الجياشة حيث يقول:

أيا حبيبة القلب
ملأتِ القلبَ بالجروح
كان رَبيعي
مليئاً بالأشجار والزهور
قضينا تلك الأيام بين الورود
وها أنا صرتُ في الثمانين
وأصبحتُ عاشقاً من جديد .

لم يتأقلم جكرخوين مع الغربة وكان يريد العودة كونه كان متعوداً على الاجتماع بالناس ومخالطتهم بعكس أوربا حيث العلاقات الاجتماعية ضعيفة، إلا أن القدر كان أسرع من رغبته وخطفه من كُتبه وقصائده ومعجبيه في ١٩٨٤/١٠/٢٢م، وتم تشييعه إلى الوطن حيث استقبلت الجماهير الكوردية جثمانه بكثافة في مدينة الحسكة ومنها إلى قامشلو كي يتم دفنه في حوش بيته بحسب وصيته، ويذكر الشخص الذي سار في جنازته من مدينة الحسكة إلى قامشلو إن الطريق أخذ منهم أربع ساعات متواصلة بالسيارات نتيجة العدد الهائل من السيارات التي كانت تمشي مع الجنازة، علماً أن المسافة بين الحسكة و قامشلو لا تتجاوز ثمانين كيلو متراً، وفي قامشلو كانت الجماهير باستقباله بالزغاريد والفرق الفلكلورية، لأنه كان قد أوصى أن يمشي الناس في جنازته وهم يغنون ويزغردون، ولا زالت الوفود تزور ضريحه الكائن في الحي الغربي في قامشلو ٤

أعماله المطبوعة

في العام ١٩٦٨ م أصدر مع مجموعة من رفاقه مجلة «كلستان» التي تعني أرض الزهور، وكانت تهتم بالشعر والترجمة والأدب.

أما قصائده المطبوعة فهي :

١- پيت وبروسك	دمشق١٩٤٥ .
٢- ثورة آزادي	دمشق ١٩٥٤ .
٣- كيما أز	بيروت ١٩٧٣.
٤- روناك	ستوكهولم ١٩٨٠ .
٥- زند أفيستا	ستوكهولم ١٩٨١.
٦- شفق	ستوكهولم ١٩٨٢ .
٧- هيفي	ستوكهولم ١٩٨٣ .
٨- آشتي	ستوكهولم ١٩٨٥ .
٩- خوش خَوان	دهوك ٢٠١٦ (٥) .

لم يكن جكرخوين يكتب الشعر فقط وإنما القصة والتاريخ والفلكلور وله أربعة عشر كتاباً مطبوعاً بهذا الخصوص وهي :

١- جيم و كول پري / قصة /
٢- سالار وميديا / قصة شعرية / .
٣- رشو داري / قصة / .
٤- شرفنامه المنظومة عن شرفنامه الأصلية .
٥- فلكلور .
٦- حكم وأمثال كوردية .
٧- قصة حياتي .
٨- تاريخ كوردستان الجزء الأول .
٩- تاريخ كوردستان الجزء الثاني .
١٠- تاريخ كوردستان الجزء الثالث .
١١- الصرف والنحو الجزء الأول .
١٢- الصرف والنحو الجزء الثاني .
١٣- قاموس كوردي كوردي الجزء الأول .
١٤- قاموس كوردي كوردي الجزء الثاني .

أما أعماله غير المطبوعة فعددها إحدى وثلاثون مخطوطاً مكتوباً بخط يده بانتظار أن ترى النور وتوجد هذه المخطوطات لدى ابنه البِكر كسرى (٦) .

خاتمة

يتبين لنا أن الشاعر جكرخوين عايش مراحل مختلفة في حياته، ابتداءً من الخلافة العثمانية إلى حكم (حزب البعث العربي الاشتراكي) في سوريا، مروراً بمرحلة الاحتلال الفرنسي ومرحلة الاستقلال وما تبعها من انقلابات عسكرية في سوريا، وبقي كما هو الرجل الصلب المدافع بقلمه عن حقوق شعبه المهضومة، والذي تعرض للتهميش والظلم من قبل الأنظمة المتعاقبة على حكم سوريا، بذلك يستحق هذا الشاعر المخضرم أن يبقى في وجدان كل كوردي أبد الدهر، وتستحق مخطوطاته غير المطبوعة أن ترى النور، فكلماته وأفكاره تصلح ليومنا هذا كما كانت شعاع نور يهتدي به شعبنا قبل ذلك، فلا زال الكثير من الناس يتداولون أفكاره ونصائحه في المجالس العامة، ولا زال هو المتربع على عرش الشعر في القرن العشرين والقرن الواحد والعشرين أيضاً.

أنا والمنفى

والشعر والعالم

أنا ومنفى اللغة:

لكوني ولدت كردياً ومن أبوين كرديين لا يعرفان من لغات الله الكثيرة غير الكردية، أردت ككل أطفال العالم أن ألعب وأدرس وأتعلم وأتهجى حروفيَّ الأولى في المدرسة بلغتي الأم. لكن بدلاً من ذلك وجدتُ نفسي في متاهة لغة أخرى لا أعرف حرفاً واحداً من حروفها ألا وهي اللغة العربية. بعد مرور بضعة سنوات سيتساءل الطفل الذي يكبر فيَّ يوماً بعد يوم، لما تدرس وتتعلم بهذه اللغة الغريبة عنكَ بدلاً من لغة أمك وأبيك وأجدادك؟ سيتكفل الزمن والوعي بالإجابة الصريحة عن ذلك. فاللغة الكردية كانت وما زالت ممنوعة ومحظورة في سوريا. كان ممنوعاً التحدث بها إلا في نطاق ضيق، أي نطاق البيت والعائلة. الثقافة الكردية كانت ممنوعة ومقموعة ومضطهدة (كان حمل كتاب أو مجلة كردية كان يمكن أن يعرض صاحبها للمساءلة والتحقيق والسجن!).

حسين جبش

الكتابة باللغة الكردية ممنوعة حيث لا مدارس، لا معاهد ولا جامعات تدرجها في محاضراتها ومناهجها الدراسية. لذلك كان الخيار الوحيد الممكن أمامي حينها هو إتقان اللغة العربية والتدرج بها دراسة وقراءة وثقافة وكتابة، وهذا ما حصل بالضبط. وكتبت بها قصائدي وأشعاري بخيال شاهق وفتنة لا يضاهيها إلا فتنة الشعر ورهافته. لكنني أودُّ أن أضيف في هذا السياق أنني تعلمت الكتابة بلغتي الأم في منفاي هنا في أوربا، وأكتب بها قصائدي ونصوصي وهواجسي التي حُرمت من الكتابة بها سابقاً في وطن لم يكن لي وطناً قط! وحالياً أكتب باللغة الكردية فقط، ونادراً ما أكتب بالعربية، منتقماً من كل الحيف الذي لحق بلغتي الأم وقائمة القمع والممنوعات التي طالتها من كل حدب وصوب!

الشعر حمّى وسخونة:

يُقال إن الشعر «قول ناعم لا يكتمل إلا بالشقاء»، وهذا يعني أن الألم والشقاء والمعاناة هي منابع الشعر الأساسية، ومصادر وجوده. فالشعر خلقٌ وولادة، ولا يوجد خلق ولا ولادة حقيقية من دون مخاض ومعاناة حقيقية يكتمل بها. حتى في شعر الفرح والحب هناك معاناة، هناك قلق، هناك لمحة ألم وحزن وشقاء لا بد منها. ففي الأدب، وفي الشعر تحديداً يغريني البقاء في غرفة التسخين دوماً، حيث التسخين بالجنون والفانتازيا والجسارة والتطرف كما أشار إلى ذلك الفيلسوف الألماني الشهير روديغر زافرانسكي في إحدى حواراته الممتعة نقلاً عن نيتشه. لا يمكن أن يتعايش الشعر مع التبريد. لا يمكن أن يسكن في الغرف الباردة مع برودة العقل وموازينه المطمئنة. وهو ابن الفانتازيا والجنون، لذلك فهو يطلب دوماً أن نبقى لأجله في حالة حمّى وسخونة دائمة، وإلا فلا. أكتبُ الشعر لكي أسرقني مني، ولكي أجعل الحلم أكثر ولعاً من كل شيء، وأن أجعل جنوني في مستوى الأعجوبة. الشعر، هذا الكائن الذي لا يضاهيه أي شيء في الوجود، جعلني أضحي من أجله بكل شيء، المقدس منه والمدنس، على طريقة جان كوكتو وقافلة الغبطة الممتدة على طول وعرض جهات الله المتأرجحة بين السماء والأرض وما بينهما من نشاط قاتل. وبين الحين والحين أناديني: فيا أيها الشاعر الذي فيَّ هل أخلصتَ لدرس الشعر، وضحيتَ لأجله بما يكفي من التضحية والعشق والجنون؟ أجيبني: أحاولُ ذلك بكل طاقتي وخلاياي والدم الذي يجري في حقولها القلقة دائماً وأبداً.

أهمية الشعر وانشغالاته:

الشعر يدعو إلى المحبة والتسامح والصداقات العميقة بين البشر بمختلف انتماءاتهم وأعراقهم. وهو بذلك ينبذ القسوة والعنف والحروب وكل شيء يخل بإنسانية الإنسان. الشعر يدعو إلى هدم الجدران وإزالة الحواجز بين البشر وبناء جسور المحبة والحوار والتفاهم والتعايش بين مختلف الثقافات والحضارات دون قيد أو شرط. يدعو إلى احترام الطبيعة والحيوانات، شركاؤنا في هذه الحياة. وهو عابر للقارات، يسلك كل الطرق التي تؤدي إلى العالم، ولا يعترف بالقيود والحواجز والحدود والجمارك التي تعيق حركة البشر. هو ضيف الحياة المدهش، لذلك تبقى الحياة مدهشة به على الدوام. وهو سيبقى دائماً ذلك الطفل المنزوي الذي لا يتكلم إلا نادراً، لكنه يشعُّ دوماً وأبداً. وبناء على ذلك على الشاعر الحقيقي أن يُنبت زهرة من قلب صخرة وليس من تربة خصبة. وأن قوة الشاعر تأتي من تلك الزهور النادرة والفريدة والمدهشة التي يقطفها من بستان الكلمات والحياة... والشعر أيضاً هو أن تقنع الآخرين بأن الجبال قبعات نائمة وأن الوديان فراسخ الماء! وبأن صخرة تتدلل ستصبحُ شعراً حتماً. وأن الشاعر الحقيقي يستطيع أن يحوّل الماء إلى نبيذ وأن يجعل من مائدة متقشفة وليمة عامرة وعظيمة. الشعر هو خلاصة النار وخلاصة الورد وخلاصة

الخلاصات. ومن إحدى واجبات الشعر أن يحوّل الطغاة إلى مماسح للأحذية، وأن يمرغ وجه القتلة والمجرمين واللصوص في الطين عبر بسالة الكلمات! البسالة الحقيقية للشاعر أيضاً، هي أن يجعل من كل هذا الخراب الذي يلف عنق الحياة كأنشوطة إلى شعر حقيقي وشاهق... وأن خيطاً رفيعاً من الجمال في قصيدة ما، يستطيع أن يضيء عالماً بأكمله. الشعر رغم هشاشته له قدرات خارقة، فيمكنه مثلا أن يحول دودة زاحفة إلى فراشة طائرة، ومن طنين ذبابة إلى زقزقة عصفور، وذلك من دون أن يفقد توازنه أو تُمس هيبته بأي سوء. لا يمكن الوصول إلى قصيدة حقيقية إلا عبر دروب متشابكة، وعرة وخطيرة، والشاعر الذي لا يجازف بالعبور فيها، ستبدو قصيدته وكأنها مسروقة من بستان الجيران. الشعر، هذا الكائن الباهر يلبس - في نفس الوقت - آلاف الألوان، وكلها تناسبه وتأتي على مقاسه تماماً. يجسد في نفسه الحلم ونقيضه! وهو ذئب وخروف وأسد وغزال وعصفور وأفعى في الوقت نفسه. الشعر يبارز الريح ويشد من أزر الغيوم، يفك القيود عن معصم الخيال ويدير دفة الغرابة كقبطان متمرس. تغويه المناطق النائية، وينأى بنفسه عن البلادة والسكون، ويحيا بأعصاب مشدودة دائماً وأبداً. يتحدث مع الصخور والأحجار كما لو أنه يتحدث مع البشر والأشجار والأعشاب والنباتات. يركض في البراري والقرى ويغوص في قلب المدن وعالمها السفلي والمخملي أيضاً. وهو صامت مجهول غريب الأطوار، يضع يديه في جيبه ويسير في كل الاتجاهات في عين الوقت. لذلك أنا ممتن للشعر ومدين له دائماً وأبداً، فهو بيتي الذي أسكنُ فيه والنافذة التي أطلُّ منها على العالم. هو حجرتي التي أتأملُ فيها وحانتي التي أسكرُ فيها. هو متاهتي التي أدخلها وأتوه فيها ودليلي الذي يدلني للخروج منها. هو سمائي التي أحلقُ فيها وأرضي التي أبذرُ فيها بذوري الغريبة. هو هوسي ومرضي وإدماني وجنوني الذي لا أشفى منه، هو علاجي أيضاً! لذلك أنا متشبث به بقلبي وروحي وكياني، متشبث بآخر الأشياء الجميلة والنقية والنبيلة في هذا العالم.

الشعر والعالم:

ليس بمستطاع الشعر شفاء آلام البشرية وتحرير الأمم من النير والظلم والاستبداد. وليس من مهامه أن يقود الثورات ويحقق العدالة والمساواة في العالم. كما أنه لا يستطيع أن يوقف القهر والذل والألم الذي يتعرض له البشر في كل مكان. إلا أنه يبدو كصرخة عظيمة في وجه كل هذا الوباء المستشري هنا وهناك في العالم. صرخة في وجه الحروب والسجون والقتل والنفي والخراب الذي يلف الكون. صرخة تستطيع معانقة العالم من كل أطرافه وبث لحظات الدفء والعذوبة والحب والحرية في شرايينه. لكن قبل كل شيء ينبغي أن تُكتَبَ هذه الصرخة الشعرية بشكل جيد، بقوة مخيلة، بفتنة وأعجوبة وحب وجنون، وإلا سقطت في بئر الأكذوبة والسماجة. العالم قبل الشعر يكون بشكل وبعده يكون بشكل آخر، أي أنَّ العالم إذا تلبس بلبوس الشعر، ينبعث من الرماد إلى النور ومن البلادة إلى الرهافة. وكما قال الشاعر الغواتيمالي الكبير لويس كاردوزا ي أراغون، الشعر هو البرهان الوحيد المقنع على وجود الإنسان، أليس ما قاله صحيحاً تماماً؟

في الأخير:

لا يسعني في الأخير إلا أن أقول لزملائي الشعراء: أعزائي، اكتبوا الشعر على سواعدكم، على سيقانكم، على ظهوركم، على أعناقكم، على خدودكم، على بطونكم، على سرركم، على أصابعكم، على صدوركم... فالشعر يجب أن يكون ملتصقاً باللحم، قريباً من نبضات القلوب، جزءاً من الأنفاس، لصيقاً بالروح، دماً يجري في العروق.

كما يحب كردي عناده!

أحب هذه الجبال الوعرة
وهذه الأنهار النحيلة التي تصل بركب هزيلة إلى مثواها الأخير.
أحب هذه الأحجار التي تعاند حرارة الشمس في قيظ الصيف
وبرودة الصقيع في عز الشتاء.
أحب هذا التراب الذي يشبه جسدي
وهذه الأرض التي تعني القلب أولاً.
أحب هذا الغبار، وهو كحل عيني
وهذا الهواء، وهو بلسم رئتي.
أحب هذا البطم القصير القامة
والزعرور الزكية الرائحة.
أحب الصبار وأشواكه
والزيتون وأشواقه.
أحب هذا القصب الرفيع الذي يغني طوال الوقت على حافة النهر
وهذا المستنقع الداكن الذي تنعق فيه الضفادع دون انقطاع.
أحب زهرة الأقحوان التي تشبه بياض قلبي
وهذه الشقائق التي تؤاخي دمي.
أحب هذه البيوت الطينية
وهذه الخيم التي ترفرف كرايات على أطراف القرى المنسية.
أحب هذه الكرمة الكريمة، واهبة العنب والنبيذ.
أحب هذه السنابل الصفراء، واهبة الخبز والطعام.
أحب هذه القبرات الفخورات بأنفسهن،
وهذه الزيزان التي تصفر طوال الوقت.
أحب بلادي
من أدناها إلى أقصاها
ومن أقصاها إلى أدناها
كما يحب كردي عناده!

الطاولـــــة رقم ٢

قصة: عبد الرحمن محمد محمد

لفحات من برد كانون جمَّدت رؤوس أصابعي، دفعتُ الباب لأدخل إلى عالمٍ أشبه بعالم ألف ليلة وليلة.

– مساء الخير حامد. هل الطاولة الثالثة شاغرة... قُلتها لصاحبي مدير صالة الانترنت التي أقصدها أحياناً في بعض أوقات فراغي.

–إنَّها مشغولة منذ نصف ساعة. انظر إنَّها تلك السيدة التي تجلس عادةً على الطاولة السابعة، لكنّها اليوم جلست حيث تُفضِّل أن تجلس. حتى لا تنتظر من يُشغِل طاولتها... وأردف: أظن أنَّها ستنهي محادثتها خلال نصف ساعة.

كنت أرتاح في الجلوس إلى تلك الطاولة وأتابع بعض مواقع الانترنت وأتسقَّط أخبار الأصدقاء وأتمعَّن فيما آل إليه حال الناس في بلدتي، بعد أن هجرها الكثيرون وأضحى الانترنت سبيل التواصل الوحيد، وحلّت مقاهي الانترنت محلَّ مقاهي أيام زمان، مع فارق أنّ النساء هنَّ الغالبية هنا، وكنت أسمع محادثاتٍ منوّعة وأحاديثَ وقصصاً شتّى عندما تتحدثُ أغلب النسوة عن طريق (المايكات) مع ذويهن، ولا أنكر أنّ بعض الأحاديث كانت مخجلة أحياناً، والبعض منها كان تافهاً! ولكنه الشوق والرغبة في التواصل ومعرفة كلَّ صغيرة وكبيرة.

قفز أحدهم من الطاولة التي تحاذي طاولتي المفضّلة، وأشار عليَّ حامد بالجلوس؛ إذ كنت على عجلة من أمري، قبل أن يسبقني اليها أحد، فاستعجلت الجلوس ورمقْتُ جارتي التي احتجزت طاولتي عن قرب هذه المرّة، إنَّها ثلاثينية قمحيَّة البشرة تبدو بقامة طويلة رغم جلوسها، ومسحة من الحيرة والتلكؤ تغطي محياها.

انهمكتُ قليلاً في الكتابة والبحث عن بعض المواقع وأنا أخاطب صديقاً لي عبر المحادثة الكتابيّة، وجارتي تضع السماعات وتتحدث بصوت تظنهُ همساً؛ وأنا أسمع معظمه.

– أحمد أرجوك لم أعد أحتمل، عد فوراً حالتنا يُرثى لها في غيابك؛ ولن يعوّض بُعدك أيّ شيءٍ ولو بعثت لنا مال قارون. علمت أنَّها تتحدَّث مع زوجها وهي تقرّب طفلاً يقف جانبها وتقول: اقترب ليراك والدك يا بني. وأردفت بعد ثوان إذ لم أسمع صوت محدّثها:

– حبيبي أرجوك لا أريد قصوراً بدونك. ابنك يكاد يُجَن، ووالدتك ليس لها من حديث سواك، عد ما دُمت غير قادرٍ على أن تؤمّن خروجنا من هنا، وما دامت والدتك ترفض أن تغادر بيتها بشكل مطلق؛ والحقيقة أنا أيضاً أرغب في البقاء هنا؛ عُد أتوسَّل إليك ولن أعود لأطلب منك هذا.. تعبت افهمني عُد.

وضعت السيدة سماعات المحادثة على الطاولة بشيء من العصبيّة، نَقَدت صديقي المدير بعض النقود وخرجت، وأنا ألمح على وجهها علامات الحزن والغضب والثورة، وأسمع لصوتها تهدُّجاً وهي تشكر صاحب المقهى.

أحاديث ومواقف كثيرة مشابهة أراها وأسمعها، ولكن نبرة صوتها وطريقة كلامها ورجاءها من زوجها أن يعود كانت مؤثرة فيَّ كثيراً.

أنهيت محادثتي وبحثي في المواقع الإلكترونيّة، وسألت صديقي قبل أن أغادر عن قصة شريكتي في الطاولة، فعلمت أنّها تخاطب زوجها المهاجر منذ عام تاركاً لها طفلين ووالدته التي ترفض بتاتاً أن تغادر بيتها وحيًّها، وأنها تحاول جاهدة أن يعود زوجها إليها.

تمعنت في الجالسين وفي أحاديثهم وفي محاولاتهم وصف أدقّ تفاصيل حياتهم لذويهم على الطرف الآخر، والتناقض وأحياناً الكذب لتبرير المواقف، أولئك الذين رحلوا إلى جنة مزيفة ولم يكتشفوا بعد زيف أحلامهم وتحطمها، وآخرون تحطمت أحلامهم على صخور الحقيقة التي تؤكّد على المقولة (كما لا يمكن لأمهات الآخرين أن يكنَّ أمهاتٍ لك؛ لا يمكن لأوطانهم أن تكون وطناً لك)

المغالاة في وصف المهجر بأنه الجنة الموعودة، والكذب في وصف الوطن بأنّه جهنم التي لم تعد تطاق، ليبيحوا لأنفسهم ترك أحلامهم ووطنهم وذكرياتهم.

استمعت رغماً عني لعشرات القصص المُبكية في اندثار الأحلام وموت آمال الكثيرين عندما تجلّت الحقيقة لهم، ناهيك عن عمليات السرقة والسلب والاغتصاب والمتاجرة بالبشر.

مرَّ أسبوعان؛ عدت لصاحبي في مقهى الإنترنت، كانت الحشود أكبر في الداخل وسحابة كثيفة من الدخان تغطي المكان ويضجُّ بالضوضاء، جلستُ برهة لم أعد أرغب في الجلوس إلى طاولتي حصراً. بل وجدتني أرضى بالجلوس إلى أيّة طاولة أستطيع من خلالها إنجاز عملي، وجلتُ ببصري علّي أجد صديقتي السابقة.. دون جدوى.

أسرعت إلى أول مكان خلا من شاغليه جلست لبعض الوقت، تصفَّحت المواقع قليلاً.. لمحت سيدةً تجلس إلى الطاولة التي تحاذيني بشيء من العجالة، تمعَّنت فيها .. إنَّها شريكتي السابقة في طاولتي رقم ثلاثة.

وضعت سماعات المحادثة فوراً لمحتها تتحدَّث بدايةً بصوت خافتٍ لم أفهمه إذ كان همساً، رَنوتُ إليها قليلاً بدت علامات الغضب والحزن على محياها شيئاً فشيئاً.. وبدأ صوتها يعلو أكثر فأكثر:

–أحمد أستحلفك بربك أن تعود، لم أعد احتمل! أنسيت أنِّي حبيبتك قبل أن أكون زوجتك؟ لعن الله المال... لن نموت جوعاً... هل تريد أن أصرخ هاهنا ليسمع الجميع صوتي ويعرفوا معاناتي؟

لفت صوتها العالي انتباه البعض، ضربت بيديها على الطاولة... لمحتها تنظر إلى من حولها وقد لاحظت استغرابَهم، التقت عيناي بعينيها لأرى فيهما دمعة أحسّست أنَّها تحرق جفنيها وكأنها تَغلي من لوعتها... وعادت إلى محادثتها ببعض من الهدوء ثمَّ ما لبث أن علا صوتُها من جديد:

–أقول لك عُد... افهمني... افهم حاجتي إليك؛ أنا امرأة وأنت زوجي... وأنا مشتاقة إليك. لا أريد أن ألبس من ملابس»الماركات« عد لابنك... لأمك، عُد فابنك ينادي»بابا« كلما سمع جرس الباب، ووالدتك تهرع إلى الهاتف كلما سمعت صوت جرسه، عُد فابنك ليس بحاجة للدرّاجة التي ستشتريها فقط، عُد وارحمني من شوقي إليك...

وضعت سماعات الجهاز... وأسرعت نحو الباب، دفعته بقوة كادت أن تسقطه؛ تركتْ على كلِّ وجه ألفَ سؤال... وتساءلتْ: هل للقلوب أن تهنأ وهي بعيدة عن موطن ذكرياتها ودفء عش حبها؛ وهل يدفئها إلا حضن وطن يسكننا ونعشقه حتى النخاع.

العهد المنسي سهواً

قصة

جوان سلو

في مكان ما، بجانب رصيفٍ متداعٍ كالزمن، حافلةٌ بيضاء محترقة بضوء القمرً يتجانس لونها مع غيوم شتوية حديثة التكوين، وسُحب لا تأبه للمطر المنساب منها، لتتساقط قطرات باردة في هذا الصباح الباكر على تلك الحافلة، وتتسللُ بعضٌ منها عبرَ شقوق الأرض ويبللّها، مروراً بإطاراتها السوداء التي ترتعش من البرد. كان ينظر إليها من شرفة شقته العالية المطلة على الطريق، وهو يتلو دخان سيجارته مع نغمات الصباح، فتشاركه العصافير همساتَه، محاولة إيقاظ ولده ذي العامين، يبتسم حين يجده وقد تاه ببراءة في ثنايا اللحاف، يدنو منه بخفّة حتى لا يوقظه من عالمه الوردي ويقبّله ومن ثم ينطلق.

تأمّل للحظاتٍ في حافلته البيضاء التي تزأر كوحش مفترسٍ استعداداً للانطلاق، بعدها ترك الحرية لقدمه أن تدعس بحذرٍ على دواسة الوقود، فيسرح بها في شوارع مدينته الفوضوية بتأنٍ، يلملم بقايا أرواح موظفين امتطوا الطريقً بحثاً عن الأمل، كان القدر وحده من جمعهم في حافلته، ليتوجه بهم بعدها نحو مكان العمل.

صوت الراديو هو الشيء الأكثر قرباً إلى قلبه في ساعات الصباح الأولى، وما بين أغنية وأخرى كان يسترق النظر إلى وجهه عبر مرآة السيارة الجانبية من جهته اليسرى، فيلمح عدداً من شعيرات بيضاء قد ظهرت رغماً عنه، وشقّتْ طريقها في رأسه، ليتذكر أنه كان يفعل

مثلها حين كان يقاتل بشراسة ضدّ من فقدوا الإنسانية، فيقاومهم بسلاحه وينتصر عليهم، بينما هنا.. فستنتصر تلك الشعيرات البيضاء عليه يوما ما رغم مقاومته للزمن.

عصر ذلك اليوم، عندما انتهى من إيصال الموظفين إلى بيوتهم، مرّ في شارع مزدحم وسط السوق، ليعلق في أزمة مرورية خانقة، لا مفرّ منها، وانفجر في وجهه كل صخب المدينة من صيحات الباعة أمام عرباتهم، ممتزجة بأصوات أبواق السيارات التي تنتظر دورها للمرور، وقتها لمح سيدة بلا ملامح تقترب منه، ترمي بنفسها إلى داخل الحافلة دون استئذان، متفاجئاً من حالها، صرخ رغماً عنه في وجهها لتخرج، لكنها بقيت صامتة ولم تنطق بكلمة مما هيّجتْ خوفاً شديداً في قلبه، وتعالتْ أبواق السيارات تنذره بالسير، ليسترد هدوءه بعد أن أخذ يمينه من الطريق ونظر مليّاً إلى السيدة التي اقتحمت عالمه وشرّدتْ تفكيره لدقائق، حينها فتح الباب وطلب منها النزول موضحاً لها أن الحافلة هي لنقل الموظفين وليست للمواصلات العامة، لكنها نظرت إليه وترقرقت عيناها بالدموع وقالت: خذني إلى مقبرة الشهداء فاليوم تأبين ولدي.

وشاحها الأسود الذي غطى معظم ملامح وجهها، لم يمنع بعضا مع شذرات شعرها الأبيض من الهروب، بينما الرجفة لا تفارق شفتيها الصامتتين وسط صراخ روحها الذي ملأ الحافلة حزناً ووقار، دقائق لا تزيد عن عشرين، كان السائق ينتظرها لتنزل بأن وتسير نحو باب المقبرة التي خلت من الزوار، إلا من بعض العصافير التي تتنقل بين القبور، كأنها تتسابق مع الريح أيهما أسرع؟ وما إن سار معها بين الشواهد التي تزينت بصور لشهداء هذه الأرض الطيبة وهو يكاد يتمزّق من الخجل، كيف له أن يصرخ في وجهها، حتى رفع رأسه وإذا بها تختفي فجأة كما ظهرت أول مرة، دار حول نفسه وهو في حالة من الهلع لهذه الصدمة المباغتة، ولسان حاله يقول: كيف ذلك...؟

فعلاً.. إن هذا الطيف على حق، فاليوم هو تاريخ استشهاد صديقه، وذلك القسم الذي قطعه على نفسه لرفيقه، كاد أن يكون في طيّ النسيان، حتى أتت هذه السيدة وبعثرت كيانه وتركته هائماً في فوضى الحواس، هنا استقلّ حافلته وتوجّه إلى منزل والدة رفيقه، اقترب من منزلٍ مهترئ، ترك الزمان بصمته على جدرانها الطينية الجافة، قرع بيده على بابها الذي كان موارباً ودخل منادياً على والدة رفيقه الشهيد، ليجدها تنتظره بشوق كبير، في غرفة صغيرة كانت فيما قبل مأوى لأحلامهما أيام الشباب، ذرفت عيناها دموعاً حارة حين رأته يقبل نحوها، فما زالت ذكرى ولدها تفوح من وجهه، لتخبره أنها رأت ولدها في المنام وأنه أنبأها بحضور رفيقه إلى منزله.

مدّ يده إلى إحدى الشواهد ليلتقط بعضاً من الأوكسجين بعد أن نفذ مخزونه بسبب هذه السيدة الغريبة التي اختفت كما ظهرت أول مرة، كطيفٍ من عالم آخر، وتتسع عيناه من هول المفاجأة مرة أخرى، فقد كان الطيف مرسالاً ليذكره بيوم استشهاد رفيقه في هذا اليوم تحديداً، وها هو يقف بجانب قبره مشدوهاً.

ماتت الكلمات على شفتيه، وساد الظلام عالمه رغم سطوع الشمس، وشعر بظلال روحه تتوه في السماء وتتلاشى كغيوم ربيعية، فهل كان من الضروري أن ينسى ذلك العهد الذي قطعه لرفيقه قبل أن يستشهد على يديه في إحدى الحملات؟

قبّلَ جبينها ويدها معتذراً عن تخلّفه عن القسم سهواً، وعيناه لا تفارقان صورة رفيقه الشهيد وقد تصدّرت الحائط، ألا وهي أن يشتري لوالدته كرسياً متحركاً ذات عجلات، كونها مقعدة منذ زمن، حملها بين ذراعيه وأجلسها على ذلك الكرسي الذي ينتظر جسدها النحيل، لتتكور فيه بينما تلفّه بذراعيها وتبكي، وهما يتجهان نحو المقبرة....

قصـة قصيرة

رصاصة الرحمة

قصة

طه الزرباطي

أسباب كثيرة جعلت من الفرس البيضاء حبيبة، بل أقرب قليلاً من حبيبة، وأوفى من صديق، كان يقول تعليقاً على تساؤلات بعض الفضوليين مازحاً: ـ أنه نوع من اللجوء الإنساني إلى عالم أكثرَ صفاءً وبراحةً وصدقاً من عالمِكم ! .

فلا عجَب أن يتقاسم معها الذكريات والأسرار، والرغيف، وقطع الشكولاته، والفستق الحلبي، وقطع البرتقال، كان يُفرِّط حُب الرمان ويملأ راحتيه الممدودتين ويقدمها بحباتها التي تلمع كياقوتات ملونة، مثلما يتقاسم ملاعق اللبن والخيار (الجاجيك)، وكؤوس الجعة، ولاحقاً عندما بدأ يصلي كان يرفع صوته كأنما يريد إسماعها كنوع من التواصل، وهي الأخرى تذعن بصمت وقور لصوته الرخيم، بعد أن هجر العاصمة منذ عشرات الأعوام، مُتخذاً من المُلحق الطيني ـ البيت القديم كما سمي فيما بعد ـ مكاناً لمعيشته، والذي يتألف من ثلاث غرف متصلة مع بعضها بمخارج قوسية منخفضة، يقع خلف القصر الجديد الذي أتخذ بيتاً للعائلة.

كانا قريبين جداً يفتقدان بعضهما بشدة ويساورُهما القلقُ ذاتُه، لا سيما في تلك الليالي الباردة من الشتاء الحالك والممطر، إذ كان بإمكانك إن تسمع صوت حوافرها القلقة وهي تتجول في غرفتها ـ وهي أقرب إلى غرفة نوم ـ لذلك لن أطلق عليها اصطبل، منتظرة عودته، مُحمحمة، وسرعان ما يخيم الهدوء بعد أن يطمئن عليها كما تفعل الأم، منذ أن كانت مُهرة صغيرة لا تقوى على الوقوف على قوائمها، كان يحملها، ويشجعها على الوقوف، متوسلاً ـ باضطرار ـ بسيل من الأدعية، مستعيناً بالأولياء، مقدماً النذور كما لم يفعل مُطلَقاً، مُطلقاً صيحات فرح وهو يراها تقف، وكم أسرَّها ـ لاحقاً ـ عن مغامراته البكر وعواطفه الجياشة التي كادت إن تودي بحياته مراراً، مُستفيضا في الحديث عن مسابقات الخطابة المدرسية، ومسابقات السباحة وركوب الخيل، والرماية، قرب (كانِي سَخْت)*، حتى كان يشعر بخجل حينما يعي حجم مبالغاته عن فتوحاته، وكأنه استغل قبول حبيبته له ذريعة لتماديه في نرجسياته، فيهرب ليغوص في صمت طويل لا يستفيقُ منه إلا على ضربات حوافرها التي تحثه على المضي ليجوب عوالمه الجميلة، خاصة عندما يسرد بعاطفة جياشة وعينين مخضلتين بالدموع قصته مع بشرى، فينسى نفسه ويتحرك وكأنه يقدم مقطعاً لمسرحية رومانسية يعشقها.

(هذه الذكريات جاءت نثار الريح في ذلك المساء الشتوي المُعتم، ذلك الخط الأنيق، الصغير والمُتناغِم، التي مُزقتْ أوراق ذكرياته بعد الكتمان والعِناية الشديدة، والجزء الذي وقع بين يدي ـ من ذكرياته ـ تبدو جلية عليها سلامة اللغة، والعناية باختيار الألفاظ ، وسعة المعرفة، لكنه رمز أسماء الأشخاص والأمكنة بكتابات وحروف طُلسُمية، وأرقام صغيرة وكبيرة، وأشكال طوطمية، كأنها آثار قديمة، من تلك التي ظهرت تباعاً في تلة «العكر» بالكاف الثقيلة، أو تلك المكتشفة صدفة على أطراف قلعة الوالي الواقعة في طريق المملحة على خط الحدود (كور كدي) بالكاف الأعجمية، والحكايات المتواترة عن حضارة قديمة زامنت الحضارة الفرعونية، عاشت واندثرت وساهمت السلطات في مصادرة الآثار وتسليمها للأمن بدل تسليمها إلى لجنة الآثار، لغاية في نفس .....).

وأنا لم أفلح في إيجاد من يتطوع لفك طلاسمها، أو من عرف سبب تناثر ها، أوراقاً تذروها الريح، لكن التكهنات قالت إنه ربما مزقها لحظة غضب، لينفصل عن وجوده السابق وذكرياته، أو ربما نثرها بعدما تساوى لديه السرُ والعلنُ، أو ربما عاثت بها حوافر فرسه الجامح لشعورها بانتهاء كل شيء، لكن لا أحد يجزم شيئاً، لكنه ربما مزقها لحظة جنون بعد أن قرر إلغاء حِكمة العقل والمنطق ساري المفعول بقوانينه المفروضة كسلطة واجبة الطاعة، الطاعة العمياء كما قيل عن لسانه من قبل بعض المقولين.

وهي اليوم تشارك في رسم مصيره هو وقرينه الروحي أحمد، بعدما سقط أصدقاؤه في عوالم مختلفة كأوراق الخريف، هي الأخرى قد بادلته مشاعر أنقى من أن نطلق عليها (حيوانية)؛ بل هي حتى أسمي من بعض إنسانياتنا (كما كان يصرح باعتداد وإصرار)، فلا غرابة أن تشاركه اليوم محنته وهي تعبر بهم اليوم غابات المدينة ـ حتى تلك البساتين البكر التي لم تطأها حوافر الخيل منذ أن هجر الناس البساتين وأصبحوا موظفين أنيقين، ومخبرين ممتازين، تركوها للجن وللصوص، وللخنازير والحيوانات الجبلية، والهاربين من الخدمة العسكرية ـ إلى الحدود كرحلة سحرية ملأت الذاكرة بقصص قديمة، كان يصوغ أحداثها جاسم بصبر وحنكة قرب الموقد الطيني وهو يتواصل لف لفافاته من السكائر بترو، ماراً على نهاياتها بطرف لسانه الرطب ـ مهمة الحياة والموت هذه، وهي تجتاز الموانع الصناعية، كجدران البساتين المتهدمة، وبقايا النخيل الساقطة، وأحراش النباتات البرية الأبرية التي وزعت أجمات العليق ابرها بالتساوي بين سيقانهم المكشوفة خلل الدشاديش، وجسد الفرس التي واصلت طريقها مستوعبة ـ وهي تنزف في أكثر من مكان ـ حجم المهمة التي أنيطت بها وهي العبور إلى الحدود بين الوديان والأخاديد الحادة كسكاكين لبدايات تشكيل أخاديد جبال (زاجروس) الحادة والدميمة، تهرش الحصى،

وتطش المياه في الأراضي المزروعة، وتطحن الرمال، تتناغم خطوات حوافرها، مع نفسها، وضربات نبضها المتسارع كضربات طبول تأتي من بعيد (تتم...تتم..تتتتم)، شاعراً بحجم جميل هذه الفرس، ماراً يديه على رقبتها بحنو، وشُكر، وكلمات غزل، في هذه الليلة الحاسمة للوداع، للحظات يشعر وكأنه يعتلي البساط السحري الطائر، لحظة خلاصه من جحيم القلق، والوحدة، والشعور بالموت المُرتقب والمطارد كالظل، سوف لن يعشق أبداً بعد الآن، ولن يحب إنساناً، أو بستاناً، أو حيواناً، أو مرتع صبا، أو مسقط رأس، ولن يعزف في القصب الخاوي لحناً حزيناً، سوف يتحد مع البرية، هذه بضعة من أفكاره التي تهطل من سماء روحة الملبدة بالحنين، وبالضياع.

لم يعد إلى رشده إلا عندما كبت الفرس المرعوبة من دوي رشاشات رجال الحدود، أو رصاص المهربين الرسميين، وأزيز رصاصها الذي مزق الهواء قريباً من آذانهم كنذير شؤم، التوت الساق اليمنى وانفصل المفصل القريب من الحافر، تلحفوا بظلام تلك الليلة، واستكانوا بصمت الموتى متجاوزين بقليل دعامات الحدود النابتة في جسد الجبل كحقيقة مفروضة، أو بعدها بأمتار قليلة، حتى الفرس كتمت أنينها، كان قريباً من منخريها، يتنفس زفيرها، بينما دموعه المدرارة وجدت سبباً لتتوارى في ظلام تلك الليلة، اقترب قليلاً ضم رأسها المحبب إليه (كاد ينسى أحمد لولا أنة الألم التي خرجت رغما عنه)، العناق الحميم حفز الدمع أن ينزل على رقبة الفرس، انقطعت أصوات و همهمات رجال الحدود، وصفير الريح المار في الأخاديد والوديان ـ المشكلة عبر قرون ـ والشجيرات الأبريّة، ثم عاد وانتظم تنفسهم هم الثلاثة، ورجعت القلوب إلى رتمها المعهود، كان يتحسس الساق المدلاة، وشعر بحجم المصيبة، وكحركة احترازية تحسس موضع المسدس، وهو يقرر حسم الأمر برصاصة الرحمة، ضغط على مقبض المسدس في موضعه، وأخذته خيالاته إلي الجامعة التي يهرب إليها عند جنوح أفكاره، إلى الأيام الأخيرة فتخيل ولأول مرة أحضان أصدقائه؛ الدفء الإنساني، والدموع السخينة، كأنها كانت إطلاقات رحمة إلى أجساد الأحبة والإخوة والحبيبات، قال في نفسه نعم اليوم أدركت، كنا نقتل بعضنا، رحمة منا بعضنا للبعض لأن وثيقة التخرج ستبتر أمانينا اللعينة تلك وتصبح حائطاً عصياً بين عالمين، أما بشراي التي ماتت قصة تواصلها معي، كزوجين، كحبيبين، وكعاشقين، ستنتهي قصتهما الجميلة برصاصة الرحمة هذه، وهما لم يعودا يختفيان خلف الأشجار لتطبيع قبلة حرى، بل يتعانقان، أمام أعين المارة بلا أدنى اهتمام من الطرفين، أقصد المارة والعاشقين، طلقات الرحمة كانت قُبلاً مجنونة، ولحظات ضم قاسية، ووداعاً مستمراً، يضطرب النبض في صندوق الصدر، يكاد الخفقان يشبه تصفيق جناحي طائر وجل، يسرق لنفسه أجنحة ليطير مُرتعِباً من الخطى العابثة في رطوبة الليالي الحزِينة هذه، هل كانت قصة حب بديلة بينه وبين الفرس؟ هل الفرس مسخت بشراه على طريقة كافكا؟ وهل أعطت العذراء الجميلة قلبها للمهرة لتمارس عشقها بالنيابة بعد أن تطلب الحب فيزا من السلطة؟ وهل عليه وللمرة الثانية، والثالثة والعاشرة أن يطلق رصاصة الرحمة على أشيائه الجميلة كلها، في بلد يحتضر فيه الجمال؟

ثم استفاق فجأة من كابوس الحدود اللعينة التي ستفرق بينه وبين أحمد ابن خالته، كان أحمد يعرف حجم تضحية باسم، ويعلم أنه قد نذر عمره لينقذه ويعبر به الحدود ـ ليحيا نيابة عنه، لأنه خبرَ استسلامه ويأسه ـ مختفياً عن أعين رجال الشرطة والأمن والمخبرين، لينقذه من حكم الإعدام الذي سيناله بسبب أفكاره، لكنه أدرك أنه مرة أخرى سيطلق رصاصة الرحمة على تعلقه بأحمد وذكريات طفولتهما وصباهما، كاد أن يقول له في لحظات عاطفية، أنه حتى في أكثر لحظاته شخصية يشعر أنهما كانا معاً، يشاركه الغبطة، والقبلة، والنشوة،

مثلما يشاركه أفراحه وأحزانه، وكان يتمنى أن يطول بهم الطريق إلى ما لا نهاية، على الرغم من المخاوف، والظلام، وملاحقات الأمن.

الأصدقاء الذين غادروا بدموع، أو غادروا فجأة إلى كل أنواع الحدود، في الصحراء، في قمم الجبال، وفي الرمال، أو بين القصب والبردي هناك اختفوا، أو تصيَّدتهم أيد غيبية، وهم عائدون من دور السينما، أو من جلسة سمر لكأس من النبيذ، أو عادوا في الكراسي المدولبة مشوهين كرجال أبطال أفلام الرعب بفعل النابالم، أو الذاهبين إلي صلاة الفجر ولم يعودوا، كان يمسح دموع (سهل) وهو يسأل عن أبيه وعمه اللذين ذهبا إلى صلاة الفجر ولم يعودا منذ ستة أشهر، (هل هناك تنين في المسجد عمو باسم؟) .

تنين في المسجد، وفي مكتبة الجامعة، وفي دفتر الذكريات، وفي حواري (المرَبّعة) الضيقة والمتشعبة، تنين مارد يطارد خطوات بُشرى، تنين في خطوط الجبهة الأمامية وأخرى في الخلفيات، تنين يستغل اطفاءة عيني رجب البقال ، ويأكل الآباء، الذين لن يعودوا بكيلو خيار (عطروزي) ليتك لم تشتهي خياراً يا.....، وليته لم يلق باراً مفتوحاً ليثرثر بالسياسة العقيمة، ولا مسجداً، ليته لم يَفك حرفاً؛ لما كان قد قرأ أطناناً من الورق الأسمر، لكن الحرب سيدة التنين، أكلت مُدناً ونخيلاً، وأشجار المشمش، والكمثرى، والرمان، وآثار المدينة التي فجروها، قلنا لهم أنها آثار قديمة تعود لأيام النبي إبراهيم (عفطو) بشكل جماعي كأوركسترا أنهم الجنود الذين لم يميزوا بين خارطة الوطن وخارطة العدو، الحدود تنين ترك الأطفال الهاربين والمرحلين لقماً سائغة للحيوانات البرية، ولتجار الأعضاء البشرية، الحيوانات الجديدة التي اخترعتها الحروب وشكلت طباعها الجديدة، واستساغت لها لحوم البشر.

اليوم أقدم أحمد للحدود قرباناً جديداً، أقول من وراء القلب (روحه بلا رده) أيها الحبيب الغالي، كما أقدم بشرى الفرس، ولا أعرف بالضبط أين هي بشرى الحبيبة (الآن) هل ذبحوها؟ أم مزقتها المفخخات اللعينة؟ ربما ترملت!؟ وربما هي ثكلى الآن؟

أو اغتصبها أحد الأبطال المدمنين على النصر، أو صادرتها السفن غير الشرعية، أو ماتت في إحدى السيارات الحوضية التي نقلتنا لاجئين غير مرغوب بهم أذعنوا للصمت، أغرقوا، أو ماتوا بعد أن نفذ الأوكسجين على حدود بورتوريكا، أو آلاسكا، أو عند حدود الجنة الاسكندنافية المزعومة، أو في اليمن السعيدة،أو في الصحراء السودانية في طريقهم إلى الجماهيرية العظمى.

اهرب ، لا..لا نهرب إلى الخيال نعيش ألف ليلة وليلة مرات أخرى وسط الحرب، نحتفظ ببراءة اكتشاف ليالٍ أخرى من ألف ليلة لينسانا المارد قليلاً، الحرب في كل مكان، نلوذ إلى أنفسنا، نتذرع صبراً، نحتمي بالقرآن الثوري بذلنا القهري.

صلى بعد أن توضأ بالغبار الذي يغطي وجه الصخور، صنع من بقايا الأغصان اليابسة جبيرتين، لذراع أحمد المنتفخة بإحمرار، كان يربط الجبيرة بالخرق خافياً دموعه، بما أوتي من خدع، فمرة يميل رأسه ذات اليمين وذات الشمال، غارقاً في تأملات شتى تتغير ملامحه إزاءها كل لحظة، حتى تقمص وجهه الفصول الأربعة. بسرعة أخرج مسدسه وبيد مرتجفة سحب إطلاقة، تلقفها بيت الترباز، أدار وجهه عكس الاتجاه ودوت بصدى تردد لوقت طويل، طارت الطيور المختفية، وغيرت حيوانات مختلفة الأسماء والألوان جحورها احترازاً، ثم استسلم لليأس بعد أن بدأ هيكل أحمد يتلاشى مبتعداً بين الصخور التي تنتمي لبلد آخر، ضاع أحمد، وعاد باسم، يتخيل منظر بشرى، عينيها الواسعتين، طرف شفتها البض، شعرها الأشقر النازل كذوأبات ذهبية على جيدها المرمري، كانت ملاكاً بمعنى الكلمة، مرهفة، تتحسس حزنه، وجبروت روحه المعطاء، تلمسه بأنامل كالشفق تبعث في روحه الطمأنينة، آخر لقاء تحت شجرة الرارنج الزاكية قالت: ـ هددوني بالقتل قالوا (بأننا خائنان ولا يجوز لنا ممارسة دعارة الحب).

قلت: دعوا الخونة لبعضهم، دعونا، افهم يا باسم أنها لحظة لن تتكرر، لم ولن أعشق سواك، كيفما وأينما نكون، لو نستمر يعني أن تَموتَ، لطفاً أطلِق رصاصة الرحمة على قلبي، فلن أكون لغيرك، لن أأأأككككووون لغيييررررك .

لحظة دوت رصاصة الرحمة، الرحمة اللعينة! استفاق باسم من غيبوبته التي دامت عشرين عاماً بالتمام والكمال، عندئذ فقط أطلق الرصاصة الأخيرة على عقله، ربما قرر عقله الانتحار بالرصاصة الأخيرة من جعبة رصاصات الرحمة، وربما برصاص متخيَّل مصوب منذ حين لكنه نفذ الآن.

عندما أشرقت الشمس على بياض جسد الفرس القتيلة برصاصة باسم! وضاع أي أثر لأحمد، وجد أنه لا جدوى من عودته، حري به أن يعيش مع حيوانات الجبل وأن يخرج من سجن إنسانيته المصادرة، سينجح في انتقاء أسماء جديدة لها دلالاتها، وسينتقى لغة جديدة للتفاهم، لكن لا أحد يعلم هل كتب تعويذاته الشاعرية باللغة الجديدة، أم استمر يَلثمُ حُلمة اللغة الأم بحثاً عن اكتشاف، ولم يكن لأحد أن يفهم اللغة التي يغني بها مواويله، التي يتردد صداها في (تنكة)** الجبل ملحنة بتداخل المحمداوي مع الدبكات الكردية، في طريق المهربين الرسميين للحشيشة، والشـــاي، الذين رددوا ألحانه وكلماته بصداها كما سمعوها منه، يضربون الأرض، زعموا أنها لباسم، تصوَّرَ البعض أنها ستصبح جزءًا من فولكلورنا الوطني بعد حين أو تصبح لازِمَة للنشيد الوطني القادم من يدري.

* قطعة أرض تمتد كبساط أخضر عند قدمي (زاجروس) في نهايتها عند حافة الجبل توجد عين ماء تدعى (كاني سخت)، كانت تستغل يوماً للأعراس واحتفالات نوروز وتعليم الفروسية .

**بالكاف الثقيلة وهي نقطة التقاء سلسلتي جبل وممر صعب للعبور، وهنا أقصد ما يعرف بتنكة مهران منبع مياه (الكلال) على حدود مدينة زرباطية .

على شاطئ قلبها

قصة

فخرالدين إسماعيل

خرجت أم مظلوم من البيت متجهة لقطف ذكرياتها، خرجت تبحث عنهم، تاركة رسومهم المعلقة على الحائط راغبة في لملمة ذكراهم من أنفاس الطبيعة، لكن أصوات الطقطقات والصواعق وأبواق الحرب تردّد: لا ذكرى على ذكراي، أصوات الطلقات لا تترك قريتها لا تترك آذانها، جبالها تصرخ وتناجي السماء لسكب الطوفان على النيران المشتعلة من أيدي الجهالة. أم مظلوم المسافرة بكل أفكارها خيالاتها إلى الجبال إلى كبدها إلى قلبها، تنوي العودة من هناك.

القرية كلها تعرف أم مظلوم الصامدة والراغبة بالهضاب، الراغبة بالسلام .

أم مظلوم لها عينان نابضتان كالعاشقين، تنتظران من الأفق شعاع الأمل، في كل مساء تحمل سلة ذكرياتها وتطوف على جيرانها، لتعطي وتنال منهم الذكريات التي من هناك. في ذات مساء وقعت سلتها وتناثرت الذكريات، فأرادت لملمتها ولكن بقت ذكريات لا ترغب بالعودة إلى سلتها، لأنها طارت إلى أحضان الأثير إلى هناك، عشقت البعيد وكرهت الفراق وأرادت العيش مع البعيد مع هناك، هناك حلمها، هناك أملها، هي مع هناك، وتسهر تحت صورهم المعلقة على الحائط، تحتمي تحت أفئدتهم، آمالهم، ثقتهم، وذات يوم رأت قطتها تركض إلى صغارها، تخيلت أمومتها وجلست إلى جانب قطتها، هائمة إلى هناك، شاربة من روح الطبيعة نشوة الأمومة، أرادت بدورها أن تركض إلى أطفالها لإعطائهم الغذاء، الحنان، الأمل، رفعت رأسها إلى السماء همست في داخلها والقلب يعتصر صدرها من الأوجاع المكبوتة، هم هناك وراء الجبال الشاهقة، سافرت بمخيلتها الى هناك ومرت عليهم وردة وردة وأعطت لكل منهم قبلة، ابتسامة، دمعة، نشدت أغنيتها، غناء الأم الصامتة والصامدة تحت أثقال وأوزار الكبح المتفشي في أزقة القوانين.

تذكرت كلمات الأمل، الصبر، بعد أن انهمرت من مآقيها دموع امتزجت بالدم، هم هناك ضد الرصاص، ضد ذلي، ليكن النصر لكم يا أنصار نصري. من هناك راجعون يوماً راجعون.

ما زالوا على الوعد

قصة

ثناء حاجي

العشرات من المسلحين نزلوا من سيارتهم بسرعة، في بقعة منهارة متهدمة، بالأمس كانت مدينة الرقة مأهولة بالسكان، بلغت أعمارهم ما بين الثامنة عشر وفوق الثلاثين، ظلوا قريبين من سياراتهم العسكرية الملبئة بكل أنواع الأسلحة المتطورة، كانت أعينهم تحدق بانتباه وحذر شديدين باتجاه الرجل الذي لم ينزل بعد من السيارة السوداء التي تتقدمهم في المقدمة، ويبدو أنها ستتوقف أيضاً، فتح الباب الخلفي لها من قبل السائق، لينزل رجل صارم الوجه، مقطّب الحاجبين، مشدود القامة ومنفرج القدمين،

لم يكن قائداً عسكرياً فقط؛ بل أميراً لهم، يحاول كبح جماح غيظه، أمر طارئ جمعهم ويتعلق بالقائد، فالمسألة لم تكن مرتبطة بتنظيمهم، بل متعلقة بالقائد نفسه، أحدهم غدر به أو أفقده شيئاً ثميناً.

يتراءى من وقفته أنه كان يحاول بذل جهده للحفاظ على جبروته وعدم الانفجار أمام رجاله، بدأ قائلاً:

– مهمتكم ليست سهلة، وعقابها ليس هيّناً كذلك، لكن لا يستصعب عليكم أية مهمة؛ غير أن ما حدث هو نتاج إهمال البعض منكم، لذا يتوجب إصلاحه على الفور، وإلا لن أرحم أحداً.

في حين كان الصمت قد قيّد ألسنة كل رجاله، حتى من لم تكن له علاقة بالأمر بقي محتفظاً بالصمت واختار السكون بديلاً للمدافعة عن نفسه.

بالمقابل أخذ قائدهم الغاضب، يعض بحنق بأسنانه الكبيرة على شفته السفلى، حملق في رجاله وأخذ يراقب أعينهم، منتظراً ردة فعل أحدهم، ليصب جام غضبه فيه لتهدأ أساريره قليلاً؛ لكنه لم يبلغ ما كان يصبو إليه وظل بعيداً عن ناظره.

لم يستطع السكوت أكثر، فقد صوابه لشدة صمتهم، صرخ غاضباً:

– ليتكلم أحد منكم ويشرح لي ما حدث وكيف حدث؟ وليكن رجلاً ويعترف بذنبه.

فشل للمرة الثانية من تحريك لسانهم، اقترب من أكبرهم سناً، وأشار بيده نحوه قائلاً:

– أنت تكلم وكن رجلاً.

طول قامته وعرض كتفيه، وقوته البدنية، لم تمنحه الجرأة لرفع بصره والخروج من صمته.

انتقل بنظره لآخر ووجه السؤال ذاته له، لكن لم يحدث أي تغيير في المشهد؛ رمقهم بنظرة توعد، تابع كلامه:

– أنتم أجبن مما توقعت، يتوجب قطع ذاك العضو الذي جعل صفة الرجل تطلق عليكم، حينها فقط يمكنني أن أرتاح، ألا تخجلون من أنفسكم؛ فقط عدة مقاتلين استطاعوا التسلل إلى نقطتهم، ولا يحملون سوى بندقية عادية، ويصلون إلى غرفتي ويأخذوا فتاتي التي لم أهنأ بها بعد، كنت أظن أنني خلفت رجالاً قادرين على أكل لحوم البشر؛ ليتني أستطيع ملاقاة أحد من هؤلاء، فقط لأشكره، لأنهم أظهروا الرجولة الحقة، ويستحقون الانتصار علينا رغم قلة الأسلحة التي بحوزتهم.

أريد منكم وعلى وجه السرعة، الإمساك بأحدهم، لأنهم لا يزالون في منطقتنا؛ لديكم مهلة ثلاثة أيام لإنجاز المهمة، وإن لم تتم فعليكم التشهد على أرواحكم. ثم أشار لحارسه الشخصي، استقل سيارته ثانية وغادر.

تمكنت من سماع كل ما دار بينهم، كذلك رأت الحقد والعقاب الذي ينتظرها مجرد الوقوع بين أيديهم.

همهمت ببعض الكلمات في نفسها، «يا إلهي هل سيتمكنون من الإمساك بأحد المقاتلين الذين يخاطرون بحياتهم لأجلي؛ لابد أن أتصرف وأخبرهم بالتمهل وعدم المجيء هذه الأيام».

حالما ابتعدت سيارة قائدهم عن الأنظار، كسر أحدهم جدار الصمت، أخذ يزعق بجنون:

– من كان المسؤول عن حراسة تلك الفاجرة؟ لأن عليه أن يتحمل العاقبة وحده، فما ذنبنا نحن؟! يريد منا القبض على تلك القذرة في غضون ثلاثة أيام، وكذلك بأحد الكفرة، هل يظن أن الأمر بهذه السهولة، كما تعلمون المنطقة كبيرة ونحتاج لأسبوع على الأقل كي نبلغ مطلبه؛ ولنكن صريحين من منا يستطيع الاقتراب منهم، لا يعرفون الخوف،

بصعوبة بالغة يقتل واحداً منهم، ويظهر مكانه العشرات، لذا علينا من الآن التشهد على أرواحنا أو إيجاد مخرج للهرب معا فمصيرنا مشترك، فلن يرحمنا كما تعلمون فقد فعلها كثيراً، بطلقة واحدة سيكتم على أنفاسنا، ولن تشفع لنا كل الخدمة التي قمنا بها لأجله.

أسكته آخر قائلاً:

– اسكت يا جبان؛ أراك تستخف بقوتنا وما لدينا من أسلحة وعتاد، فلنبدأ بوضع خطة للبحث فوراً، بدل اللطم على وجوهنا مثل النساء، وإذا كنت تود الموت جبناً فليكن ذلك؛ لكن اخترها لوحدك، أما نحن فلم نستمتع بعد بمتع الحياة.

حملق الأول به طويلاً مضمراً أمراً ما، مد يده على خصره، أخرج مسدساً صغير الحجم، دون تردد وبحركة خاطفة، صوب باتجاه من وصفه بالجبن، طلقة واحدة كانت كفيلة بقتله.

– هل ما زال لديكم شك بأنني جبان.

وراح يقهقه، مما خلق ضجيجاً بين خائف وغاضب ولا مبال، تعالت أصوات الرافضين لما حدث للتو:

– لا نريد الموت لأجل كافرة متعفنة...

نصب نفسه قائد المهمة:

– هيا يا إخوة، علينا البدء بالبحث فوراً، حتما سيأتي لإخراجها، وهذه فرصتنا الوحيدة، كما قال القائد يستحيل أن تتكون المجموعة قد تمكنت من مغادرة مناطقنا بهذه السهولة؛ لذا يتوجب الانتشار في الحال، ونتوزع إلى مجموعات من ثم تتجه كل واحدة منها في اتجاه، مع دوام التواصل فيما بيننا إن استجد طارئ، فالتنسيق في تحركاتنا مهم للغاية لإنجاح مهمتنا.

قبل أن يبدي الجميع موافقتهم، دويّ الانفجارات أخذ يتصاعد في سماء المنطقة مشكلاً هالة سوداء ضخمة، أخذت تقترب رويداً رويداً، منذرة بهلاك المنطقة برمتها، فالقذائف أبدت موافقتها على إصابة الأهداف، والإسراع في أداء مهمتها.

هرب الجميع وتفرق ذاك الجمع بلمح البصر، البعض لقى حتفه، ولم يتمكن من الخلاص، فالقذائف لم تخطئ الأهداف التي حددت مسبقا وبدقة، في حين نجا آخرون وخلف التصويب قتلى مزقت أجسادهم، وتحولوا إلى قطع منتشرة هنا وهنالك، بالإضافة للعديد من الجرحى.

الناجون منهم استطاعوا الغوص بين الأبنية المتهدمة، كما باتوا قريبين جداً من ضالتهم، ولسوء طالعها؛ اقتربوا منها في التوقيت الذي سيتم مهاتفتها لأجل أخذها، وإيصالها لخط النجاة. تتصبب عرقاً، ترتجف أطرافها، الهلع نال منها، لابد أن تفعل شيئاً، فالكل في خطر، عليها اتخاذ قرار صائب قبل وقوع ما لا يحمد عقباه، هل تغلق الهاتف؟ أم ترد على المتصل همساً؛ تحذره من تأجيل القدوم؟ الوقت يمر كالبرق، والقرار لم يؤخذ بعد.

سأكتم الصوت كي لا يسمع رنة الهاتف، لكن كيف سأوضح له الوضع؟ يا ليتني أستطيع إيصالها كتابة، سأحاول وأتمنى أن يفهم مني؛ تمكنت أخيراً أن تكتب جملة (إنهم بالقرب من مكاني)، بعدما أرسلتها تأكدت من كتم الصوت، أصبحت الساعة الرابعة عصراً وهو التوقيت المتفق عليه، يبدو أنه فهم فحوى الرسالة، تجاوزت الساعة الرابعة ولم يرن، تنهدت تنهيدة ساكنة وظلت مخفية في فؤادها كونها اطمأنت من عدم قدومهم.

آه، آه، كيف سأبتعد عن أنظارهم؟ حتما سيقتربون أكثر ولكي يحموا أنفسهم من القذائف، التي لا تهدأ، حتماً سيتوغلون أكثر للداخل، حينها سيكتشفون أمري؛ وهذا يعني هلاكي.

الأقدام تقترب، تتسارع ضربات قلبها،

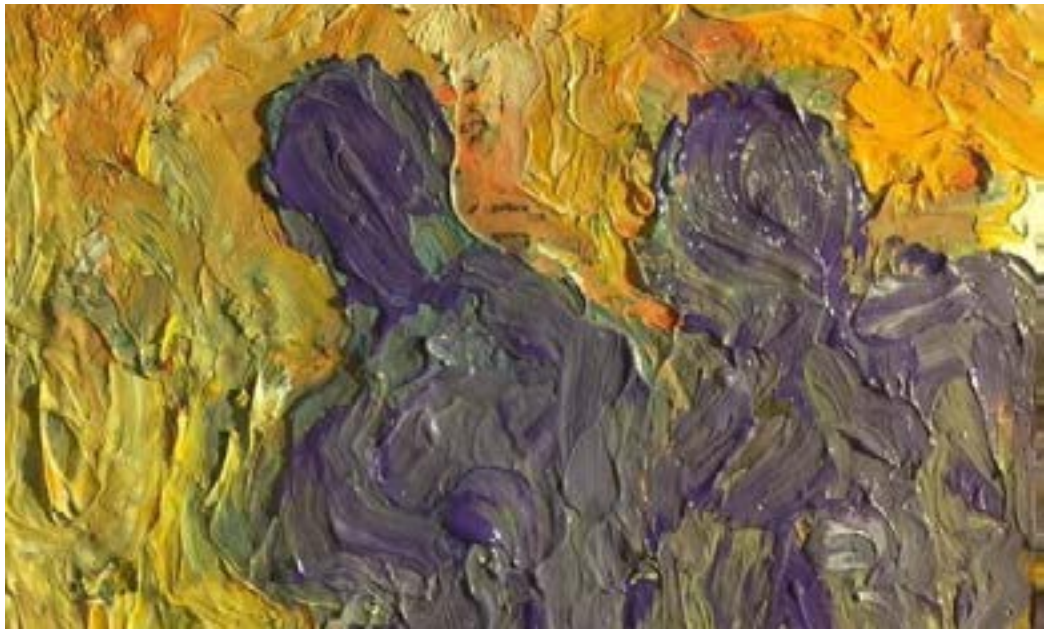

شفتاها ترتجفان، لا يساعدانها كي تتضرع للخالق، حشرت جسدها في زاوية ضيقة ومعتمة، فقط تتحسس خطواتهم، يتوقف أحدهما ويشير قائلاً:

– أظن أن هنالك من يختبئ في الظلام، هيا تفرقوا كي نستطيع حصاره والإمساك به، باتت تعد آخر لحظاتها، يا إلهي لقد دنت نهايتي، اكتشفوا أمري، اجتمعوا بنفس الاتجاه بحركة واحدة، كل خطوة من أقدامهم تنغرس في قلبها وتمزقها.

– يصيح أحدهما، إنها هي التي بسببها تلقينا الشتائم من أميرنا؛ لن تفلتي يا كافرة. ركضوا كالضباع الجائعة، لتنهش في الظبية المجروحة، تعالت صيحاتهم فرحاً.

– هيا اخرجي عليك اللعنة؛ نقسم بالله لولا الأوامر، لذبحتك وشربت من دمك النجس. لم تتحرك من مكانها، شلت أطرافها، امتعضت غيظاً، لم يتمالك نفسه، أعطى الخيار لقدميه ليتقدما، اقترب منها، مد يده وأمسك بها، شدها من شعرها، محاولاً جرها للخارج ولسانه لم يتوقف عن إطلاق اللعنات، دفعها بكل ما يملك من عزم ورمى بها وسط الشارع، على إثرها شكلوا حلقة مجتمعين حولها، ليبدأ الرجم من قذف الشتائم والنظرات الحاقدة، كذلك الوعيد الذي ينتظرها، سبق الكل وتناول هاتفه على وجه السرعة، كي يزف البشارة لأميره الغاضب.

ما هي إلا دقائق؛ حتى تقاذف الرصاص من كل حدب وصوب، أغلقت عينيها، عدة ثوان فقط حولتهم لجثث هامدة، توقفت الأسلحة، ساد صمت مرعب، أحست بقلبها لا يزال ينبض، أمرت جفنيها ليسمحا لعينيها رؤية ما حدث للتوّ، وحدها منتصبة وسط جثث أغرقت بدمائها، رفعت بصرها وكأن إكسير الشجاعة تسرّب لجسدها، مانحاً إياها الاستقواء والأمل، حالما رأتهم أشرق وجهها، كانوا هم القادمون، فلم يخلفوا الميعاد...

خوف بلا أسنان..

تأملات استقصائية

دراسة في رواية «خوف بلا أسنان» للروائي الكردي حليم يوسف

المرض، الدال على الضعف الذي هو طبيعة البشر مذ سلكوا طرقاً مختلفة لعيش الحيز الزمني من حياتهم لحين معانقة الموت، ليس إلّا بمثابة قناعة متصلبة عن سلسلة عادات وتقاليد مجتمعية تقود المرء لاستعمال لا شعوره بغية امتصاص الموروث الاجتماعي منذ الطفولة، لأن الطفل يمص ثدي أمه، وفيما بعد إصبعه ولا يكتفي، بل يمص بحدسه وإحساسه مع تقادم نمو فكره ومعتقدات البيئة وسلوكيات المحيطين به. هكذا بدأ حليم يوسف بالحديث عن ذلك الخلل النفسي والعضوي وما يقاربهما من صفات وخصائص تخص العقل وطريقة التفكير والقناعات التي تحيط بأهل البلد على نحو مسلم به،

ريبر هبون

كذلك فإن حديثه عن معتقدات بعض الناس في أن طرق التداوي الطبية أحياناً قد لا تجدي، مقارنة مع القناعة السائدة حول طريقة الشيوخ في معالجة الأمرض المستعصية، ومن ثم نظرة المجتمع لذلك تبعاً لأطوار عيشه وتطوره، إذ نجد الرواية مرآة لآلام الفكر والحب، وكذلك متنفساً لطرح الغبار القاتل الناتج عن ذلك التصارع العنيف بين قوى المعرفة والعطالة، إنه بناء منطقي لحياة مكتظة بالفناء وشخوصه وانصهار كلي للعالم الصاخب في بوتقة خيال مدرك لما يحدث، يواكبه في ذلك لسان حال عارف بالعلة، وعامل على إجلائها وتبيان أسبابها ومسبباتها، لهذا تعمد الرواية الواقعية الحاملة في لبوسها المزدان بالتساؤلات، كل تلك الحياة المختزلة لنمط العيش، وكذلك طبيعة النظام الذي أربك لدى العقل المعرفي ملكاته ومواهبه، لهذا نجد الجهد الإبداعي مواكباً لخلجات المرء ومدركاته على حد سواء، لإسباغ القيمة المثلى للمجابهة، وبيان حقيقته المتطلعة لحياة أكثر عدلاً ورفاهية، تأكيداً للطاقة التي تسعى دون تمييز أو هدف والتي تذهب لخدمة السلطة ومآربها، حيث نجد المعنى في رحلة الإنسان المعرفية في رحاب الوجود انطلاقاً من جغرافيته التي يحملها في سيمائه وسلوكه ومواقفه وثقافته، تجعلنا نقف أمام حقيقة التطلعات الحثيثة لإيجاد حياة أفضل خالية من العبودية والتسلط الناجمين عن امتصاص الجهل والخوف، وكذلك جملة التقاليد السلطوية في عبادة الجماهير للرعب القائم في حياتها ومؤسساتها، فبخوضنا في رمزية الخوف ما نلبث أن نقع في فخ التساؤلات المفتوحة على احتمالاتٍ عدَة تؤرخها الأحداث على طاولتي الزمان والمكان المتلاصقتين، ولعل الخوف يمثل أصل التنازع بين البشر، وذلك التسلط القائم الذي يؤثر سلباً على الحياة بما يحمله المجتمع من معايير وقيم، فما أن يطغى الخوف على الذهن، حتى يتم تحوير القيم عبر تأثير الرعب المفروض على الذائقة العامة، إذ يمثل الخوف بداية التعلق بالوهم، حيث تشعر المجتمعات المسلوبة من حريتها وعقلها بأن الخوف شيء لابد من وجوده، وأنه مرتبط بوجود إله يجب أن يُعبد ويتم تقديم القرابين البشرية كرمى له، وكذلك فإن طاعة الحاكم من طاعته، وأن كل ما يحدث من بلاء وفساد، هو إرادة ذلك الإله السادي، لهذا نجد الخوف قد بات منظومة ناتجة عن تلاقح رغبات السلطوي مع ما يفند أسباب بقاءه حاكماً بنصٍّ مقدس، يتلقفه البسطاء ببراءة ساذجة وعنف ممنهج، لقد امتزج الخوف بالمكان والزمان والتربية والمعرفة التي يتلقاها التلاميذ في المدارس، وقد جعلت الحلوق مكتظة بالأنين والكآبة جراء تقمصها الخوف باحترافية، حتى صارت الثقافة الشعبية والمكتسبة من حقول التربية والتعليم وجهاً لطبيعة المجتمع الذي يتحدث عنه الروائي في هذه الرواية، خوف بلا أسنان، لهذا ظلت الشجاعة في الخطاب الشرق أوسطي مجرد وسيلة لتقمص ماضي متخم بالأكاذيب والاعتزاز الوهمي الذي لا يمكن الاستنجاد به لبناء شجاعة مستمدة من الواقع الشاحب، أي من هذا الحاضر المحاصر بأغلال السلطة وممارساتها التعسفية تجاه المجتمع والأفراد، فأمام هذا الضغط التاريخي والإرث السلطوي، تجد المجتمعات نفسها في حالة من الاغتراب عن ذواتها، فتمارس عيشها بضرب من الجمود والاتكال والخوف من الغد، ولا يتم ردع الخوف بالسبل الفكرية لغياب الفكر والاكتفاء بالتسليم لحقيقة ما يحدث، فهو قضاء وقدر حسب المفهوم الديني الجاهز لاستقبال الخوف، فالعين التي تبكي من خشية الله وفق التعبير الديني المرمز، هي ذاتها تلك العين التي تبكي لبطش الحاكم ورب العائلة وأستاذ المدرسة، فلا يمكن في الحقيقة فصل التراث الديني عن السلطوي كونهما أداتين عميقتين في سحق التنوير الاجتماعي، لهذا تكتظ جموع الخوف في المسيرات التي تهتف بحياة الرئيس الخالد، ابن الله على الأرض، ذلك الذي أعطاه الإله الملك بقضاءه وقدره وإرادته، لهذا على الناس أبداً المسير هاتفين بحياته، وهم يحملون خوفهم كجينات تدخل أعماقهم وأذهانهم، وهكذا لن يتم بيسر خلع أقفال الخوف، حيث تتحول الشوارع

إلى متاهات وسراديب تتنقل عبرها الكتل الآدمية، ولا تبدو الأخلاق الجمعية إلا معايير مقتبسة عن ثنائية الحاكم والمحكوم، على غرار الخالق والمخلوق، لهذا تبدو العقول خاوية سوى من ترهات وأقاويل يتناقلها البسطاء جيلاً تلو الآخر، لتزيين نمط حياتهم الأشبه بتلك الفكاهة السوداء، التي تعتبر عنوان حياتهم وسر فظاظتها وتشاؤميتها، لتغدو أحلام الديمقراطية والانفتاح عن المجتمع مجرد قصص لا تكاد تملأ الأرواح الخاوية سوى من أحلام لا تقيها هاجس الضياع والاغتراب المزمن.

إن تشرب الفرد للخوف هو بمثابة ابتعاده عن الذات واختفاء مظاهر التصالح مع عموم الأشياء التي تخص مزايا الإبداع الفردي في الوجود، لذا يعمل السلطويون على تشبع المجتمع بالخوف منهم، بغية حصر الحياة الاجتماعية في مظاهر الإمتثال لولي النعمة والهتاف له وفداءه بروحه وما شابهه من شعارات. لقد جعلت النظم الشمولية من الفرد منافقاً ذليلاً، لا يجب أن يتحول لناقد، بل مسلِّم لحقيقة واقعه، مرتهناً لكل لحظة خوف، جاعلاً من نفسه مريداً رديئاً بأبسط الأحوال، يقبل على ما وضع على طاولته إثر خوف وقمع وتهويم ممنهج، ليكون بذلك مجرد مقاول أو عامل في مصنع الخضوع للأوامر والإلتزامات الباهتة المستمدة من عوائد ثيوقراطية دينية تم تحويرها بما يلائم ذهنية الحزب الإيديولوجية، لتتحول إلى دين شامل مكتظ بالخوف والطاعة القسريةوالخوف من الأمن بدل الإطمئنان لوجوده،إذ أن جهاز الأمن هو سلاح مسلط على الجماهير بغية إرهابها،والحد من تطلعها لعالم أفضل تسوده ثقافة الاختلاف وحرية التعبير، فحقيقة النزوع للعصيان والتمرد تدفع بالمرء للتساؤل عن سر ارتياده لجغرافيا الخوف المشتقة عن عوالم تعج بالعصاب والسادية، إذ أنهما يوهنان الذات، يضعفانها على الدوام، حيث لا إرادة حرة في ظل الرهبة، ولا يكاد المرء يدخر شيئاً من سعة الفهم إزاء الإقصاء للحياة الطبيعية، حيث يسهم الموت في الخمول على الصعيدين الروحي والذهني، فينعدم الإدراك باختفاء الحرية والتعبير عن الرأي، تتعطل مدركات ومواهب المعرفي، إذ يجد نفسه في بوتقة حصار مطبق، لتتجسد

الأوهام والتقاليد المحبطة في ذوات الأفراد، ينتج الخوف ذلك العنف وجلد الذات إزاء خيبات وأوجاع متراكمة، يفرز الخوف أيضاً الحرب الأهلية، فالأفراد ينفسون عن خوفهم من السلطة عبر شجارهم واحتقانهم ضد بعضهم البعض، يجوعون ولا يجدون غير العنف وسيلة لإفراغ طاقة الخوف الكامنة في دواخلهم، لنجد أن ذلك كله مدعاة تفكر بحقيقة السلطة التي تعمل ليل نهار لتكبيل مجتمعاتها بأشكال التهويم والإخصاء المعرفي.

ثمة علاقة بين الأب العنيف ورجل الأمن العنيف في أنهما يعملان تحت ظل القائد الإله، الذي يلهث خلفه قطيع آدمي خائف، يزيف طبائعه تبعاً لمشيئة منظومة القمع، تلك المنظومة التي بنت إمبراطوريتها الإرهابية من النصوص الدينية المقدسة، والتي شرعنت مكوثها ووصايتها على شعوب لا تنفك عن ممارسة خضوعها بضرب من الاتكال والجمود وبصك مقدس لا مجال للشك فيه، نعم حيث للخوف رمزية كبيرة عظيمة التأثير على الحياة الدقيقة للمجتمع وأطوار أفرادها، إنها أساس كل انحلال روحي أو فكري، ولعله أيضاً نافذة مفتوحة لاستكشاف كل من هب ودب من مآس ونكبات، حيث يولد من بطن الخوف ذلك التملق الَّذي بات من شعائر أمم القضاء والقدر، إنها مجتمعات استساغت الخضوع وثقافة القطيع ولعق أحذية القادة والأولياء والمتصوفين أصحاب البركات، وتشربت أدبيات القائد الملهم الذي يفكر بالنيابة عن الغالبية المطأطئة، لهذا بات من الشائك استئصال هذا الورم النفسي الذي تأصل وساعدت النصوص المقدسة على رسوخه وتوطيده عميقاً، إذ للمقدس دوراً نفسياً بالغ الأثر في ذائقة الفرد، والتي عليها يبنى الأساس الحقيقي لقيام السلطة القمعية الفاسدة، إذ حينما تنشغل المعدة مع العقل في البحث عن لقمة العيش كل يوم، لا يتراءى في ذهن اللاهث نحو الشبع إلا إرضاء من بيده مفاتيح كل شيء وهو على كل شيء قدير، هذا من ناحية، ويرادفها على الطرف الآخر سلطة تحتكر الجهد والعمل، وعلى اللاهث إبداء كل مظاهر التملق والصمت حتى يتيسر له الحد الأدنى من الحياة الجيدة، ومن هنا تتشكل أولى لبنات الخوف، ولعل ميلنا إلى التحليل وإرجاع الأسباب لمسبباتها هو ميلنا لتحسين طرائق توجيه التلقي نحو الأفضل، بغية الكشف عن كل ما يتم إخفاءه تحت مسميات مثالية باطلة، والمقصد من ذلك إسباغ دلالات إيجابية على الخوف والسلطة، أو محاولة الدفاع عن الإله الواحد المرادف للقائد الواحد والذي تنتشر صوره في كل مكان، ويخرج الناس حاملين صوره ليعبروا عن حبهم الشعاراتي له، إن كل من يحاول تحصين هذه التقاليد الشمولية الميثولوجية في أصلها، يعمل على تبرير الخوف والقداسة وتجميله على نحو مكشوف وباهت، فلا يمكن إنشاء فلسفة فوق أنقاض نسق مقدس يعتمد على الخضوع والتسليم بفكر القائد الفيلسوف، إذ يستحيل أن يكون السلطوي فيلسوفاً ناجحاً، أو أن يكون الفيلسوف سلطوياً حقيقياً، ما زال ثمة شرخ عميق بين رؤى الفلاسفة وأصحاب السلطة والمنظرين بخصوصها، حيث لم ترقى تنظيراتهم سوى عن كونها مسوغات تحايلية هدفها تجديد ثقافة القطيع والحد من بروز الإنسان المعرفي المتفوق،حيث نشأ الخوف في كنف الجهل، واعتبر مقوماً حقيقياً من مقومات نشر العنف والقداسة المتشبعة بالدم، ليسطر بسحنته الرمادية البؤس الموغل في الوجود.

لا تخلو الرواية من إشارات مهمة لمواكبة القلق وملابساته في النفوس التي تقتات الحياة على نحو تأملي،لماذا يخاف الإنسان في ظل الوجود المتشعب والذاهب به للترهل والفناء؟ ولماذا يضع البشر العراقيل الجمة في طريق بعضهم البعض للحيلولة دون التمتع المنصف بمتع ولذائذ الحياة؟ فإلى جانب العدم الذي هو مصير كل الأحياء، يقف الإنسان في وجه المقابل منه دون وازع معرفي، وإنما قائم على إلغاء الآخر لتقديم الذات، سفك الدم بمثابة تعجيل قدوم العدم، ليقبض على كل متحرك، ولعل الفوضى الناجمة عن العنف هو ما يخيف أكثر،وسط عالم أباح الموت في كل مناحي حياته، فالقمع وقتل الحب وهدم العلاقات الطبيعية وتلويث الطبيعة

عبر الحرب، كل ذلك جعل الخوف الأكثر قرباً من الإنسان وبقية الكائنات،حيث يتحلل الجمال المجسد في الإنسان إلى وهم ودخان ناجم عن الخروقات الكبيرة للإنسان الجشع والأناني، وإضفاء مسوغات مقدسة واهية على طبيعة حربه ضد الآخرين.

لقد برزت المحن العديدة بوجه المجتمعات الساعية لحريتها، وسط تابوهات كثيرة شلت حركتها مما تعاظم قلقها تجاه مستقبلها، هو ذا المستقبل قد أفصح عن وجهه، وما لبث أن مر المجتمع بفوضى كبيرة جراء ذلك العسف والجور المتراكم، والذي أنشأ داخل المقموع ثورة هائلة ضد ما يشبه العدم والموت، إنها بلاد تعيش في دوامة الأحلام والآمال التي لا تنضب، كونها محط مواجهة وإصرار ضد تلك المظلومية التاريخية التي يعيشها الشعب الكردي في أجزاء وطنه المحتلة، لهذا كان هذا الصمود والعناد بمثابة انتصار على مستوى الأفكار والآمال، وبذلك يمثل تجاوزاً على الحياة التي يعيشها الإنسان الكردي على الهامش، حيث الوطن في رواية خوف بلا أسنان هو معنى الحياة المنتصرة على مفاهيم الموت والتلاشي، دعت حاجة المرء للتمسك بجذوره كنتيجة طبيعية عن شعوره بالغبن والظلم، وكذلك فهذه الحاجة تعد بمثابة البنية القويمة التي ينشدها الإنسان الطبيعي في زمن الحروب والإقصاء المفروض، إن استمرار النظم القمعية في سلوكها إزاء شعوبها، هو بمثابة الموت متعدد الأشكال، والذي يتم ممارسته لمزيد من الاحتقان والتحلل والفوضى المتراكمة، فحينما تتحول الحياة ميداناً لممارسة الموت، تتعطل المدارك والمواهب الساعية لتمتين العلائق الطبيعية، تتحول المؤسسات والنظم إلى سلاح ضد الشعوب، حيث يكتظ الحدث الزماني والمكاني بأصناف الإبادات الثقافية والاجتماعية، وتصبح الحياة أشبه بموت طبيعي، هاجس لا ينفك عن تفاصيل عيشنا وتوترنا، يرافقه الإعلام الذي يسوق الوجع والعنف والدم، لتتحول الحياة هكذا لمشاهد عن الموت، تتموضع في كل ركن من أركان الحياة لتعبر عن نفسها بمظاهر الديكتاتورية والإقصاء وقمع الأقليات والحروب الدينية والتشرذم المجتمعي، فمن المفيد في هذا الصدد معرفة أوجه الموت المقدسة في مفهوم النظم الاستبدادية القمعية، إنهم يفرضون العنف على نحو ممنهج،عدا عن شبح الخوف الوجودي لدى الإنسان، ثمة خوف سياسي اجتماعي نفسي يستوطن تفاصيل الحياة، لا يمكن القفز فوقه أو تجاهله.

إن تطرّق الروائي إلى الخوف عبر بوابة الشرق الأوسط وبالتحديد كردستان، تعتبر نقطة جوهرية في صميم هذا العمل الروائي الذي يمكن وصفه بالعمل الوجودي الذي يعكس القلق الحقيقي التاريخي المتمخض عن صراعات وويلات جمَّة مرَّت بها هذه الرقعة الجغرافية على خشبة مسرح التاريخ، فالنظم المستبدة تقنعت بإرث نشر الخوف والموت، حتى باتت على ماهي عليه الآن كامتداد لعصور وحقب، وما كردستان المحتلة من قبل هذه النظم إلا رمزاً تنويريَّاً لاسترداد ثقافة أمة وذاكرة شعب من مخالب الانصهار والإبادة، ورمز مقاومة تعبر عن وجود أمم تحاول نيل حريتها بالدم والحديد، لهذا تعاين رواية خوف بلا أسنان هذه المسألة الإشكالية على نحو إنساني فكري لا يخلو من ملامسة الشجون والإفصاح عن مرارة الظلم والمعاناة، حيث يبدو الخوف في أحد صوره مقروناً بالإجحاف والظلم جراء سلب ونهب الأراضي الكردستانية في سوريا باسم الإصلاح الزراعي، والذي اعتبر بمثابة بؤس تم فرضه من دولة قمعية شوفينية اعتمدت على صهر وإذابة كل المكونات العرقية في بوتقتها، فهذا العبث بالحق ووضع اليد علىالملكية والحياة الاجتماعية، مثَّل أكبر حالة قهر في غربي كردستان:(كانوا يتجولون في الشوارع بزعيقهم وشعاراتهم يطلبون الموت للكرد وقادتهم، هل جاؤوا للعب مباراة أم لخوض حرب؟! تعلو قامة الأسئلة، جداول الحقد خلفت وراءها من دير الزور وحتى قامشلو أنهاراً من العداء، كانوا يتجولون داخل المدينة، ويطلبون من أهالي قامشلو تحرير فلوجة العراقية من الأمريكان، تتدحرج الأسئلة مع هذه الصرخات،

هل يحملون كرة أم قنابل؟..هل هذا فريق كرة قدم أم فريق قتل؟ كان الزمن في ذلك اليوم يسيل من تحت أرجل هذه المنطقة كماء عكر، امتلأ إستاد الجهاد بالجمهور منذ ما بعد الظهيرة.في أحد جانبي الملعب آلاف الضيوف الذين ملؤوا جيوبهم بالحجارة، ياهؤلاء الضيوف، بدل أن يحملوا وروداً وأعلام فريقهم، حملوا العصي والأسلحة وصور ديكتاتور مهزوم، يهددون مضيفيهم في عقر دارهم، يشتمونهم ويحتقرونهم، بينما كنت أفكر في هذا الحقد والبغضاء، ارتسم مرة أخرى أمام عيني سايكس الإنكليزي وبيكو الفرنسي، وكيف قسموا هذه الأوطان ببضعة خطوط، وكيف تحولت بعد رحيلهم إلى حدود مقدسة لدى سكان هذه البلدان! يبنون دساتيرهم وشرفهم وكرامتهم ومبادئهم على حماية هذه الحدود.) تنقلنا هذه العبارات إلى تلك الأحداث الدامية التي وقعت في ١٢مارس آذار ٢٠٠٤، في مدينة قامشلو، إثر هذه الانتفاضة تم قتل العشرات من الكرد،حيث تراءى للإنسان الكردي تلك المواطنة المزيفة وذلك الحقد الدفين الذي تتعامل به المنظومة الشوفينية العنصرية ضدهم، وكذلك تيقن حجم ما يحاك من احتقان بين تلك المكونات، والتي كانت من ثمرات الآلة القمعية للنظام الحاكم والتي كان لها الدور الأبرز في تفكك المجتمع وعدم تجانسه، فمئات الجرحى وآلاف المعتقلين يمثلون حجم الخوف المعاش في زنازين هذا الوطن الذي رسمه سايكس الإنكليزي وبيكو الفرنسي، لهذا أمست هذه الرواية بمثابة رسول لمناهضة الخوف، ذلك الذي غطى بالكراهية أديم الأرض والسماء، فالسلطة القامعة رسخت سلوكياتها في أذهان شعوبها، كي لا تتحرك الأخيرة ضدها، فكان الشعب في غالبه أدوات بيد هذه السلطة تؤلبها على بعضها كيفما تشاء ومتى تشاء، وقد حدث أن هبت الخراف من حظائرها ظناً منها أنها ستتغلب على هذا القمع، فإذ برصاصها ينقلب عليها، وإذ بها تهيئ الأرضية لسلطة أكثر حلكة وظلام. وقد أدرك حليم يوسف مخاطر الخوف من تدميره لملكات العقل الذهنية لدى الناس، إذ تجعلها أشبه بألواح رخام متكسرة، وتهب أبدأ الأرضية الخصبة لبروز الديكتاتوريات، إذ يجعل الخوف من الثائر ديكتاتوراً، ومن الأديب مريداً أحمقاً، ومن المجتمع تماثيلاً محطمة، لهذا فرواية خوف بلا أسنان تحمل في طياتها العديد من التساؤلات والتجسيدات الرمزية لماهية الخوف وجذوره وأثره على الفكر والجمال ومناحي الحياة كافة، إنه بيان لعداء الحياة الجديدة، أو التحرر من سطوة الخرافة الجالبة للعنف من أوكار البدائية، فما جعل المجتمع يعيش الفوضى هو تعسف السلطة وجورها إزاءه، فالألم والمعاناة والفقدهي مبادئ المجتمعات المنكوبة في ظل نظام قمعي ألغى الإنصاف والعدل، حيث بات المستقبل على ضوء ذلك مجهولاً، إنه الجحيم السماوي المطبق في الواقع والموت بأسوأ صوره.

منظور الرواية للخوف والإبادة الثقافيَّة:

ومن منظور آخر، وزاوية نظرٍ أخرى، شدّد حليم يوسف في نظرته للإبادة الثقافية، حيث بدأ ينبش في جذور الإشكال والتساؤل حوله لأجل بث روح الخصائص والمقومات التي قد تنهض من خلالها أمم الاضطهاد السياسي والثقافي، فما الاعتقال والتعذيب والتنكيل بالجماهير إلا شكل متمم للإبادة الثقافية، فالقمع السياسي يعمل جنباً إلى جنب مع آليات الصهر والتذويبوالتي رسخت فيما بعد لمعارك الصراع الأهلي،لقد جعل الاستبداد من الخوف الإله الحاكم على الأرض والمتجسد في شخص القادة والتماثيل التي تنصب لهم في كل ركن، وقد أوجد الشعب لروحه الساعية للخلاص تلك القوة لدحر هذا الخوف والقهر الذي جسده العمل الروائي:,, هذا التمثال المبعث للخوف في النفوس قبل الاقتراب منه، اليوم التمَّ الناس عليه بالعشرات، فرَّ الحارس وتركه تحت رحمة رهط البشر الذين قسى الغضب أكبادهم، لم يسقط التمثال أمام ضربات الحجارة والأيدي والأحذية، في الأسفل ثمة أساسٌ مربَّع الهيئة من الأسمنت المسلَّح، يعلوه تمثال الرئيس الخالد ملوِّحاً بيده في هيئة تحيَّةٍ نازيَّة، وقف الناس، الصغار، الكبار، النساء، الرجال، الشيوخ والعجائز مندهشين بانتظار سقوط التمثال، بانتظار بعض الأشخاص

الواثقين من أنفسهم لتحطيم هذا الخوف الكامن في دواخلهم، لم تنفع محاولاتهم في إسقاط التمثال، هرع بعضهم باتجاه أحد أعمدة الكهرباء، والذي يزيد طوله عن ثلاثة أمتار، اقتلعوا العمود وضربوا به من الخلف مؤخرة التمثال الإسمنتي، حركوه قليلاً لكنه أبى أن يسقط، امتطى رجل في مقتبل العمر دراجته القديمة متجهاً إلى البيت وأحضر معولاً كبيراً حفر به تحت أقدام التمثال، وبدأ آخر بضربه بمطرقة، وآخر بفأس، جرحوا الإسمنت، ما بين عشرين وثلاثين شخصاً حملوا العمود وهزوه معاً، واحد اثنان ثلاثة، يالله! يجب أن يسقط هذه المرة! باجتماع قوة العمود والمعول والمطرقة والفأس وقوة الزنود الكثيرة التي صبت جام غضبها على هذا الاسمنت الشبيه بإله ميت، تهاوى تمثال الرئيس الخالد الميت منذ أربع سنوات."

إنَّ تجسيد إرادة الثقافة الخامة التي تأبى العيش على الهامش وترفض الانصهار والانطماس جلية في ردع الخوف المتمثل بالتمثالومقاومة الإبادة الممنهجة التي تشمل الحياة الاجتماعية والسياسية، حيث ينظر لتلك الشعوب المتمكسة بهويتها كخطر محدّق يعيق توسعها وهيمنتها على مفاصل الدولة بمؤسساتها على نحو شامل، فتدمير التمثال دالٌّ علىكسر رهبة الخوف والقمع السلطوي ومتابعة هذا الصراع لما تتضمنه من قيم تتلخص في تشبث الأحرار بالحياة ضد قوى تعتاش على تدمير كل بناء أو مكتسب، حيث تركزت وظيفتها على الهدم ونشر الرهبة بين النفوس، لتأتي النقطة الأبرز وهي التقسيم المرعب لشعوب الشرق الأوسط عرقياً ودينياً وطائفياً والذي كشف الستار عن مجموعة حروب متوالية تخدم قوى النفوذ والربح، حيث ضياع الهوية ومحاربة الإنسان في انتماءه أو لغته واعتقاده، مثّل ذلك الخوف، الإله على الأرض، وكذلك نجد موسى وليلى في تقاربها وتنافرهما الوجداني يشخصان لنا بطريقة ما أبعاد هذا الاغتراب والخوف في اقترابهما من الحلم كمبعث تحفيزي على الصمود بوجه التلاشي وبؤس الحياة، فالخيبات والآلام تبدو واقعاً متربِّصاً في أذهان العامة، وموسى يسبح في حلم مكتظ بالألم، تقابلها إرادة تتجاسر على الخوف، وتحاول التغلب عليه عنوة، حيث نجده يفكر بليلى التي تزوجت من ابن عمها كسائر الخائفات من النساء، واللواتييشغلن ذاكرة الإنسان الذي لا يملك سوى التأمل والشرود تعبيراً عن بؤس لا يمكن دفعه أو فعل شيء إزاءه:"في بلد كهذا البلد الذي يغمض الأطفال أعينهم على الكذب ويستيقظون على الكذب، فإن تدريس التاريخ يعتبر بحد ذاته نوعاً من التعذيب الشديد.في تلك الأثناء، سُمع صوت غريب ناحية الباب، خاف موسى، خطر على باله المخابرات. كثرت الإعتقالات في تلك الأيام، حالة الطوارئ قائمة منذ أكثر من أربعين سنة، بإمكانهم مداهمتك في أي وقت، وفي أي مكان، وأخذك ورميك في الحجرات المظلمة، سمع صوت من ثقب المفتاح

ارتبك موسى:

الباب ليس مقفلاً، لم يحاولون فتح الباب للدخول؟

.انتشرت في جسده رعشة خوف"

يشير الروائي إلى دور السلطة في تغييب عقل الإنسان منذ طفولته عبر تلفيق التاريخ والأمجاد الوهمية الواهنة،التي جعلت عقول الأطفال أشبه بذاكرة جوال فارغة يتم ملئها بصنوف الصور والأفلام الإباحية، وهنا نعني أن العقول تتلقى منذ بداية دخولها المدرسة تعاليم السلطة الشمولية الأبوية المتمثلة بتمجيد الرئيس والهتاف لحياته والاستعداد للتضحية في سبيل بقاءه رمزاً لتقاليد العذاب والاستبداد والفساد، فالخوف من الاعتقال والاغتيال وانتهاك رجال الأمن، مثل جل ما يخشاه الإنسان الشرق أوسطي في الدولة أو الجغرافيا التي ينتمي إليها، هكذا يخرج الجيل من قاعة المدارس إلى الحياة مخصي الذهن، لا يجد سوى الخوف من المستقبل رابطة تصله بالحياة، فحقيقة التمثال الساقط في „عامودا" هي تعبير عن قسوة الكفاح ومشقته ضد الخوف، وتحديه استناداً لمفهوم الحق، ورغبة في استثماره كقوة مضادة ضد محاولات الطمس والإنكار، لهذا جسد الكاتب آلية الدفاع التي تبنتها الجماهير الغاضبة في إجلاء رهبتها أولاً، دون التفكير في

نتائج ما بعد هدم التمثال، وهكذا تمكن الناس من كسر الخوف بل والسخرية منه، تجد الجميع قد تقاسم أدوار المشاركة في هدم الخوف ورسم معالم حياة قائمة على الانتفاضة على السلطة القومو إسلامية، حيث تحولت القناعات المتكلسة إلى وثن يرمز للرهبة، وكسر إرادة الجماهير من خلال محاربة الأفكار النهضوية، ولعل تحويل حياة الشباب إلى نمط خاوٍ يرتكز على الفراغ، جعلت السلطة تتغول أكثَر من نافذة البطالة واستشراء التقاليد والعادات التي تحكمت بليلى وجعلت علاقتها مع موسى موءودة، حيث موسى يمثل ذلك الشاب المقبل على حياة متشبعة بالرداءة والإحباط، ولحظة استدعاءه إلى فرع فلسطين سيىء الصيت، مثّل بداية المأساة وحدوث الصراع بينه والعالم الخارجي، هذا العالم المشبع بتقاليد العنف والاستجواب، لذا وظفالروائي هنا تجسيد طريقة استجواب موسى من قبل الفرع ليبين أشكال الخوف والرهبة في تلك الدائرة، وكذلك مشهد احتباس البول في متانة سليمان وذهابه للمرحاض بعد طول انتظار وإلحاح ، يمثل ذلك الألم الطاغي في جوانب الحياة الدقيقة بتفاصيلها، حيث الامتثال المطلق للسلطة والارتهان الأعمى لها، ذلك فقط يجعلك في حالة من الهدوء في ظل التكالب على الجماهير وجعلها ككتل رخامية، حيث تحولت رؤوس المناوبين في ذلك الفرع المشؤوم إلى رؤوس جرذان دلالة على افتقادهم للطبيعة الإنسانية، فهم أدوات لبناء ذهنية القطيع، حيث يتجسدون على هيئة مرض مزمن ينتقل إلى المجتمع عبر زرع الخوف والرهبة، فرجل الأمن يرمز للرعب والخطر، حيث يعتبر الخوف بوصفه منظومة ذهنية متجسدة في الذهن والفكر، ناهيك من كونه يد تبطش بأدوات تعذيب وما شابه، لهذا كان خوفاً بلا أسنان، ومع ذلك فقط استطاع ابتلاع الإنسان، نمى لهذا الخوف أيدي ومخالب حادة، وكذلك تولدت عنه منظومة التقنع بالقدر، وبأن الملك لله يؤتيه من يشاء.

إن غياب التسامح بين الشعوب هو نتيجة غياب العدالة والانصاف، وكذلك غياب الثقة بين الذات والآخر في ظل منظومة الخوفالتي تجذرت في النفوس أكثر مما هي عليه في أعمال وممارسات السلطة الشمولية، لهذا نجد القلق المستقبلي، وهنا لا بد لنا من أن نتساءل ما أثر الأزمات العالمية والسياسية على طبيعة المجتمع، أفكاره، قناعاته، تحولاته، وكذلك أثر هذا النزاع على منظومته الفكرية والعقائدية، إننا أمام هكذا تساؤلات عصية ما نلبث أن نمعن التأمل في هذه الظواهر الاجتماعية والحالات النفسية التي تجيد الرواية تناولها لكونها متعلقة بالنفس الإنسانية.

الأنساق الدرامية في العمل:

تتميَّز الرواية بأنساقها الدرامية المتعدّدة من عرض الحالات وإبراز المشاهد القاتمة للطبائع الوجدانيَّة المتخمة بالوجع والاغتراب، الأخير الذي بات لسان حال شخصية (موسى) الباحث عن الأمان وعن طريقة ما للتخلص من هذا التشنج النفسي الذي يحاصره، لقد تمت القطيعة بينه وبين تلك الأرض التي احتوته بكل ما فيها إثر رغبته المتوالية في أن يجد قواسم مشتركة بينه وبين تلك الأرض بلا جدوى، فالألم كبير، وهو مجبر على ترك هذا الوطن الذي بات أشبه بسجنمفتوح،لهذا نجده يجسد بانوراما أحاسيسه وبضعَ فواجع تلاصق حياته ولا تبرح مخيلته، لهذا نجد الكاتب قد لامس الحقيقة الدرامية التي منبعها الألم والتأثير على المتلقي بنبرة عاطفية لا تخلو من محاكاة الإدراك الموضوعي، لهذا بات الخروج من هذا الوطن بمثابة المفتاح للحياة الجديدة، أو ربما قدرة أكيدة وجديدة للحياة الأفضل والتي ينشدها كل مواطن يعيش غربته وألمه، وهو يجد أن كل من حوله من بشر وحجر غرباء عنه، لهذا يجد موسى أمام رمزية البول وهو بمثابة ذلك الاحتباس الذي ينشد الراحة بعد إدرار البول خارج المثانة، والتي ينتج عنها أمان مفتقد، ولعل ذلك هو بمثابة التشنج واحتباس المشاعر والرغبات في ظل منظومة تعمل على إقصاء الأحلام والتطلعات ومحاولة انتشالها من ذاكرة وذائقة الإنسان، هذا البلد الذي يحتوي على مختلف أشكال الخسارة والوجع.

إن التغيير الرومانسي الذي تتطلع إليه الرواية من منظور المجتمع يتوجه لمحاكاة الألم بطرائق نقدية تعتمد إثارة اللواعج والمكامن النفسية والفكرية لدى المتلقي، وهذا اللون يثبت جدواه في هذه الرواية الحاملة في طياتها شكلاً دراميّاً نقديًّاً ينطوي على ثورة روحية اعتمد الروائي على بثها لتحقيق المضامين التالية:

* تجسيد المأساة وجعلها وسيلة ضروية لإنعاش الرواية وإخراجها من قيود الرتابة والمباشرة لإشراك المتلقي في التفكير، وكذلك بالحدث واستخلاص معان منها، ولا سيمافيما يتعلق بقضية الانتماء والاغتراب لما لها من مدلولات فلسفية تلامس العقل الباطن.

* البحث في إشكالية الحرية المقرونة برغبة الشخصية الرئيسية في الرواية في تصدر المشهد والبحث الدؤوب عن الخلاصعلى الرغم من الصعوبات والعوائق الجمة التي تعترضه وجدانياً بسبب التقاليد الأبوية، وسياسياً بسبب سياسة الإبادة الثقافية والإقصاء الممارس من لدُن السلطة.

*كشف الغموض حول بعض الحقائق التي تتصل بالنفسية الاجتماعية ومدى محاولات السلطة في التحكم فيها عبر الخوف وزرع الرهبة في النفوس من خلال إدخالها في حالة فوضى شاملة تتركز أهدافها في الإبقاء على إرث القمع والعسف وكبح جماح الأفراد الساعين إلى التغيير بكل قواهم المتاحة.

*التحكم في آليات ووسائل التواصل بين المجتمع عبر جعل الإعلام الرسمي والمحلي بالتواطؤ مع المناهج المدرسية لجعلها أرضية سهلة لقمع جدة الأفكار، بغية استنزاف طاقات الأجيال وتعليبها على نحو مركز، وحصرها في نطاق خوفها من الغد.

حالة العجز التي يرافقها شعور الانتفاضة من واقع هابط بكل المقاييس ناهيك عن توسع الاغتراب وحالات الهروب من ذلك الوطن المتجسِّد في تمثال القائد الرمزالذي يضفي على الحياة طابعاً معتماً ضيق الأفق، لهذا نجد ذلك التوجه باتجاه الانتفاضة الجماهيرية كحالة اضطرارية أو بين فعل التفكير بالهجرة والابتعاد عن ذلك الوطن، تفادياً للإعتقال أو الاغتيال الممنهج بحق النخب التنويرية العاملة في ميدان التغيير،حيث بقاء المجتمع في حالة خوف ورهبة مثّل ذلك الوجه المبشر باندثار قيمها ومن ثم زوالها، الأمر الذي يسهل تفككها وانحلالها، ويسهم أيضاً في نزوحها عبر موجات الحروب التي تنهال عليها فيما بعد، نتيجة عجز منظومتها الحاكمة عن استيعاب حركتها واحتياجاتها،فالعمل الروائي يبين إحباط وتذمر أهم أبطال روايته من حالة الوطن المكتظ بالخوف والحرمان والقلق، ليشير إلى ذلك العجز العام، وكذلك عن خطر تفجره وانحراف بوصلة الحياة نحو الفوضى والمزيد من التوتر والعنف، لهذا فإن أهم غايات السلطات هو استنزاف مجتمعاتها،ما يسهل التحكم بها، مما ينتج عن ذلك زوالها بطريقة ما، وهو أيضاً هدف الثقافة الوافدة أو الدخيلة في امتصاص قيم المجتمع واستبدالها بقيم أخرى تساعد في إزالتها مع مرور الزمن، نجد توتنو، موسى في رواية خوف بلا أسنان، يعملان جاهدين على المقاومة والتمسك بالجذور وحقيقة صلابتها أمام واقع التقسيم والتجزئة والإبادة الثقافية المفروضة، يبين الروائي ردة الفعل تلك، قياساً إلى القمع الجاري، وبذهنية الاستبداد القائمة على إخافة الناس وتحويلها مع الوقت لقوالب جامدة لا حياة وروح فيها، حيث تعمل المنظومة الشمولية على خلق حالة مجتمع نمطي متكلس قامع لبعضه الآخر، في حين ينبثق من صلب السلطة والمجتمع معاً قوة مضادة تعمل لدحض هذه المواربة السلطوية القائمة على استنساخ الخوف بأشكاله الوهمية في مؤسسات المجتمع المتعددة، لنكشف تيارين متصارعين ومتمايزين بنوعية تحركهما، والحال هذه فإنّ السلطة بكل قواها وأحابيلها لن تستطيع تماماً أن تسد كافة الثغرات التي تؤدي إلى مطلب التغيير والانفتاح على الحاضر بتغيراته المستمرة والفجائية، فالمجتمع معروف على أنّه الحاضنة الرحبة لكافة الأفكار والمتناقضات، والتي بدورها ألوان تتآلف نحو مطلب الرفاهية وتغيير السلطة، وتتنافر عندما تتدخل الأخيرة في سبل حياتها، وذلك حينما تدس أفكار الإقصاء وطمس الهويات القومية للأقليات.

مواجهة الرواية لوهم المجتمع:

هل نحن أمام وهم المجتمع حينما يتجسد الفرد في رواية خوف بلا أسنان ويتجلى وحيداً خائراً من شدة الوجع والألم والعزلة والروح التي تختنق؟ هل بإمكاننا القول أن المجتمع هو وهم يتربع في عقولنا؟ هل له وجودية في الرواية؟ لاسيما وكون الفرد هنا يستمد قوته من أنانية البعض أحياناً وسخف الإنقياد لمفهوم الرابطة الجمعية أحياناً أخرى، لهذا نجد المعالم الفردية تطفح بالكثير من الأشياء التي يقف المرء على النقيض معها، وإن رأينا المجتمع كقوة سنجده من خلال الإنسان الفرد،حيث يستحيل أن نجده مجسماً على هيئة أفراد مختلفي الأعمار أو الإتجاهات في خضم صراعات تتوالد ولا تتوقف، لهذا نجد أن الخيوط المتشابكة والمتنافرة في الحياة هي التي لا يمكن قولبتها في إطار إيديولوجية محددة، كونها تدخل في إطار بث المزاعم وإخفاء النوايا، لأن غاية الصراعات ومبدأ المجتمع مؤسس على فكرة الاستحواذ والهيمنة التي تقوم بها السلطة المتنفذة لإبعاد خصومها، فالمجتمع ليس سوى إفراز لما نسميه بالسلطة، وما تذمر المنبوذين إلا مسعى غير مباشر لسلطة مضادة، حيث يتجسد المجتمع كونه مضخة انتاج للأزمات والسلطات حسب مدى وعيه وتجاربه وقدرته على الاندماج بالجوار، عوضاً عن أن يظل وقوداً تاريخياً لحروب وجشع المتنفذين، فقيم المجتمع وثقافته تضمحل بفعل عوامل الإبادة وممارسة إلغاء أدوار أفراده المعرفيين القادرين على إخراج المجتمع من طور الأزمات إلى طور الإنعاش والاندماج النهضوي بثقافات الجوار، وكذلك من خلال الإعلام والتبادل المعرفي يمكن القضاء على الاحتكار الربحي الذي يحاول دوماً جعل المجتمع مضخة تجند الأفراد لصالح نوايا المتحكمين فوقياً بكل شيء، هل يمكننا أن نقول أن ثمة مجتمعين يتصارعان ضد بعضهما على الدوام وهما مجتمع السلطة والذي يمثل الخلية الصغرى المتحكمة بالمجتمع الأكبر وهو الأفراد والفئات التي تعيش وتتعايش، كما أنها تتنافر وتتنابذ وفق تأثيرات المجتمع الفوقي السلطويعلى تقاليد وسير الفئات الإجتماعية بشكل ممنهج؟ هل يصح تسمية الفئة الحاكمة بالمجتمع الصغير والذي يتصف بتأثيراته المتجلية في سطوته ويده الطولى المتحكمة اليوم بالإعلام والجيش والاستخبارات؟ فلنفترض صحَّة الأمر،إذن هذا يعني أن التصارع يمثل حقيقة الوجود، ولا جمال في حقيقة هذا الصراع سوى كونه استنزافاً لطاقات الإنسان والوجود معاً.

ثنائية الخوف والموت في الرواية:

بتسليطنا الضوء على ثنائية الخوف والموت عبر نقدنا للسلطة القامعة، يمكننا معرفة مسوغات أدلجته بغية تجنيد الجماهير وتحويلها لأدوات تمجيد السلطة وتمويه نواياها، كذلك فإن لتهويمها من خلال إثارة أحلامها ودغدغة مشاعرها أثر في ترسيخ الخوف والموت، فتحول الجماهير عن مهمتها الطبيعية، وهي نقد السلطة إلى مهمة تمجيد السلطة، هي أولى المهام التي نجحت السلطات الوليدة عما سبقتها في تحقيقه، حيث سقط الموت عن كونه حدث ينتهي بموت شخص، وإنما لهذا الموت الذي نتحدث عنه ظاهرة تتعلق بسبات الناس، وسرقة أحلامهم وتطلعاتهم للرفاهية وتحقيق عالم أفضل ومجتمع معرفي، هنا يتبادر إلى الذهن الكردي اتفاقية سايكس-بيكو التي أثّرت سلباً على تلك الذهنيَّة، إذ ساهمت في إيجاد الأرضية المناسبة لسلطات لا تملك في قاموسها سوى الحرب وطمس الجذور وفعل الإبادات والهويات وتأليب بعضها على بعض، وكذلك استخدام الموت والخوف كوسيلتين لتأصيل بقاءها على حساب دمار المجتمع وتشتيت أفراده وتصفيتهم، إن أثر الاتفاقيات الدولية التي تمخضت عن فترة الحربين العالميتين ساهمتا إلى حد كبير في إشعال نار حروب الأهلية التي تعيشها مجتمعات الشرق الأوسط، لهذا فإن إعادة تهيئة المجتمعات لأجواء أكثر وعياً واستنارة، تحتاج لوقت وزمن غير منظور لإعادة ترتيب العلاقات وتنميتها بسبل

صحيحة، ولكن ذلك بات ضرباً من المحال، إثر تأصل إرث وتقاليد السلطة في ذائقة الجماهير ووعيها الجمعي، لأن توالد الخوف والموت في تلك الذهنية يعتبر الأمر الأسوأ على صعيد الحياة المشتركة المرتكزة على ثقافة التسامح والاختلاف وقبول الآخر، حيث يرمز الخوف لأخطار محدقة قادمة ويستحيل تفاديها إن تأخر وقت تداركها والتصدي المبكر لها قبل اندلاعها الفجائي والمدمر، حيث تقوم إرادة الإنسان أمام سيل الفوضى القادمة لتجعل حالة الصراع أكثر استدلالاً بماهية تلك الحرب التي تشن لتدمير جماليات الوجود ومنجزات الإنسان المعرفي الذي يبدع وينتج أمام محاولات من يقوضون مناحي الحياة عبر حروبهم العبثية، ويقف جوع الإنسان وحرمانه حائلاً دون بلوغ الكماليات، جوع الشرقي إلى الأمان وإلى الجسد، وكذلك جوعه للحبولأمان، كل ذلك جعله بموضع الإنسان الهائج الباحثعن أشياء تداري وجعه وحرمانه، لذا نجد موسى ضائعاً بين البكاء والرغبة، بين ماضٍ جميل ومؤلم عاشه ولا يفارقه، وبين لحظة تستعبِده من خلال الرغبة الجنسية، إلى مناجاة بينه وبين سايكس البريطاني،حيث نجد أن الرغبة هنا تخفي في داخلها مقداراً بالغاً من الألم، وهي الأصل للمعتقدات البدائية الأولى التي راحت تسمو للروحية وهي بقمة جوعها الباطني، حيث يمثل القذف الجنسي بمثابة السكون الأبدي بعد رغبة حادة تمثل نشدان الحياة بأرقى مظاهرها، وهذا ما يفسر رغبة الجماهير في لحظة النهوض والانتفاضة بتمسكها بالبقاء والحياة الأفضل، لأنها تدرك أن الفساد هو ضد الحياة وهو بمعنى آخر يمثل الفناء وحقيقة الموت، لهذا وجدت البشرية نفسها لغاية عصرنا هذا أنها في صراع كبير بين صناع الموت وصناع الحياة.

لهذا نوقن أن سعي موسى لم يكن سعياً جنسياً محضاً، وإنما محاولة بائسة منه لاستطباباًلمه الجوَّاني، فهو يحمل ألمين متمايزين في تعلقه بامرأة لم يصل إليها لتقاليد متطرفة حالت دون الوصول إليها، وكذلك لوطن يحلم أبداً بأن يرى النور وسط جحافل الظلام التي كادت أن تبتلع أجمل الأحلام، لهذا يحمل موسى في داخله ذلك الصراخ العنيف المحتد، والذي من خلاله يفهم أبعاد هذا الكون المترامي من خلال سجاله العنيف مع سايكس، الطيف الذي سرعان ما يظهر ويختفي في لحظة إحباط وبكاء، البحث عن ذلك السلام الداخلي والطمأنينة المفقودة حيال الذات والآخرين، وهذا السلام لا يتحقق إلا ببلوغ عدالة المحاسبة، التي يسعى إليها وهو يتألم، حيث يطفح الحلم بواقعية على السطح دون التشبث بأوهام العدالة الإلهية وما شابه، الاستبداد الذي انتشل موسى من جذوره ليجبره على العيش في الخارج دون العثور على إجابة أو وسيلة لتهدئة داخله الذي يعاني مع الوقت.

لقد نجحت الرواية في توظيف هذه الشخصية على نحو فلسفي ذاهب نحوالخوض في إشكاليات فلسفية تتصل أكثر بالواقع السياسي والاجتماعي،تردي النظام المحتكر للموارد الاقتصادية وكذلك التعسف الجائر والبادي في طريقة ممارسة القانون وإقفال الأبواب على الحريات وقولبة الفنون والعلوم الإنسانية، كل ذلك أدى لإرهاق الإنسان وجعله محاصراً بكل السبل، فسلوك السلطة لمبدأ ترسيخ الخوف جعل دوافع الابتكار والاكتشاف معدومة،وتم إخصاء الهبات الشعبية وقتلت حلم الحرية المزعومة، وأيضاً بروز عالمين متناقضين فعلياً وهما الشرق والغرب، إذ تم تبني المصطلح وتنفيذه، لهذا نجد هذا الشرخ قد تم إحياءه، فما نراه من خلال هجرة الشرقيين إلى الغرب هو بروز خوف غربي ناتج عن هذه الهجرة، خوف مشروع على الثقافة والتربية الأوروبية، من ثقافة متردية مضطربة جعلت التطرف خبزها ومادتها الخام، ينقل موسى خوفه معه ولا يندمج مع حياته الحالية، مع ذلك الثلج القارس والبرودة الدائمة، حيث ثمة واقع عصي على التجاوز يتجلى بطبيعة النظم الشرقية الاستبدادية، والتي جعلت الخوف عماد كل تربية يتلقاها الإنسان المقهور، فلا يبدو الإنسان الشرق أوسطي سوى كائناً خائفاً، يعيش في برجه العالي الخانق،فلا إرث ملموس يفخر به، سوى ماضٍ لم يتعرف إليه وفق رؤية

واقعية، يمكن معرفة الخوف من خلال التقديس الذي يحيط الفرد منذ طفولته، إذ يتلقى تربية قائمة على الولاء التبعي للماضي وقيمه، دون أن تتمحور الذات باتجاه رفض حقيقة قائمة قد تحمل معها أوبئة، فيكون المقدس مدنساً وغير قابل للحب أو الحياة، مع ذلك فإن نمط الفكر القطيعي وتلك البرمجة الميكانيكية للجماهير، جعلت من عقولها أكثر قابلية للامتصاص منها إلى التفكير والتدبر، فهي تتقبل كل خطاب مهما كان، طالما أنه نابع من الجهة التي يتم تقديسها وفرعنتها، لهذا نجد ذلك الشرخ حقيقياً وليس مجرد ورم يتم استئصاله، فطبيعة الموروث الثقافي لدى الإنسان الشرق أوسطي قائم على الخوف والتطرف، فلا يمكن إزاءه أن يفعل التمرد فعله في الانتصار على إرث سلبي قائم على تلقف المواعظ والتعاليم والأفكار وحمايتها دون النظر إلى محتواها ونتائجها على الحياة المعاصرة، إنها العزلة الاجتماعية بأقسى مظاهرها، ولعلها تتنقل بالفرد إلى كل مكان، فالإنسان النازح إلى مجتمعات الأمم الحرة، ما يبدأ في بدايات مكوثه أن يعيش ذلك الصراع البغيض بين نفسه التي تعيش في معاناة الأمس ومرارة اليوم، فلا يجيد الاستمتاع بحاله الراهنة، هكذا يحمل المهاجر الشرق أوسطي روح بيئته معه أينما حل، ومرد تلك العزلة إلى تلك الذات التي عانت الكثير وعاشت الخيبات المتوالية، ولم تتداركه بعد في البلاد الجديدة التي يلتجأ إليها، مما لا شك فيه أن ظاهرة الهجرة هو بمثابة هروب من الخوف والموت في آن ، لهذا فإن له نتائج على البلد المستقبل، إذ أنه يحمل في داخله تساؤلات هو تلك الفئات الهاربة، هل ستندمج وتكون سبباً من أسباب الانتعاش الاقتصادي والتنوع، أم ستكون عبئاً عليها، ولاشك أن ظاهرة النزوح قديمة قدم الحروب والإبادات التاريخية، ومن خلاله تنشأ المجتمعات وتتحول، إذ مع الوقت يتحول الوافدون إلى سكان أصليين، ويشكلون جزء من هذه الهوية المتحولة من مكان لآخر، لقد غطى الموروث الديني الذائقة الشرق أوسطية وجعلت حياة الفرد مهددة بطرائق شتى، وسيطر الخطاب القوموي الإستعلائي إلى جانب الخطاب الطائفي على نمط أنظمة الحكم فيها والتي قادت البلاد برمتها إلى نفق مظلم.

لقد سعى الروائي في العمل إلى بيان حقيقة سوداء، والتي ما تلبث أن تظل إثر غياب المسؤولية الأخلاقية، حيث أن العلاقة ما بين العنف والسلطة، هو ما مهد لقيام كيان الخوف على طول رقعة الشرق الأوسط، والذي أعطى دليلاً واضحاً عن طبيعة الحياة القائمة على الضياع والانحلال والفوضى.

فمشكلة الموت في هذه الرقعة لا تنحصر على كون سمائها وأرضها حقل تجارب لمختلف أنواع الأسلحة فحسب، بل لكون الموت قد فاق حجمه الطبيعي وبدأ يستوطن الوجدان الجمعي، فهاهم المريدون ومتصوفو الأحزاب يؤلهون القادة والزعامات جنباً إلى جنب مع مريدي الطرق الدينية وشيوخ التكفير، وهنا تكمن وحشية الموت وقدرته الفتاكة على نشر الخوف بطرق معاصرة تجعل العقل في حالة تنويم دائمة فلا تتماشى الفلسفة مع رغبات السلطوي في التحكم بعقول الجماهير، ولا تتماشى المعرفة المتمردة مع التعاليم المحنطة، ولا تستقيم مع القناعات المؤدلجة التي هدفها الهيمنة على النخب الشابة واستعداء الطفولة واستثمارها بشكل فظيع في حالات الحروب، بالرغم من تلك المحاولات الحمقاء للتلاعب بالمصطلحات وإلباسها مبررات تتعلق بالفضيلة، فمعرفة المشكلة تكمن في السعي لقراءة بداياتها، ولعل توظيف العلل البشرية واستثمار التهويم هو ما يجعل التوحش آفة الإنسان الحالي، فلا خيار سوى الحروب من جهة والنزوح من جهة أخرى بمباركة الفساد والاستبداد، وما ذلك سوى تجسيد أبله للضعف البشري وعجزه عن المسير بخطى ثابتة لحياة أفضل لا تسودها النزاعات المدمرة، ففي بلاد المهجر يعاني موسى من صعوبة النسيان، يتذكر الكلاب التي كان يقطع أذيالها مع أطفال الحارة، حينما يبصر كلب آنيت الألمانية، والتي تقضي وقتها بمرافقة الأجانب، وهي على نقيض والدتها التي تكره الغرباء، لهذا وجد موسى فيها عزاءاً.

يتمتع موسى بحزن لطيف يكسبه لباقة زائدة ولطف عميق، استشعرته آنيت، لهذا تبدو علاقتهما طبيعية وإنسانية، حيث يبصر موسى هنا الفارق ما بين حياة أودعها في الذاكرة وأخرى يسودها الانتظار والبرود، حيث اعتماد الهروب من مسببات الألم المتمثلة بالمكان والأشخاصهو بمثابة إحدى المحاولات الوقائية لاتقاء الموت الوجداني، لذا كانت الهجرة خياراً متعباً بالنسبة إلى موسى، وكذلك كل من اختار الأمر لأسباب تتعلق بطبيعة الواقع القاس الذي يختبأ وراء الحزن الكامن فيه، لعل الهروب هو بمثابة آلية دفاعية ضد الموت وقسوة الحياة، اعتماده يعد بمثابة اللعبة المتداولة ضد تلك الوقائع البائسة التي تعد بمثابة حقائق عن الوجود، المملتئ بالعثرات والنقائض، حيث أننا نفقد مع الوقت قيمة اللحظة التي نعيشها بمجرد مرورها، الماضي لا يبرح ذاكرة النازح الذي اختار المنفى كتعبير عن هول الهموم لديه، وعليه فإنالخوض في إشكالية الهجرة والتنقل، لا بد وأن يقودنا لمسارات فلسفية تعيدنا لموضوعنا الذي نركّز عليه وهو الخوف والموت، اللذان يعتبران حدثاً واحداً يقودان المرء إلى المزيد من التأمل في أوجاع النفس ومآلاتها مع الزمن.

تتمتع الشخوص بواقعية حادةوميل إلى قبول الواقع كما هو متجسد، دون الذهاب نحو التخييل والتحذلق الوجداني، وهذا يسهل عملية البحث عن الإنسان الكردي في متاهة القمع والخوف إلى قدرة على اختراقه، وكذلك فإن المنفى يعتبر الجانب الآخر من حياته، إذ يعيش في دوامة مختلفة عن التي داخل البلد، هنا لا تفارق الذكريات والمواقف الماضية نفسية من هاجر ويعيش بقايا ما علق في ذاكرته، ولطالما كان الخوف من الموت أو الانصهار أو التلاشي ببروز هيمنة الثقافة الواحدة على مجموع ثقافات، وكذلك محاولة قوة سياسية معينة على إبادة مجموعة بشرية هاجساً كبيراً لدى الأفراد ولا سيماالنخبة المدركة منها، لهذا بات خطراً قائماً يجب التفكير به أينما حل المرء، سواء في الوطن أو خارجه، ولعل ذلك مثّل نوعاً من التحدي المخالف لتقاليد الهجوميين في طمس الآخرين بغية اجتثاثهم، فنجد أن الفرد في ظل منظومة الإقصاء ينقاد إلى ما يجعله يتهرب من حقيقة حياته القائمة على القلق والخوف، ولعله لا ينفك عن ذلك حتى في لحظات عيشه في المنفى، فلا يمكنه أن يتنصل سريعاً من كل ما عاناه، لربما يعيش هناك على أنقاض حلمه المنتهك في شرقه البائس، فالخوف في الجانب الآخر يتعلق بآنيت التي تسرد الآن ما يجعلها تشعر بالخوف:»-أسأل نفسي كثيراً: لماذا أعيش؟ حياتي وموتي سواء.الحياة لا شيء، لا طعم لها ولا معنى، إنها بالنسبة لي خداع للنفس، أشعر أن الموت وحده يستطيع منح الإنسان الراحة، فالموت أحياناً هو الحل الوحيد .

:كانت تتحدث مطولاً عن أبيها-عديم القلب- هكذا تسميه

ربما يحاول أن ينساني، أو أنه لا يصدق أنني ابنته، أو قد يكون مشغولاً بزوجته-

:ومن ناحية أخرى كانت تتحدث بغضب عن أمها

.أمي عنصرية-

:سدت أمها كل الطرق أمامها، ووضعت لها هذا الشرط

... لست أمك إن لم تقطعي علاقتك بهؤلاء الأجانب ذوي الشعر الأسود، إما أنا أو هم- كل هذا في كفة، ورعب تلك الليلة في الكفة الأخرى، علي أن أعترف أن هذه الحادثة قد رفعت جدران الخوف بيني وبين آنيت.".

هنا جانب آخر من الخوف يتعلق بآنيت، حيث ينتقل الكاتب للجانب الآخر من ضفة العالم، عالم لا يخلو من الخوف أيضاً جراء تفكك الحياة الأسرية والترابط الحميمي، ونظراً لطبيعة الصراع بين الأفراد واتساع مفهوم الفردية، ليغدو طريقاً إلى الإنعزال وممارسة الحياة على نحو منعزل، تماهياً مع الذات

دون الآخر، ولأن الآخر بات المعضلة التي يجب دفعها عن طريق المرء وجعله بعيداً عن ميادين التأقلم الذاتية.ثمة خوفانعلى النقيض هنا، أحدهما يميل للاغتراب في أتون المجتمع، وهو خوف شرقي ناتج عن معاناة متضخمة إزاء تقاليد العذاب، وآخر أوروبي من وحدة قاتلة تدعو للضجر والموت صمتاً، يعاين الروائي الخوفين بطريقة تدعو للدهشة والتساؤل، نراه هنا يتحدث عن نتائج الخوفين المرتبطين بالموت والفناء، حيث لطالما ثمة تناقض بين الفردية والاستبداد، فإنه يدعونا لأخذ موقف من استبداد الحدث على النفسية والسلوك، وهذا الصراع العنيف بين الأفكار، يدعو المرء للإنسلاخ والتمرد عن واقعه، وذلك باستبداله بواقع عيش آخر، تقوم آنيت بمساعدة اللاجئين والعناية بهم كردة فعل على عنصرية والدتها وكرهها للأجانب، إضافة لغصة وجدانية تنتابها ببعد والدها القاسي عنها، وبقائها وحيدة مع ذاتها تعاني الكوابيس ولا تتمالك أعصابها، قدرتها على الانسلاخ من همومها وأحزانها رغم رغبتها أبداً في زرع البسمة خلال العطاء، إلا أن الفردية تبدو وكأنها عبء على الذات، حينما تستقل عن فلك الجماعة وانتماءها، فرغم حيز الحرية والتعبير والتفرد، نجد تلك الرتابة والحيرة التي تستوطن الأعماق، وكذلك التفكك الأسري الذي تعاني منه آنيت، ويجعل الموت والخوف بمثابة شبحين يتناوبان عليها بين الحين والآخر، فلا يسهم هذا الارتباط الحر بالآخرين بما تتطلبه الحياة الوجدانية والروحية أحياناً، فهذا التكامل في الذات نجده متشظياً لا يقوم باستيعاب كل شيء واحتواء أي شيء، فالامتثال للرابطة الاجتماعية أكثر تنظيماً ومنهجية مقارنة بواقعها الصدأ في بلادنا، حيث يعيش المرء في حالة من مواجهة الفوضى والتي ترتكز في نشوءها على معاداة قيم النهضة الجوهرية والانتعاش الحقيقي لمجتمعات تتعرض للسحق والإبادة بمختلف الأشكال، هنا لا وجود أصلاً لتلك الفردانية التي تمجدها دول العالم المتمدن، فلا يسلم مجتمع من مآزقه وأزماته على صعيد العلاقة بين الرجل والمرأة، حيث تشبث المرء بفرديته وأنانيته، أولى بالطفل الذي يعيش دون والديه، في حين يتم تطبيق القانون الذي أعطى دوراً لقيم الفردانية، فكانت الرعاية واجباً حكوميًّاً، لتغدو قيم الفرد المركز بالنسبة لطبيعة الحياة برمتها، تلك الطبيعة القائمة على أفعال المجتمع وتصرفات أفراده، في حين يغدو القانون بمثابة العصا الناعمة والتي تردع هذا وذاك وتبيح لهذا وذاك ممارسة سلطة معينة ترتبط أكثر بأشياءه وعلاقاته مع المحيط والمؤسسات، حيث نجد أن موسى بات بمثابة المتلقي لحزن آنيت وكذلك حالها الذي آلت إليه، تلك العزلة التي خلقت في ذاتها نوعاً من التأنيب القاسي، حيث لا تفارقها الكوابيس، فعلى رغم أن الفردية كانت بمثابة ثورة في أوروبا ينعم من خلالها الكل بثمرات الحريات والحقوق والواجبات وحق الاعتقاد، إلا أنها لا تخلو من إفراط بها لدرجة الأنانية والتعاسة الجوهرية، رغم تحررها من خليط الأفكار الشمولية التي تمادت هي الأخرى في التشبث بالضمير الجمعي للمجتمع لدرجة التطرف، فالخروج عن الجماعة والتمرد عليها سيفتح الباب على التغيير الجوهري، وذلك استناداً على جدة الأفكار وحيويتها، وعدم استسغاتها للتصوف والتقديس والتمجيد وما على شاكلة ذلك من مظاهر الولاء، هذا التمجيد للأنا دافعه تلك الرغبة العميقة في خرق الرتابة التي تجعل المرء آلة خارجة عن وعيها الإنساني بالأشياء، موسى وآنيت يشكلان نمطين من الاغتراب ناتجين عن طبيعة المجتمع الذي عاشا في كنفه على حدى، مجتمع الشرق الأوسط والذي يعاني أفراده من تبعية فكرية، دينية، اجتماعية، اقتصادية، للجماعة وعلى نحو يعد فيه حضور الفرد هامشياً رديئاً، وآنيت التي تتمتع باستقلالية كبيرة، وحياة تحققت فيها كل مقومات الحرية والسمو بالذات، غير أنها تفتقد لحضور

الوالدين، اللذين يمثل اجتماعهما وتآلفهما مصدر سعادة للفرد وشعور بالثقة، هذا الشيء معدوم في حياتها، لانصراف الوالدين كأي فردين نحو ذاتيهما أكثر، إذ ليس الابن أو الابنة بالنسبة إليهما موضوعاً وهاجساً كبيراً، فهي بالتالي فرد، ولها ما عليهم من حقوق وواجبات وحريات تتمتع بها، ولا يقف الخلاف أو الاختلاف عائقاً أمام الجميع، إذ أن الأفراد في ظل القوة الفردية يعيشون على خطى نيتشه في سبر الوجود بنزعة ذاتية مطلقة تنطلق من إرادة الفرد في الحياة، حيث لا يمكن للمجتمع الشرق أوسطي أن يحذو حذو الأوروبيين في السير نحو الفردانية على نحو تقليدي، حيث يلزم ذلك،هذا الرفد الثقافي والذهني لأجل اكتمال المسعى، فالتحولات تستلزم جوهراً فذاً قابلاً للتغيير ومسلماً بأهميته، وذلك سيتحقق بصعوبة أقله في تلك الرقعة المنكوبة والتي هي هدف استراتيجي قديم للطامعين بموارده ، فتلك المواهب والمدركات إن بقيت حبيسة أقفاص الطاعة والولاء، فإنها تتحول لشر مطلق، لهذا كان من الضرورة أن تتجه هذه المجتمعات لعقيدة المساواة، والتي يلزمها الشعور بأهمية المعرفة والحياة الحرة المتكافئة.

يقدم حليم يوسف الخوف الأوروبي عبر نظرة آنيت العبثية لحياة خالية من أي معنى، حيث غياب حنان الأبوين، يعني ذلك التشتت في دلالاته الرحبة، والمسير باتجاه مستقبل أكثر غموضاً، ثمة سير للكوابيس لا يتوقف، وذلك الألم المتجسد في غلالة الوحدة، حالة الاضطراب التي يفرزها الحرمان من هذا الدفق الإنساني المتآلف النابع عن الحب،يعيش الأب في دوامة التخمين هل آنيت ابنته التي من صلبه أم أنَّها من عشيق آخر؟، الوالدة أميل لذاتها ونفسها من أن تكون أسيرة أمومتها، لهذا لا نجد ذلك التعلق سائداً في أنماط المجتمع الأوروبيبالمعنى العاطفي السائد في الشرق، وما قدوم موسى إلى ألمانيا، إلا نوعاً من هذا التداخل بين الثقافات، وما تعارفه على آنيت أو لينا إلا شكلاً من أشكال هذا الاندماج الطبيعي بين عوالم البلدان وأمزجة أناسها حيث ينشأ عبر هذا التمازج مفاهيم جديدة، تؤسس لطبيعة هذه العلاقة بين تلك الأمزجة والثقافات، رغم أنها دخيلة، سوى أنّهأمرٌ واقع ينتج عنه نوع من الخوفٍ والقلق، فنظرة والدة آنيت إلى الأجانب ليس إلا تعبيراً عن اتجاه يجد في هذا الاندماج مؤشراً خطيراً على طغيان الثقافة التي يحملها الدخلاء إلى البلد على الثقافة الأصلية السائدة قبل هذا التوافد والنزوح، ولعله يحمل في طياته حقائق مشروعة، تشي بهذا التهديد اللاحق، فلا نجد أن ثمة رابطاً بين تلك الثقافة الشرقية المتوطدة مع الوثاق الأبوي، وما بين ثقافة فردية لا تهتم بطبيعة العلاقة وتتعايش كيفما اتفق، حيث نستغرق في الحديث المطول عن آفة الدين والقومية، وهذا الارتباط الأعمى مع الأولياء والشيوخ والزعامات السياسية، في حين لا نجد هذا قائماً في أوروبا، والحديث عنه يعد ضرباً من استذكار التاريخ القديم، فتلك الروحانية تقف أمامها الاستقلالية، وهذا التطرف والخوف من الحديث عما يسمى بثالوث الدين والجنس والسياسة، متداول بيسر في المجتمع المتمدن، فهنا نجد موسى يسترسل بعد أخذه قرار مغادرة هذا البلد، لنجده غارقاً بالخوف المتصل بخوف آنيت ولكن على حدى: ,,لم أستطع رغم محاولاتي العديدة أن أفهم آنيت بعض الأشياء، العتمة، الاعتقال، القتل، الدمُ والصرخات العالية كانت تخرجها من جلدها، مقابل استعمال هذه الألوان، كان هناك من يذكِّر المرء بهؤلاء الذين يجلبون الخراب والظلام، كانت دائماً تقول: -ألا يوجد عندكم غير التراجيديا؟إن ألوانك هذه تذكر المرء بموت مأساوي، إضافة إلى أنها مبعثة على التقيؤ والاشمئزاز، لقد غطيتم عيناً بيدكم، وبالأخرى وحسب تنظرون إلى هذا العالم.

قد يكون ما قالته كلّه يصبّ في خانة الصحيح، أو قد أكون أنا المريض ولا يمكنني التخلّص من المأساةِ هذه، وآنيت أيضاً تطلب مني رسم الورود واستعمال الألوان المتفائلة من ناحية، ومن أخرى لا يمكن لها أن تتحرَّر من الكوابيس والصراخ في منتصف الليل، شيءٌ وحيد كان مشتركاً بيننا، الخوف..!".

هذا يحيلنا لفهم الخوف من أبعاده الفلسفية التأملية التي تختزل في طياتها رحلة الإنسان في الحياة وخفاياها وما غمض منها، فالخوف وعاء الذاكرة المترامية الغائرة في الوجع القديم، وهو بالتالي مسيرة حياة متحولة تنتقل للأطوار المتعددة من حياة الإنسانية ورحلتها العسيرة عبر مسالك المرارة وانسداد آفاق الحل حيناً، أو عبر ابتكار أمل ما واتخاذه هدفاً بحد ذاته.

إن مشكلة الخوف قديمة قدم علاقة الإنسان بالسلطة، والقلق الوجودي من الموت، وكذلك صلة الإنسان بذاته وأهدافه وذاكرته وكوابيسه، إذ يلِجُالروائيإلى لعبة الجدل الجامع بين عالمين متناقضين وموحدين تحت ظلال الخوف والشعور بالقلق من الغد، لسنا أمام رواية تبسط ذراعيها للقارئ ليتابع بعين الفضول ما سيدور من أحداث، بقدر ما إننا أمام طلاسم تدخلنا للتبحر في ميادين الفلسفة التي تتصدر الإدراك وتسوسه، وتجعل أدوات السرد برمتها مفاتيح لاستخلاص الكنه والجدوى من طرح عدة أفكار من سياقات متعددة عبر نصوص تبدو لنا رواية تتحدث وفق مقومات بنائية لا تخرج أو تحيد عنها، لهذا فإن النقد يدخل في غمار لعبة التأويلات وهي لعبة تحدث في الذهن زخماً، وكذلك انشداهاً نحو أكثر الغوامض ألفة مع النفس، لإدراك تلك السعادة التي هي تحصيل حاصل عن الجهد البالغ والتفكير العميق، وليست عبارة عن ضحكة بليدة نطلقها في الجو، كذلك نجد في امتطاءنا لصهوة البحث والتنقيب مثار نشوة وقدرة على اقتناص الأفكار عبر جودة اللغة وجدة الإسلوب، فهنا التفكير في الخوف أعطى مفاهيماً سلبية دخلت لثقافتنا وفننا، وحتى مواهبنا، في إشارة إلى لوحات موسى، ومشهد الحيوانات مقطوعة الأذيال الذي هو تجسيد لسادية الألم التي يمتهنها الإنسان الشرق أوسطي في بيئة باتت مسرحاً للآلام والأحلام المقطوعة، حيث يسهم الخوف في تغيير المفاهيم الحية في الإنسان لمفاهيم جامدة تستدعي منه التفكير المحبط بالغد، فلا يمكن تجاوز تلك المخاوف بسهولة لأنها باتت بالنسبة للأرواح سكناً وملاذاً إزاء عالم من المتغيرات والتي تفرز في أتونها صراعات فجائية ما تلبث أن تستعر بمجرد أن تهدأ لبرهة.

إن أكثر أشكال الموت ذماً وسوءاً، هو بلوغ حد أعلى من الخوف بمواجهة الحياة والمستقبل، وقد آل حال شعوب الربيع الدموي إلى نزوح وتخبط، نتيجة فترات العبودية التي طبقت بحذافيرها على شعوب امتصت موروث السلطة القامعة بيسر، فإذ هي قامعة لبعضها بعضاً، لهذا فإن الموت في منظور الرواية هو زوال الجرأة، واستتباب الخوف في كافة جوانب الحياة، الأمر الذي جعل الفئات تتجه نحو التنجيد لتكون وقوداً لمعارك وحروب عبثية تأخذ صفة المقدس وهي ليست من القداسة في شيء سوى تقديس العته والحمق وما نحو ذلك من نعوت باتت حال المجتمع الأمي، فهو يسمي الفيدرالية تقسيماً، والشراكة تآمراً، والديمقراطية مؤامرة أوروبية، والاستبداد فرضاً سماوياً دينياً، هذا التمويه نجح في جعل المجتمعات المحقونة بأمجاد القومية الدينية تنظر للأقليات نظرة عبيدٍ مسخّرين.

الطفولة في التغيير:

العودة إلى الطفولة لدى حليم يوسف من الدلالات الهامَّة، حيث في حينها تنمو العوائق والصعوبات التي تتبع عملية النمو والارتقاء، وكذلك العلاقات التي تتحكم بمنظومة المجتمع الفكرية وفهمه للحياة، فهذا التعايش يضمر نقيضه بين شعوب متفرقة لا يجمع بينها سوى التمذهب والشوفينية، لهذا نجد الانغلاق أكثر يسراً في دخوله نفوس المجتمع

ويتلاعب بمفاهيمها، فالمظلومية ليست شعوراً فحسب، وإنما ممارسة وحياة تتخللها مواقف تشبه الأسر والقطيعة عن الحاضر والمستقبل معاً وتوفرها عوامل ممارسة الاضطهاد من قبل النظم المركزية الشمولية،فهذه النظم وجدت في إعاقة وصول المجتمع لوعي مطلوب، سبيلاً لبث الخوف والقمع وزرع الرهبة، وقد وجدت أنه من مصلحتها التحكم بالإنسان وزرع الرهبة في داخله منذ طفولته، لذا فمن الضرورة عقد ذلك الترابط والإشارة إليه بين طقوس المجتمع وعوائده وبين السلطة، كونهما معطيان متكاملان وليدان ثقافة تاريخية عمادها العنف والجهل، لهذا تلعب التقاليد دوراً في تأهيل الفرد على امتصاص الخوف بطرق غريبة، وتسهم في تهيئته لاستقبال المزيد من الصدمات التي تفرزها طبيعة المجتمع، فمع غياب المؤسسات الحقيقية التي تنظم حياة المجتمعات وتقف على احتياجاتها، فإن الأفراد يتصرَّفون على نحو ساذج ليبدأوا في النبش عن كل ما هو غير صالح فكرياً وتقديمه للمجتمع على أنّه دواءٌ ربَّاني، وهذا ما أدى لتضخم العلل النفسية لدى الفرد منذ طفولته، ومعالجة بعض الوعكات بأساليب تثير الغرابة، لعلها بمثابة واقع مفروض بطريقة ما.

لقد تم تهويم الجماهير وخداعها عبر إلزامها بالجهل، لهذا نجد أن أساليب المجتمع في استئصالهم للمشكلة الصحية تعكس طبيعة المنظومة السياسية المتخلفة، فهذه الأبوية الحاكمة رسخت الجهل جاهدةًفي إخصابه والعناية به، إلى جانب وجود الفئة المرتهنة والتي وظيفتها تجميل الخطاب الأبوي السياسي بقدر تجميلها للمعتقدات الدونية الزائفة التي هي وراء تخلف المجتمع وعنف الأفراد،وهذا يحيلنا لتأويل رمز الذبح الذي هو تعبير عن الأضحية وعن معاقبة الخارج عن الملة والدين، وقد تجسد في طبيعة النظام الشمولي في تصفية كل الخارجين عن أوامر السلطة ومنهجها، حيث أراد الروائيمن خلال إشارته للذبح في الرواية كرمز، الإشارة إلى توأمية العلاقة ما بين الدين والخوف، بوصفه مصدراً أساسياً للخوف من الإله ومنها إلى الحاكم وأعوانه، إذ لابد من معاينة جذور الخوف المرتبطة بالمعتقد بشكل مباشر، وهكذا يتم سبر الإشكال الفكري الذي قاد إلى الإستبداد عبر مراحل تطورية عسيرة، رافقتها حالات مخاض متعددة باعدت بين الإنسان وقيم العقلانية بمجاورة المرء المتدين للخرافة وجعلها مقدسة، هكذا استمد الباطش من تعنت الجهل لدى الفئات الخاضعة لعنف المقدس قوته، وبذلك يمكننا معرفة أولى بدايات تواطؤ السلطوي مع رجال الدين في التآمر على مجتمعات الشرق الأوسط، وجعل المطالبة بالحرية تآمراً على وحدة البلاد، وهكذا فإن هذا الصراع بات يكشف عورات التجهيل التي عاثت فساداً في كامل هذه الجغرافيا المحكومة بلعنة تاريخية، فالصراع بين أنصار الحرية والمسيطرين بات حقيقة في ظل واقع مثقل بالصدامات التي قادت إلى تفجر الوضع كما هو في مرحلة الربيع العربي تلك، والتي باتت ربيعاً كردياً.

كشف لنا الروائي عبر "خوف بلا أسنان" بوادره وبداياته من انفجار عقدة الخوف لدى الشعوب المغلوبة على أمرها والتي بات لزاماً عليها أن تستمر بتمردها وعنادها لتجاوز منظومة الخوف بأسرها، والنيل من تلك التقاليد العنفية التي حكمتها، والتي أودت بالمجتمع إلى الهاوية، حيث نجد طقوس العنف التي لها امتدادات قديمة تعود لحقب الخرافة التي استحوذت على الفئات المعزولة عن منجزات المعرفيين في البلاد الاستراتيجية والتي من مزاياها التواصل بين المجتمعات عن طريق التجارة والمناخ الذي يسهم في التحول الإيجابي للأفضل، فلا يمكن أن نتجاهل الغزو الهمجي للأقوام الصحراوية والسهوب الباردة التي وفدت إلى الأماكن الخصبة وأقامت ممالكها بالدم والحديد، وقد استقدمت جهلها وسذاجتها معها ، وجعلت الحياة تتصدع أكثر فأكثر، هذه الهجمات جعلت المجتمعات تتفكك روابطها فيما بينها، لتعود وتتحد بغية مواجهة الخطر المشترك، فما نعنيه إذاً بأن العنف تم استيراده من مفاهيم وافدة على الثقافة الحرة، والتي استقت من بيئتها الهدوء والصفاء والاتسام بالابتكار والتجرد، فما سبب عودة المجتمعات إلى التشبث بالعرف والخرافة، دون التطلع للعلم والمعرفة، إذن فثمة تجييش سياسي يقف وراء ذلك، لمح به الكتاب في رصده لطفولة موسى واستقباله للرهبة المتجلية في سذاجة الناس وبدائية تفكيرهم، وأيضاً يرصد الكاتب لنا البيئة التي يتشبث أهلها بلغتهم، ولا تستطيع المؤسسة التربوية بسطوتها أن تطهرهم من لكنتهم ولغتهم، فهم ممتزجون بسماتهم وروحهم القروية،ورغبتهم في أن يعبروا من خلالها عما يختلج صدورهم من فرح أو حزن، فما بين لغة متسلطة ولغة مستعبدة، يحدث ذلك التصارع غير المتكافئ.

لا يمكن في هذا السياق تجاهل المنظومة الأبوية المتوطنة في العقول والتي رعتها الأديان واستحدثها مشرعوا السلطة وقاموا برعايتها لتبقى مترسخة في الأذهان، عصية على الزوال، إذ تشرّبها الأفراد عبر التربية والتعليم، إذ لهذه المنظومة علاقة بالدولة المركزية، والتي تتخذ من سيادة العنصر العرقي على بقية الأعراق، والعنصر الطائفي على بقية الطوائف أساساً لوجودها وحكمها، وكذلك نجد أن الثورات المضادة سرعان ما تبدو وليدة عنها، مالم تتخذ في برامجها الأولى تغليب المنهج الديمقراطي على الخطاب الأبوي الاستعلائي، وتصبح الأزمة في حقيقتها فكرية مستوطنة ذهنية التعامل وأسلوب التعاطي مع النظم التقليدية، على نحو تقليدي، لا يستوعب المعرفة التي تعني محاربة التجهيل، والوقوف بوجه مصدريه ومستورديه، وعلى هذا النحو يحتج الكاتب حليم يوسف على التعاطي القاسي من قبل الأب على الأبناء، وجعلهم في حالة قلق وتهميش، الأمر الذي يدفع بهم إلى الاغتراب والانطواء، وكلك يعطي صورة عن واقع الأزمة التي تعيشها النظم المركزية في تجفيف مصادر الحوار ومنابعه بين الجماهير بمؤسساته وشرائحة المختلفة،حيث تربية الأطفال على طاعة الحاكم هو شرط رئيس للبقاء على قيد الحياة في ظل سيطرة الرعب والقمع في مناحي الحياة المختلفة.

استطاع حليم يوسف بشكل أو بآخر تزويدنا بمناخات التلقي منذ الطفولة عن طريق الأهل وحكايا الجدة في الليل، كون الليل يوقظ في داخل الصبيان رهبة الواقع المرير، وبالتالي فإن ما يلقونه في حياتهم من تعدد مناخات الخوف، هو ما شكل بالنتيجة تلك الذائقة المتلاقحة مع الموروث والنشأة والواقع السياسي ككل، فالحصار المصنوع من لدن السلطات الشمولية ثيوقراطية الجذور، مهد لبروز تلك الفوضى كنتيجة عن هذا القمع والكبح المتواصل والممارس ضد عقول وقوى عقدت العزم على وضع الحد لهذه الخروقات الكارثية التي تهز وجدان وحياة الجماهير وتستنزفها، فالتلميذ الذي أخذ يعاني منذ طفولته مآلات الرهبة في ذاته، وكذلك ذلك العنف الذي يتلقاه في المدرسة صباح مساء والمقرون بحفظ الدروس غيباً وحفظ الأناشيد السلطوية عن ظهر قلب لترديدها كل صباح، هو ما جعل حياته أشبه بمعتقل، فاللطمات والصفعات التي يتلقاها من الكادر التدريسي في المدرسة من جهة ومن الأب في البيت من جهة أخرى، جعلت منه مصدّراً للعنف بعد أن كان مستقبلاً له وهكذا، فمن أن للجماهير مشاعر الانتقام، أو ليس الانتقام غريزة جمعية يمكن أن تكون محط استغلال دائمة من قبل المنظومة الحاكمة؟!فهو يصب في خانة التمسك باليقين مهما كانت درجته وذريعته، إلى حد أن تكون مطمحاً لذوي

الأجندات في استثمارهم للتحريض كخطاب نوعي يجعل الجماهير في حالة انفعال يتم توجيهها، بأساليب لا ينقصها الخبث والتفنن بإثارة الرأي العام، وتوجيهه وفق ما تستلزمه المرحلة، فتأثير الكبار على سلوك الأطفال يتم اتخاذه بوصفه توجيهاً نحو صناعة فرد بمواصفات تراها السلطة مناسبة لتوجهاتها ، وكذلك يلعب ذلك التوجه أثراً داخل ذهنية الفرد وجعله يتخبط في أتون خيبات لا تكاد تنتهي ، جراء تخلف كل بنية اجتماعية أو تربوية تعيق أداءه وتقوم بكبح فعاليته في المجتمع، فالمجتمع الساذج بطبيعته مجتمع قطيع تبعوي منحاز لكل ما يدغدغ مشاعره ويعمل على إثارتها، هذا الإخصاء المعرفي هو مصدر كل فساد أو تقهقر روحي أو سياسي، وإلا فما تفسير تعلق هذه الجماهير بالأضرحة والمزارات والقادة الرموز والأقطاب الدينية والشخصيات الحزبية؟

فنهاية موسى وتوتنو في الرواية ليس إلا دليلاً على الضعف أو الممارسات الخاطئة تجاه المجتمع وأفراده الهاربين من حياة بائسة،حيث نعلم مدى تأثير الخطب البلاغية على عاطفة ووجدانيات الناس في كونهم يهرعون وراء العاطفة إثر أي خطاب فعال التأثير دون النظر إلى خلفيات ذلك، وهذا بحد ذاته يعكس مدى اغترابها عن صناعة الفعل المضاد، بمعنى آخر الفعل الذي يساعدها على التمييز ومحاسبة الجالسين في الأعلى، حيث تجسيد تأثير الحكايا الشعبية على نفسية الأطفال، هو تسليط ضوء على الخوف منذ بداية إيغاله في النفوس، وجعل المرء المتلقي يوغل في ماهية الخوف وأثره على شخصية الإنسان والتحكم في مراحل تطوره ونشأته وتأثير البيئة عليه ومن ثم علاقته بالآخر ومدى قدرته على تجاوز شعوره بالفزع أو الإحباط، حيث يبين الروائي أثر الخرافة على الذائقة الشعبية وكيفية إدخالها الخوف كعنصر رئيس في خامة نشأة الوعي لدى الفرد، حيث جعل التخيلات والأوهام بمثابة عقاقير فاسدة يتم تعاطيها لتثبيت أركان الخوف، لتتسيَّد الخرافة المشهد الحي للجماهير التي تتقبل خطابات السلطة وتوابعها الدينية والشعبية، لتكون الحقنة الأساسية لدوام ذهنية القطيع والتحلق حول السيد الواحد.

اللغة الشعريّة في الرواية:

تذهب اللغة الشعرية نحو متاهات السرد أبعد مما قد تصل إليه الأفكار المجردة،إذ أنها تحاكي روح المتلقي وتستدعي له الحدث بصورة أكثر تجسيداً،فيعمد الروائي إلى تحريك الأحاسيس المدركة بتتبعه لحقيقة ما يعتمل النفس والإرادة البشرية، من هنا تكمن قوة النص عبر إضفاء التجسيد الوجداني بطريقة شعرية عليه، مما يحقق جودة النص، ويسهم نضجه في تحريك ذائقة القارىء وخياله بالتزامن مع إدراكه، وكذلك يسهم بطريقة ما في التأثير على القناعة أو الإيمان، حيث يتم توجيهها بمعزل عن حقيقة الدوافع والغايات التي يمكن أن تختبئَ من ورائها، فتوظيف الشاعرية في الرواية لغرض نفسي،هو التأثير الذي يعمق الصلات بين القارىء وعوالم الكاتب، وكذلك يبين له الأسلوب القادر على اختراق الأجواء الأكثر برودة وانزواء، إذ لا بد من معالجة الحدث بطرائق وجدانية باستخدام اللغة الشعرية للوصول إلى الداخل ومن ثم الإدراك، ولا يتحقق ذلك إلا باتحاد الخيال مع العقل المجرد في سياق رواية قادرة على أن تبعث على التساؤل وتخلق الأسباب الكافية لبروز ذلك التأثير في استخدام حاذق وبارع للحدث وسياقاته المؤداة للغاية التي تقف من وراءها عملية خلق الصور والأفكار على نحو مترابط، لهذا نجد أن نزوع الكاتب إلى الذاتية في معالجة الفكرة التي يتطرق إليها هو بمثابة استنهاض وتحريض لمعاناة الأفراد وزجهم في صدامات أكثر قدرة على أن تحقق ثمراتها في الانتفاضة على قوى الجشع والقمع، وعبر تجسيد الألم الفردي، يمكن الحديث عن بوادر انتفاضة جماهيرية تعي أسباب صراخها، ولأجل ذلك فإن التأثير

الوجداني على العاطفة المتلقية أمرٌ محبذ وجمالي، لأنه يضاعف شرارة الوعي بالمأساة ومسبباتها عن كثب.

:الخلاصة

رواية تستنطق أشياءَ تتصل بالمجتمع، السلطة، العائلة، ومحاولات الانعتاق الفردية التي تلقى إحباطاً نفسياً في كثير من الأحيانانظراً لرداءة المراحل المعيشة التي مرت على شخوص هذه الرواية وأحالتهم إلى مجانين، أو خائفين بالمعنى الوجداني، رغم تمردهم ومحاولتهم التخلص من تلك الكوابيس التي تؤرقهم وتجعلهم بمنأى عن التفكير المتوازن، فيلوذون بالعشق رغم آلامه الكبيرة لنجده مترعاً بالأمنيات الدافئة، (قادو، سمكو، كالو) يعيشون في متن عالم يحمل في جعبته التساؤلات، إضافة إلى الحسرات التي تستنطق مكامنهم بين لحظة وأخرى، ثمة مفاجآت وسيل من الأحداث يدور في فلك تلك العلاقة التي ربطت موسى بسارة ومن ثم بشيرين وعن غراميات الشباب فيما يتعلق بالحياة الوجدانية، فتدور تلك الحكايا التي يقطعها حديث كالو وسرده لقصة حمزة المنغوري، لنجد أن الهم الوجداني والقومي متقاسمين ذاكرة الشباب الحالم، الغارق بالخيبة والشعور بالخوف، إلا أن ذلك لم يمنع من الدخول في أجواء الحب التي تساعد بدورها على مواجهة المحنة الواقعية الكامنة في الوجع الكردي إزاء واقع التقسيم الذي رسخ الخوف عميقاً في النفوس. تحاكي الرواية ثالوث الخوف، الحب، الحرية، وهم يشكلون عماد الرواية وأساسها، وهذا الثالوث يكاد يهيمن على الحدث والشخوص من بداية السرد لنهايته، وكذلك فإن استجابة الجماهير الوارثة لعقلية السلطة الشمولية لنداء التخريب والفوضى الكامنة في غرائزها ولا وعيها جعل الخوف بمثابة الهاجس الماثل في الأذهان والأعين، حيث أن طباع الجماهير وضحالة وعيها بمفاهيم التعايش السلمي ، جعلها تسير منحى ما تريد السلطة تصديره من أوهام وأحلام واهنة يمكن من خلاله أن تتحول تلك الجماهير إلى وقود ملتهبة لمعارك الداخل والخارج على حد سواء، حيث نجح رجال الدين باستثمار المذاهب والطوائف كما نجح السلطويون والذين يتزعمون النظرية الثورية بوضع الجماهير بخنادق متقابلة راحت تزجهم في صراعات لا تكاد تنتهي، فما أشد انقياد القطيع لتحقيق غايات ومآرب القادة إثر خطاباتهم الرنانة ، وقد نجحوا في إيجاد جماهير تتقبل أفعالهم وتسلطهم وتمارس ذات تصرفاتهم وتحمل ذات أفكارهم وإيديولوجياتهم ، فإن تم فرضاً إسقاط أي نظام ديكتاتوري أو طاغية فهل يتم إسقاط الفكر الذي تشربته هذه الجماهير؟!وتقنعت به ، حيث باتت مسلكاً يعد بأجيال رئاسية تحمل ذات العلة، حيث باتت دعوات إسقاط الأنظمة البراقة بمثابة تبديل للملابس الداخلية، إذ أن إسقاط الفكر الشمولي ومحو سذاجة العوام وإزالة روح القطيع هو ما يجب إسقاطه عبر بعث ثورة ذهنية شاملة لا تحتمل أدنى مواربة. بالإمكان تلخيصاً واقتضاباً القول أن تجربة حليم يوسف في هذه الرواية مصقولة بحدة الوصف والتجسيد ونقل الأفكار الناتجة عن ذلك وفق إطار لم يستطرد فيه بعيداً عن مناخ الرواية الواقعية، ولم يغرد خارج سربها، بقي التزامه بمعاناة الإنسان الكردي واضحاً،وهذه المعاناة تتمايز عن معاناة بقية شرائح المجتمع لكون الكرد كمكون،هو فاقد لحقه في ممارسة كينونته انطلاقاً من حقيقته القومية ووطنه المقسم بين الدول الأربع، لذا يمكننا النظر إلى خوف بلا أسنان من منظور نفسي استطاع أن يوغل ملياً في علل الإنسانٍ الكردي بما يتصل بشكل مترابط وحقيقي مع معاناة الإنسان الشرق أوسطي برمته في ظل أنظمة شمولية تتربع على جماجم الجماهير وكدحها.

تراجم الأمة الكردية

(عرض ببليوجرافي)

أنجبت الأمة الكردية مئات من العلماء والأدباء والقادة العظام، الذين لعبوا أدواراً بارزة في مختلف مراحل تاريخها وتاريخ الشرق الأوسط و قفقاسيا، منذ دخول الإسلام كردستان وبداية مرحلة جديدة في تاريخ الأمة الكردية تحت مظلة دول الإقطاعيات العائلية القبلية (الأموية –العباسية).

وتعتبر مرحلة الدولة الأيوبية الكردية (١١٧٤–١٢٥٠ م) بقيادة صلاح الدين الأيوبي (١١٣٨– ١١٩٣ م)، مرحلة الهجرات الكبرى للكرد نحو بلاد الشام والمحروسة مصر وبغداد والقدس طلباً للعلم، حيث كانت هذه المدن مراكز تعليمية كبرى لدراسة العلوم الإسلامية، وتخرّج فيها مختلف العلماء والشعراء والصوفيين والقادة.

دلدار ميتاني

العرض الببليوجرافي

١- مشاهير الكرد وكردستان في العصر الإسلامي: إعداد محمد أمين زكي، ترجمة إلى العربية «سانحة زكي» – قدم للجزء الثاني و زاد عليه «محمد علي عوني». و يقع الكتاب في جزئين، الجزء الأول ٢٧٧ صفحة والثاني ٢٥٠صفحة . وطُبع ١٩٤٤ في مطبعة الفيض الأهلية – بغداد.

٢- علماؤنا في خدمة العلم والدين. تأليف عبد الكريم محمد المدرس – عُني بنشره علي قره داغي. الطبعة الأولى ٦٣٧ صفحة -١٩٨٣ – دار الحرية للطباعة – بغداد.

٣- بابان في تاريخ ومشاهير البابانيين. إعداد جمال بابان – الطبعة الأولى ١٩٩٣ . ٢٣٠ صفحة – مطبعة الحوادث – بغداد.

٤- معجم أعلام الكرد في التاريخ الإسلامي والعصر الحديث في كردستان وخارجها. للدكتور محمد علي الصويركي – الطبعة الأولى ٢٠٠٦- يقع في ٨٤٥ صفحة – مؤسسة ژين للطباعة والنشر – السليمانية – جنوب كردستان.

٥- الموسوعة الكبرى لمشاهير الكرد عبر التاريخ: إعداد الدكتور محمد علي الصويركي الكردي. يقع في ستة مجلدات + مجلد سابع فهرس عام – الطبعة الأولى ٢٠٠٨- الدار العربية للموسوعات – بيروت . المجلد الأول ٤٦٠ صفحة، المجلد الثاني ٤١٥ صفحة، الثالث ٤٦٠ صفحة، الرابع ٥٢٥ صفحة، الخامس٣٦٠ صفحة،السادس٣٢٠ صفحة،السابع: ١٦٥ صفحة.

٦ - عقد الجمان في تراجم العلماء و الأدباء الكرد والمنسوبين إلى مدن و قرى كردستان" إعداد حمدي عبد المجيد السلفي ، تحسين إبراهيم الدوسكي, الطبعة الأولى ٢٠٠٨ – يقع الكتاب في ثلاث مجلدات : الأول { ٤٨٤ صفحة} ، الثاني ؟ ، الثالث : ؟ الناشر: مكتبة الأصالة و التراث – الشارقة – دولة الإمارات العربية المتحدة.

٧- معجم شعراء الكرد" إعداد حمدي عبدالمجيد السلفي – تحسين إبراهيم الدوسكي – الطبعة الأولى ٢٠٠٨- (٤٠٠ صفحة) – الناشر : مؤسسة سبيريز للطباعة و النشر – دهوك. مطبعة حجي هاشم – أربيل.

٨- "تاريخ مشاهير الكرد عرفاً ، علماً ، أدبا ، شعراً" باللغة الفارسية للعلامة بابا مردوخ روحاني (١٩٢٣-١٩٨٩)– (١٦٩٥صفحة) – يقع هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء وصدرت الطبعة الثالثة عام ٢٠١١ في طهران – الناشر: سروش أنتشارات صدا وسيما .

٩- أعلام الكرد" إعداد جمال بابان – الطبعة الثانية ٢٠١٢ – ويقع في جزئين : الأول (٧١٥ صفحة) .الثاني (٦٠٠ صفحة). دار آراس للطباعة والنشر – أربيل

١٠ـ "علماء الكورد و كوردستان من القرن الأول الهجري للإسلام حتى وفيات عام ١٤٠٠ هـ-١٩٨٠ م" إعداد صالح شيخو رسول الهسنياني, الطبعة الأولى ٢٠١٢ – مديرية الطباعة والنشر في دهوك – ويقع في (٥٥٠ صفحة).

١١ـ "حياة الأمجاد من العلماء الأكراد" تأليف طاهر ملا عبد الله البحركي ـ ترتيب وتنظيم المحروس أبو بكر ملا طاهرالبحركي ـ ثلاثة أجزاء . الطبعة الأولى ٢٠١٤- دار ابن حزم – بيروت ، تقع الأجزاء الثلاثة في (١٢٣٠ صفحة).

١٢ـ "العلماء المنسوبون إلى هكاري" ـ مصطفى أمين حيدر, نوري عبدالرحمن إبراهيم (١٨صفحة)– مجلة العلوم الإسلامية – العدد الأول – المجلد الثاني ، مارس ٢٠١٩. ص (٤٧-٩١) – المجلة العربية للعلوم و نشر الأبحاث ـ تصدر عن المركز القومي للبحوث – قطاع عزة .

١٣-"عباقرة كردستان في القيادة والسياسة" إعداد الدكتور أحمد الخليل – الطبعة الأولى ٢٠٠٩ – {٢٤٨ صفحة} – مؤسسة موكرياني للبحوث و النشر – جنوب كردستان.

١٤ـ "إسهامات العلماء الأكراد في بناء الحضارة الإسلامية خلال القرنين السابع والثامن الهجريين "العلوم النظرية" إعداد تريفة أحمد البرزنجي – الناشر : دار الكتب العلمية بيروت – الطبعة الأولى ٢٠١٠ –(٢٤٨صفحة).

١٥ـ "من مشاهير الكرد : ابن خلكان" . زبير بلال إسماعيل ، مجلة كاروان – المسيرة، القسم العربي . العدد(٤) ١٩٨٣. طبع دار آفاق عربية، بغداد – الصفحات (٩٥-١٠٢).

١٦ـ "تاريخ الأنساب (مباحث في تاريخ إمارة شيروان) تأليف الأمير صالح بك بن خان بدق الشيرواني – تحقيق وتعليق : تحسين ابراهيم الدوسكي . الطبعة الأولى ٢٠٠٥ – (١٣٠صفحة) – الناشر : دار سبيريز للطباعة و النشر – دهوك ، مطبعة وزارة التربية – أربيل.

١٧ـ "البارزاني مصطفى، قائد من هذا العصر" ـ حبيب تومي – الطبعة الأولى ٢٠١٢- (٧٥٠ صفحة) – دار آراس للطباعة والنشر – أربيل .

١٨ـ "العائلة الشهرزورية و دورها الحضاري والسياسي في التاريخ الإسلامي" ترجمة لسبعة و عشرين عالماً وسياسياً وقاضياً من العائلة الكوردية العريقة – صالح شيخو الهسنياني- مجلة البحوث والدراسات الإسلامية – الناشر: ديوان الوقف السني العراقي – مركز البحوث والدراسات الإسلامية – المجلد (٢٥) ٢٠١٤. الصفحات (١٩٥ – ٢٥٥).

١٩ـ "علماء وأعيان انتسبوا إلى شهرزور من ٢٠ هـ إلى ٨٠٠ هـ" عبدالله ناصر عبود الحياني – مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإسلامية – الناشر : جامعة الأنبار – كلية العلوم الإسلامية – المجلد (٣) – العدد (١٢) كانون الأول ٢٠١١. الصفحات : (٥٠٦ -٥٣٥).

٢٠ـ "الأعلام المنسوبون لمدينة شهرزور ٢٣٠هـ – ٨٨٣هـ / ٩٤١م – ١٤٧٨م" ضياء يوسف معروف – مجلة التراث العلمي العربي – الناشر : جامعة بغداد – مركز إحياء التراث العلمي العربي . العدد ٢ /٢٠١٤ – الصفحات (٢٠٥- ٢٥٤.)

٢١ـ الأمير بدر بن حسنويه (٤٠٥ هـ/ ١٠١٤م) سيرته ودوره السياسي في العصر البويهي" (دراسة تاريخية). حيدر خضير مراد لفته – مجلة جامعة تكريت العلمية – المجلد السادس عشر- العدد الرابع / إنساني / ٢٠١٨. الصفحات (٣٩-٥٥).

٢٢ـ "الأمير فتح الدين ابن گر الكردي {؟-٦٥٦ هـ/١٢٥٨م) و دوره في الجيش العباسي" – د. زرار صديق توفيق . مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية – العدد (٢) – المجلد (٤) . السنة الرابعة ٢٠٠٩. الصفحات (٩٧-١١١).

٢٣ـ "الشيخ يونس الكردي و رسائله في الأدب الصوفي الإسلامي (١٢١٢ هـ/١٧٩٧م)" . دراسة و تحقيق إسماعيل بادي – منشورات اتحاد الأدباء الكرد – دهوك – (١٢٠ صفحة) الطبعة الأولى ٢٠١١.

٢٤ـ "الشيخ المفسّر أحمد كاكه محمود الكردي (ت١٤٤٣هـ -٢٠٠٧م) وقراءة في تفسيره (تفسير رامان في معاني ومقاصد القرآن)" – د. سعيد علي محمد – مجلة الجامعة العراقية, ٢٠١٦, المجلد (٣٥) – العدد (٢) – الصفحات (٢٩٧ – ٣١٦).

٢٥ـ "الشيخ خضر الكردي المهراني ودوره و أثره في مصر وبلاد الشام" – قادر محمد حسن – مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية

٢٠٠٧ المجلد (٢) العدد (٢)- (١٣ صفحة) .
٢٦ـ ”الشيخ عبدالله الكوردي البيتوشي (١٢١١هـ) و جهوده اللغوية“ ريبوار عبدالله خطاب – گۆڤارى تو ژەر- بهرگى (٢) ژماره (٦) – زستانى ٢٠٢٠ . الصفحات (٥٢٥-٥٤٨).
٢٧- ”الشيخ محمود الحفيد في ميزان التاريخ وحكمه“ – د. عبدالرحمن إدريس صالح – م.م شاهين سهام عبدالرزاق . مجلة الأستاذ للعلوم الإنسانية ـ تصدر عن كلية التربية ـ ابن رشد جامعة بغداد – ٢٠١١ – العدد (١٨٠). الصفحات (١-٣٢).
٢٨ـ ”الشيخ عدي بن مسافر الهكاري (٥٥٧ هـ/ ١١٦١م) وأثرهُ في الديانة اليزيدية“ – دراسة تاريخية – أ.م.د وسن حسين محيميد. مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإنسانية – العدد (٢) حزيران ٢٠١٩. الصفحات (٤٦-٧١).
٢٩ـ ”دور عادلة خانم في المجال (العمراني والثقافي والقضائي) في حلبجة ١٨٩٠-١٩٠٩“ الباحثة نوره وادي محمد ، أ.م.د فرات عبد الحسن كاظم . مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية العدد(٢) ، المجلد (٤٥) ، آب سنة ٢٠٢٠. الصفحات (٣٩٩-٤١٨).
٣٠ـ ”الأسرة البدرخانية نشاطها السياسي و الثقافي خلال المدة ١٩٠٠ م- ١٩٥٠ م“ – دراسة تاريخية – صلاح محمد سليم هروري . الناشر : الدار العربية للموسوعات – بيروت – الطبعة الأولى ٢٠٠٦ – (٢٤٠ صفحة).
٣١ـ ”عبدالرزاق بدرخان ـ السيرة الشخصية“ إعداد جليلي جليل ، ترجمة دلاور زنكي – الطبعة الأولى ٢٠١٠- مطبعة أميرال بيروت (١٠٠ صفحة).
٣٢ـ ”علي بن سلار الوزير في الدولة الفاطمية (٥٤٤-٥٤٨ هـ / ١١٤٩-١١٥٣م“ . د. عطا عبد الرحمن محي الدين . مجلة التربية و العلم ، جامعة الموصل – المجلد (١٦) –العدد (٤) لسنة ٢٠٠٩. الصفحات (٣٨-٦٠) .
٣٣ـ ”الأمير الكوردي مير محمد الرواندوزي الملقب بميري كوره، مساهمة علمية في دراسة التاريخ الكردي على صفحة مرآة الشواهد والأدلة الشرقية والغربية“ . جمال نبز (أطروحة دكتوراه) – ترجمة إلى العربية : فخري شمس الدين .الطبعة الثانية٢٠٠٣ – (٣٢٠ صفحة) – الناشر : دار آراس للطباعة و النشر – أربيل .
٣٤ـ ”محمد فيضي الزهاوي نبذة عن حياته و شيء من آثاره“. تأليف محمد علي القرداغي .الطبعة الأولى ٢٠٠٤ – (٢٠٠صفحة) – الناشر : دار آراس للطباعة والنشر – أربيل.
٣٥ـ ”جاوان القبيلة الكردية المنسية و مشاهير الجاوانيين“. تأليف الدكتور مصطفى جواد ، مطبعة المجمع العلمي الكردي ، بغداد.١٩٧٣
٣٦ـ ”محمد أمين زكي و دوره السياسي و الإداري في العراق (١٩٢٤-١٩٤٨)“ . دارا جمال غفور ، الطبعة الأولى ٢٠٠٨- (١٥٠صفحة) – الناشر : مؤسسة ژين ، السليمانية – إقليم كردستان .
٣٧ـ ”عصمت شريف وانلي و دوره في ثورة أيلول في كردستان العراق ١٩٦١-١٩٦٤“ . د. ميڤان عارف عبد الرحمن .د. شيرزاد زكريا محمد. مجلة جامعة نوروز العدد (٥) كانون الأول ٢٠١٤. الصفحات (١٥٤-١٧٧).
٣٨ـ ”المناضل المرحوم رشيد حمو أحد مؤسسي أول تنظيم سياسي كردي في سوريا“ – أسرة مجلة الحوار – العدد (٦٦) أيار ٢٠١٤. الصفحات (١٣٠-١٣٤).
٣٩ـ ”الأسرة الحيدرية ودورها الثقافي في كوردستان العراق“. سنور صباح صديق .مجلة الأكاديمية الكردية العدد (٢٤) سنة ٢٠١٣، الصفحات (٤٠٥-٤٣٠).
٤٠ ـ ”الأسرة العمادية ودورها الثقافي في القرن السادس عشر“ د. نازدار جليل مصطفى . م.م. سنور صباح . مجلة الأكاديمية الكردية العدد (٢٨) سنة ٢٠١٤ – الصفحات (٣٩٥-٤٠٩).
٤١ـ ”حافظ القاضي: نشأته ونشاطه السياسي والثقافي (١٩٢٩-١٩٧٠)“ . أ.د. عبدالفتاح علي البوتاني. مجلة الأكاديمية الكردية العدد (٢٩) -٢٠١٤. الصفحات (٢٢٣-٢٥١).
٤٢ـ ”الوزير برهان الدين السنجاري دراسة عن حياته ونشاطه(٦١٦-٦٨٦هـ / ١٢١٩-١٢٨٧م)“. أ.م.د آكو برهان محمد . مجلة الأكاديمية الكردية العدد(٣٦) لسنة ٢٠١٦. الصفحات (٣٧١-٤١٧) .
٤٣ـ ”حاجي جندي حياته و أعماله (١٩٠٧-١٩٩٠)“ د. إسماعيل محمد حصاف . مجلة الأكاديمية الكردية العدد (١٧) لسنة ٢٠١١. الصفحات (٤٢٥-٤٦٩).
٤٤- ”الملا عبدالله البيتواتي و جهوده في العلوم الإسلامية“ د .عزالدين حسن جميل . د. جميل علي رسول .مجلة الأكاديمية الكردية العدد(٢٠) – الصفحات (٥٣٨-٦٣٣).
٤٥ـ ”الصحابي الكوردي جابان وابنه ميمون التابعي“ – فرست مرعي – مجلة الأكاديمية الكردية العدد (٣٢) لسنة ٢٠١٥ -الصفحات (٤٩٣ – ٥١٨) .
٤٦ ـ ”حياة علي بن عيسى الأربلي (٦٩٢ هـ/١٢٩٢م) ومكانته العلمية“ – د. جواد كاظم البيضاني – مجلة الأكاديمية الكردية العدد(٣٧) لسنة ٢٠١٧. الصفحات (٦٢١-٦٤٨).
٤٧ـ ”أسرة ابن أبي زكري الكردية ودورها السياسي والعسكري خلال العصرين الأيوبي والمملوكي“ – شوكت عارف حمد الأتروشي و درويش يوسف حسن – مجلة العلوم الإنسانية لجامعة زاخو – المجلد (٥) ، العدد(٣) لسنة ٢٠١٧. الصفحات (٦٢٨-٦٣٩) .

٤٨ـ ”ابن آدم البالكي حياته و آثاره (١٢٣٧ هـ)“ ـ بحث مستل – رشيد أحمد رشيد و محمد صابر مصطفى و عبد الكريم محمد حافظ العبيدي – مجلة العلوم الإنسانية لجامعة زاخو، المجلد(٦) ، العدد(٣) ، لسنة ٢٠١٨ . الصفحات (١٠٠٢-١٠١٥) .
٤٩ـ ”زرياب البوتاني الموصلي وأثره في تقدم علم الموسيقا وفنون الغناء والطبخ والأزياء“ – خضير عباس المنشداوي – مجلة جامعة زاخو، المجلد (١) -/B/ العدد (٢) – ٢٠١٣. الصفحات (٢٧٤-٢٩٧).
٥٠ـ ”المعروفون من الروزبيانية (الروزبهانية) في الكتب التاريخية“ – محمد جميل الروزبياني – مجلة مجمع العلمي العراقي ـ الهيئة الكردية – المجلد الحادي العشر ١٩٨٤- بغداد . الصفحات (٢٦٧-٣٢٠) .
٥١ـ ”دينور و مشاهيرها“ – محمد جميل الروزبياني – ترجمة محمد الملا عبد الكريم . مجلة المجمع العلمي الكردي ، المجلد (٦) ١٩٧٨- الصفحات (٥٤٣-٥٩٠) . مطبعة المجمع العلمي الكردي، بغداد.
٥٢ـ ”الشيخ عبدالله الربتكي (١٠٦٠هـ -١١٥٩ هـ)“ – سعيد الديوجى – مجلة المجمع العلمي الكردي – المجلد الثاني ، العدد الثاني ١٩٧٤. الصفحات (٢٢٣-٢٣٨).
٥٣ـ ”الشيخ جرجيس الأربيلي“. سعيد الديوجي، مجلة المجمع العلمي الكردي ، المجلد الثالث – العدد الثاني ، بغداد ١٩٧٥. الصفحات (٥٩٠-٦٠١).
٥٤ـ ”العزّ الضرير الأربيلي“ . محسن محمد حسين . مجلة المجمع العلمي الكردي ، المجلد الخامس، بغداد ١٩٧٧. الصفحات.(٤٤٩-٤٣٩)
٥٥ـ ”محمد بن آدم البالكي“ . زبير بلال اسماعيل ، مجلة المجمع العلمي الكردي، المجلد الخامس، بغداد ١٩٧٧- الصفحات.(٤٧٨-٤٥٠
٥٦ـ ”مشطوب الهكاري – سيرة مجاهد صفحة مشرقة من حياة أحد قادة الكرد في الحروب الصليبية“ . محسن محمد حسين ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، الهيئة الكردية ، المجلد الثامن ، بغداد ١٩٨١, الصفحات (٣٠١-٣٢٥).
٥٧ـ ”المعروفون من الروزبيانية (الروزبهانية) في الكتب التاريخية“ – محمد جميل الروزبياني ، مجلة المجمع العلمي العراقي ،الهيئة الكردية ، المجلد الثاني عشر ١٩٨٥. الصفحات (٣٣١-٣٨٨).
٥٨ـ ”صفحات من حياة الملا محمد الكويى و لمحات من شعره“ مغديد حاجي . مجلة المجمع العلمي العراقي ، الهيئة الكردية, المجلد الثاني عشر ١٩٨٥. الصفحات (٣٨٩-٤٢٣).
٥٩ـ ”الأمير ابن المشطوب الهكاري ٥٧٥-٦١٩هـ/ ١١٧٩ – ١٢٢٢ م سيرته و عصره“ . د. نهبهز مجيد أمين . مجلة جامعة السليمانية ، العدد (١) ، لسنة ٢٠٠٠. الصفحات (١-٢٣).
٦٠ـ ”الأمير سيف الدين علي المشطوب الهكاري ودوره العسكري في الدولة الأيوبية (٥٦٤-٥٨٨هـ /١١٦٨-١١٩٢م)“ – فوزي خالد الطواهية . المجلة الأردنية للتاريخ و الآثار .المجلد (١٤)، العدد(٣) ، ٢٠٢٠م . الصفحات (١١١-١٢٧).
٦١ـ ”عماد الدين أحمد بن المشطوب وأثر حركات عصيانه على سلاطين بني أيوب وملوكهم (٥٩٠ -٦١٩هـ / ١١٩٣-١٢٢٢م)“ ـ محمود محمد الرويضي – المجلة الأردنية للتاريخ و الآثار- المجلد(٣)- العدد(٢). ٢٠٠٩. الصفحات (٦٥-٩٦).
٦٢ـ ”الشاعرة ماه شرفخان كردستاني (مستورة)“. حميد كشكولي. مجلة سردم العربي ، السنة الأولى – العدد الثالث – شتاء ٢٠٠٤. إقليم كردستان – الصفحات (١٠٧-١١٢) .
٦٣ـ ”الشيخ رضا الطالباني (١٨٢٥-١٩١٠)“. عمر علي شريف ، مجلة سردم العربي ، العدد(٢٠) ، ٢٠٠٨- إقليم كردستان .الصفحات (٢١٥-٢١٦).
٦٤ـ ”من مشاهير المتصوفة في كردستان : الشيخ حسن قره جيواري“ . بقلم الشيخ صديق البرزنجي ، مجلة سردم العربي ، العدد(١٣) ، ٢٠٠٦ – إقليم كردستان ، الصفحات (١٨٤-١٨٦).
٦٥ـ ”قاضي محمد (١٩٠١-١٩٤٧) ، إعداد سردم عربي ، مجلة سردم العربي ، العدد(٨) ، ٢٠٠٥، إقليم كردستان. الصفحات(١٩٦-١٩٦)
٦٦ـ ”نساء خالدات (ماه شرفخانم ، خانزاد، قدم خير ، حفصه خان)“ – عمر علي شريف. مجلة سردم ، العدد(٩) ٢٠٠٥، إقليم كردستان. الصفحات (٢٠٢-٢٠٧).
٦٧ـ ”الشيخ سعيد بيران (١٨٦٥-١٩٢٥)“ – إعداد ياسين عمر – مجلة سردم العربي ، العدد(١٠) ، ٢٠٠٥, إقليم كردستان .الصفحات (١٩٦-١٩٨) .
٦٨ـ ”شريف باشا ، سنوات عاصفة لدبلوماسي كردي“ . روهات آلاكوم ، ترجمة شكور مصطفى – الناشر: دار سبيريز للطباعة والنشر, دهوك ، الطبعة الأولى ٢٠٠٤ – (٢٠٠ صفحة).
٦٩ـ ”شريف باشا حياته و دوره السياسي (١٨٦٥-١٩٥١)“ . صالح محمد حسن (عزت بادي) – الناشر : دار سبيريز للطباعة والنشر دهوك ، الطبعة الأولى ٢٠٠٥. (٢١٠ صفحة). مطبعة وزارة التربية – أربيل. ٧٠ـ ”القاضي شهاب الدين الخويي دراسة في سيرته و نشاطه العلمي (٦٢٦-٦٩٣هـ / ١٢٢٩- ١٢٩٤م)“ . آكو برهان محمد -گوڤارى زانكو بۆ زانسته مرۆڤايهتيهكان – بهرگى (١٨) – ژماره (٦) سا ى ٢٠١٤. جامعة صلاح الدين ، أربيل – الصفحات (٩٥-١٠٨)
٧١ـ ”البشنوي الكردي (٤٥٦ هـ} حياته و ماتبقى من شعره « – عبد الإله عبد الوهاب هادي العرداوي – حيدر هادي سلمان الأسدي. مجلة جامعة كرميان حزيران ٢٠١٧. الصفحات (٧٤٨-٧٦٤).
٧٢ـ ”الملا عبد الكريم مدرس غواص بحر العلم والأدب“ . إبراهيم باجلان – مجلة سردم العربي ، السنة الثالثة ،العدد الرابع عشر، خريف ٢٠٠٦. إقليم كردستان. الصفحات (١٧٢-١٧٥).
٧٣ـ ”الشاعر والفيلسوف أحمد خاني“ . مجلة سردم العربي اعدد(١٥) ، ٢٠٠٧ ، إقليم كردستان. الصفحات (٢٠٩-٢١١).
٧٤ـ ”فائق بيكاس شاعر ثوري من كردستان“- جمع و إعداد محمد عبد الرحمن زنكنه . مجلة سردم العربي العدد (١٦) . ٢٠٠٧، إقليم كردستان . الصفحات (١٣٨-١٤٤).
٧٥ـ ”إسماعيل آغا شكاكي“ . إعداد عوني الداوودي ، مجلة سردم العربي العدد (٢٢) ، ٢٠٠٨, إقليم كردستان. الصفحات. (٢٠٥-١٩٨).

دعوة للنشر فى دار نفرتيتى

دار نفرتيتي هي أول دار نشر مصرية تتخصص في نشر الكتاب الكردي باللغة العربية في مصر، وللكتاب الكرد في مختلف مجالات الثقافة والفكر والإبداع الأدبي. إدراكًا منها لأهمية الثقافة في دعم وترسيخ التواصل بين الشعبين الكردي والمصري والعربي. وقد أصدرت الدار لعدد كبير من الكتاب والمفكرين والسياسيين والأدباء الكرد في مختلف مجالات المعرفة.

وترحب الدار بتلقي ونشر الانتاج الفكري والأدبي للكتاب والمفكرين والأدباء والباحثين الكرد، وتقديم كافة الخدمات المتعلقة بالنشر والتوزيع والتسويق في مصر والدول العربية ومعارض الكتب التي تقام فيها.

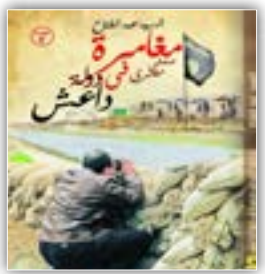

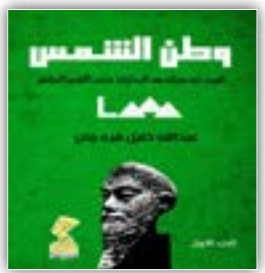

للتواصل: rof_sayed@hotmail.com 00201148852668